
رواية
رواية
مشرقة وإيجابية
عن اكتشاف
الذات
يوم
تعلّمتُ
أن أعيش
لوران غونيل
نوفل

رواية

يوم تعلّمتُ أن أعيش

لوران غونيل

نقلته من الفرنسيّة ناتالي الخوري



نوفل

صدرت عام 2019 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

المكلّس، بناية أنطوان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

صورة الغلاف: **Shutterstock** ©
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **سابين طاوقجيان**

ر.د.م.ك.: 978-614-469-050-5

Original title:
Le jour où j'ai appris à vivre
© Kero, 2014

إلى شارلوت وليوني

«مَن كان سيّدَ نفسه، كان أقوى مِن سيّد العالَم.»

بوذا

«لا يعي الإنسانُ وجودَه إلّا في اللحظات الحَرِجة.»

كارل ياسبرس

1

يُستأصَل الشرّ من جذوره.

من نافذة الحمّام، في الطابق العلويّ للمنزل الورديّ الصغير الذي استأجره منذ حوالى ثلاثة أشهر في شارع جميل في سان فرانسيسكو، راح جوناثان يراقب، وهو يحلق ذقنه في حركة عفويّة، توغُّل النَفَل المستمرّ بين عشب الحديقة. كانت مرجة العشب الواهنة المصفرّة تحت لهيب شمس يوليو الخانق، تلفظ أنفاسَها الأخيرة. لم ينفع المبيد. لقد أفرغ على المرجة برميل الكلوبيراليد كاملًا مطلع الشهر، ولم يُجْدِ الأمر فتيلًا. لم يعُد ينفع سوى اقتلاع الأعشاب الضارّة واحدةً واحدةً، قال جوناثان في قرارة نفسه، فيما كانت ماكينة الحلاقة الكهربائيّة تداعب ذقنه على وقع أزيز رتيب ومتكرّر. كان يعتزم أن يعتني بالحديقة أقصى عناية. فموقعها المكشوف لناحية الجنوب، خلف المنزل، جعلها ميدان لعب ابنته كلويه، عندما تأتي لزيارته، مرّة كلّ عطلتَي أسبوعين.

فيما كان يستكمل حلاقة ذقنه، راح جوناثان يستعرض رسائله الإلكترونيّة في هاتفه الذكيّ: طلبات الزبائن، شكوى، غداء مؤجّلًا، تقرير المحاسبة الشهريّ، عرضًا من شركة الخلويّ، وبعض الأخبار المتفرّقة.

عاد ليقف أمام المرآة، ثمّ تناول فرشاةً وزجاجة صباغ داكن. في عناية فائقة، بدأ يصبغ أولى شعراته البيضاء. ستّ وثلاثون سنةً... ما زال الوقت مبكرًا لتقبّل بصمات الزمن.

أنهى في عجل ترتيب هندامه، لئلّا يتأخّر عن موعده اليوميّ في مقهى الساحة: فمنذ إنشاء شركة التأمين الصغيرة، قبل خمس سنوات، والشركاء الثلاثة يلتقون في هذا المقهى لارتشاف القهوة سويًا، صباح كلّ يوم. أحد الثلاثة لم يكن سوى زوجته السابقة، أنجيلا. أمّا انفصالهما أخيرًا فلم يبدّل تلك العادة التي باتت بمثابة طقس ثابت لا يتغيّر.

كانت شركتهم الوحيدة المختصّة بصغار تجّار المنطقة. على الرغم من انطلاقتها البطيئة باديْ الأمر، إلّا أنها استطاعت أن تحقّق نوعًا من التوازن، مؤمّنةً لكلّ من الشركاء والسكرتيرة، راتبًا شهريًا ولو ضئيلًا. لقد نجحت الشركة في تركيز دعائمها وباتت آفاق نموّها وتطوّرها واعدةً. في طبيعة الحال، كان لا بدّ من الكفاح، وكان جوناثان يمرّ أحيانًا في فترات يأس عابرة، لكنّه ظلّ يؤمن بأنّ كلّ شيء ممكن، وبأنّ الحدود الوحيدة هي تلك التي نرسمها بأنفسنا.

خرج إلى سفرة الدرج، ونزل حتى البوّابة الخارجيّة. كان الهواء يعبق بعطر ضباب الصيف. لم تكن الحديقة الصغيرة التي تفصل المنزل عن الشارع، أفضل حالًا من الأخرى: لقد كانت مكشوفة لناحية الشمال، بالتالي، تتعرّض أيضًا لغزو الطحالب.

كانت ثمّة رسائل في انتظار جوناثان في صندوق البريد. فضّ رسالةً من البنك. تكلفة إصلاح السيّارة أخلّت توازن حسابه المصرفيّ. لا بدّ من إيداع مبلغ في أسرع ما يمكن لسدّ العجز. كانت الرسالة الثانية من شركة الهاتف. طبعًا، فاتورة أخرى للدفع...

– صباح الخير!

حيّاه جارُه الذي كان هو الآخر يتفحّص بريدَه، في ملامح هادئة مرتاحة. ملامح مَن تبتسم لهم الحياة. ردّ عليه جوناثان بالمثل.

مالت عليه قطّةٌ واحتكّت بساقه وهي تموء. انحنى جوناثان ليداعبها. كانت القطّة لسيّدة عجوز تقيم في مبنى صغير مجاور. غالبًا ما كانت تتسلّل إلى حديقة جوناثان، ما يُبهِج قلب ابنته كلويه.

سبقت القطّة جوناثان إلى الشارع، ثمّ راحت تموء أمام بوّابة المبنى، وهي تنظر إليه. دفع جوناثان البوّابة، فاندفعت القطّة إلى الداخل وهي لا تزال ترمقه.

قال جوناثان، وهو يفتح باب المصعد:

– تريدين أن أرافقك، أليس كذلك؟ تعرفين أنّني مستعجل. هيّا، أسرعي!

لكنّ القطّة بقيت عند أسفل الدرج، تموء بصوت خافت.

– أعلم أنّكِ تفضّلين الدرج... لكن، لا وقتَ لديّ الآن. هيّا تعالَي...

أصرّت القطّة، وهي تغمز بعينيها. تأفّف جوناثان.

– إنّكِ تبالغين...

أخذ القطّة بين يديه، وصعد درجات السلّم حتى الطابق الثالث. رنّ الجرس، ومن دون أن ينتظر الجواب، هبط درجات السلّم.

سمع السيّدة العجوز تقول:

– ها أنتِ أيّتها الشقيّة!

اجتاز جوناثان الشارع الصغير وبيوته التي لم تستيقظ بعد، وانعطف إلى اليمين في الشارع التجاريّ، ليصل إلى الساحة الصغيرة، حيث موعده مع شريكيه.

عادت إلى ذهنه تظاهرة أمس التي شارك فيها احتجاجًا على قَطع أشجار في غابة الأمازون. لقد ضمّت بضع مئة من المحتجّين، واستطاعت أن تجتذب اهتمام الصحافة المحلّيّة. إنها بداية لا بأس بها.

عند مروره أمام واجهة متجر الملابس الرياضيّة، ألقى نظرةً على الحذاء الذي كان يلفته منذ مدّة. حذاء رائع، لكنّه باهظ الثمن. ابتعد قليلًا، فدغدغت أنفه رائحة الكعك الساخن الشهيّ التي كانت تنبعث من مخبز الحلويات النمسويّة، عبر مسارب تهوئة وضعت عمدًا على الواجهة لتدغدغ أنف كلّ من يمرّ. كاد يتخلّى عن مقاومة هذه الشهوة، لكنّه ما لبث أن حثّ الخطى وابتعد. تناول الكعك يزيد حتمًا مستوى الكوليستيرول. أوليست هي أسوأ الرغبات التي نقاومها على مدار الساعة؟

كان مشرّدون يغطّون في النوم تحت بطّانيّات رثّة، مفترشين الأرض هنا وهناك كيفما اتّفق. كان السمّان المكسيكيّ قد فتح دكّانه، وكذلك بائع الصحف، تلاهما بعد بضعة أمتار، الحلّاق البورتوريكيّ. في طريقه، التقى بعض الناس ممّن أَلِفَ وجوهَهم، يقصدون أعمالهم، شاردي الأذهان. بعد أقلّ من ساعة، ستضجّ الساحة حياةً وصخبًا.

كان ميشين ديستريكت أقدم حيّ في سان فرانسيسكو. كلّ ما فيه متنافر ومتناقض: فيلّات من العصر الفيكتوريّ شبه ذاوية تجاور مبانيَ خاوية لا روح لها، بمحاذاة مباني عتيقة وَبيئة، لا تصلح للسكن. منازل قديمة بألوان الباستيل المختلفة، تلامس أبنية تغطّي جدرانها كتابات ورسوم صارخة الألوان. أمّا سكّان الحيّ أنفسهم فكانوا يتوزّعون على مجموعات عدّة يصادف بعضها بعضًا من دون أن يعاشر أحدها الآخر، فتسمعهم يرطنون بلغاتٍ شتّى، كالصينيّة والإسبانيّة واليونانيّة والعربيّة أو الروسيّة. كلٌّ يعيش في عالمه من دون أن يأبه بالآخر.

اقترب متسوّل ومدّ يده، فتردّد جوناثان هنيهةً، ثمّ مضى في طريقه، متجنّبًا النظر إليه. لا يمكن أن تتصدّق على جميع الناس.

كان شريكه مايكل سبقه إلى تِرّاس المقهى. هو أربعينيّ وسيم، صاحب ابتسامة ساحرة، يتكلّم في سرعة قصوى، ويفيض حيويةً،

حتى تكاد تتساءل ما إذا كان يستمدّ طاقته من بطّاريّات عالية التوتّر، أم يعيش بفضل حِقَن المُنشّطات. كان يرتدي طقمًا رمليّ اللون وقميصًا أبيض، وربطة عنق برتقاليّة من الحرير المجدول. كان يجلس إلى طاولة أمامه فنجان قهوة كبير، وقطعة من الكيك بالجزر كأنّما أُعِدّت خصّيصًا لتتماشى مع ربطة عنقه. كان تِرّاس المقهى يحتلّ حيّزًا واسعًا من رصيف الطريق، لكنّه يمتدّ إلى العمق ما يكفي لينسى روّاده السيّارات العابرة خلف صفّ الشجيرات المغروسة في أصص خشبيّة كبيرة، إنّما تليق بدفيئات القصور. كانت طاولات وكراسي الخيزران تضفي انطباعًا بأنّك في مكان آخر، لا في المدينة.

صاح مايكل بصوتٍ يتهدّج حماسةً:

– كيف حالُك، بخير؟

كأنّه استنسخ دور جيم كاري في فيلم «القناع».

أجابه جوناثان، كالعادة:

– وأنت بخير؟

أخرج من جيبه قارورة صغيرة مليئة بسائل مضادّ للبكتيريا. صبّ منها بضع قطرات على أصابعه، وفرَكَ يديه بشدّة. بادره مايكل بابتسامة من يتسلّى.

– في أفضل أحوالي! ماذا أطلب لكَ؟ حلوى اليوم لا تُفوَّت.

– صرتَ تتناول الكيك مع الفطور؟

– هذا نظامي الغذائيّ الجديد: شيءٌ من السكّر عند الصباح، لانطلاقة نشيطة، ثمّ لا أتناول السكّر أبدًا طوال النهار.

– اطلب لي قطعة كيك إذًا.

نفّذ مايكل الطلب بإيماءة من يده إلى النادل.

من بين الشركاء الثلاثة، كان مايكل الأكثر قدرةً على الإمساك بخيوط المهنة. كان جوناثان يكُنّ له بعض الإعجاب في سرّه، ويحسده على السهولة التي يستطيع بها تطويع الزبون لحمله على الاقتناع

بوجهة نظره. عندما كان يرافقه في جولة على التجّار، بحثًا عن زبائن محتمَلين، كان يشهد جلسات تفاوض لا يستوعبها عقل، حيث يقلب مايكل رأسًا على عقب قناعة تاجر عنيد. بعدما أمضى جوناثان وقتًا طويلًا يتعلّم ويتدرّب على أساليب البيع، بات يتدبّر أمره مع الزبائن، لكن، كان عليه بذل جهود قصوى، حيث كان مايكل يبرع تلقائيًا، مسخِّرًا كلّ التقنيّات المُتاحة لكي يُقنع الزبائن بإبرام عقود جديدة، واعتماد خيارات جديدة، وزيادة عقود التأمين ضدّ الأخطار، حتى أنّهم كانوا ينتهون بأن يوقِّعوا من دون أن ينبهوا على بوالص تأمين ضدّ الخطر عينه مرارًا وتكرارًا... لطالما أسرّ مايكل إلى شريكَيه: أهمّ انفعال هو الخوف وهو خير حليف لخبير التأمين؛ يتجلّى بصيصه في عينَي التاجر، حالَما يُصوِّر له حجم الكوارث التي قد تصيبه، أو الخسائر المُحتملة في حال التعرّض للسرقة أو النزاعات القضائيّة. يولد شعور الخوف ضئيلًا بادئ الأمر، ثمّ ماكرًا يتزايد في استمرار، فلا يلبث أن يتغلغل في دهاليز ذهن التاجر حتّى يصبح هو الآمر الناهي في اتّخاذ القرار. وما قيمة العلاوة السنويّة التي يدفعها التاجر لقاء التأمين ضدّ تلك الأخطار المرعبة، إذا ما قورِنت بالخسائر الجسيمة التي قد يتعرّض لها بسبب كارثة ما أو دعوى قضائيّة يتقدّم بها زبون مغبون؟ كلّما صُوِّرت الاحتمالات قاتمة، بدت تكلفة التأمين هزيلة...

كان جوناثان مستقيمًا ونزيهًا، وكان يشعر بتأنيب الضمير بين حين وآخر. لكنّ كلّ منافسيه كانوا يطبّقون تلك الأساليب، وأن يمتنع وحده عنها قد يُلحِق به ضررًا هو في غنًى عنه. كان يردّد في قرارة نفسه: في عالمٍ لا يَرحم، قواعد اللعبة هي ما هي عليه؛ من الأفضل أن يتقبّلها، ثمّ يتملّص منها بلباقة متى دعت الحاجة، لئلّا ينضمّ إلى قافلة مهمَّشي المجتمع...

– أتعرف؟ قال مايكل، فكّرتُ كثيرًا في وضعكَ في الآونة الأخيرة.

– وضعي؟

هزّ مايكل رأسه بلطف إيجابًا. كانت نظرته مفعمة بالتعاطف.

– كلّما نظرت إليكما، تصوّرتُ الجحيم الذي تعيشه، كونكَ مُلزَمًا العملَ يوميًا مع زوجتك السابقة.

باغته هذا الكلام، فنظر جوناثان إلى شريكه، ولم يُجِبْ.

– كلٌّ منكما يُلحِق الأذى بالآخر، وهذا أمرٌ غير مقبول.

لزم جوناثان الصمت مذهولًا.

– لا يمكن هذا الوضع أن يستمرّ.

خفض جوناثان عينَيه، فرمقه مايكل بنظرة تكاد تشي بالحنان.

– إذًا، يجب استباق الأمور...

تناول قضمة من الكيك، وتابَع:

– فكّرتُ مليًا وقلّبتُ الموضوع في وجوهه كافّة، وتوصّلتُ في النهاية إلى اقتراح.

– اقتراح؟

– نعم.

بقي جوناثان صامتًا.

– اسمَع. لكن، لا تُعطِني رأيك فورًا. فكّر مليًا، وخذ الوقت الكافي.

نظر إليه جوناثان في اهتمام.

– أنا على استعداد لشراء حصّتك إذا أردتَ الانسحاب من الشركة.

– حصّتي... من شركة التأمين؟

– نعم، حصّتك من شركة التأمين، لا من الكيك.

خانت جوناثان الكلمات. لم يتصوّر يومًا أن ينسحب من الشركة التي أسّسوها معًا. لقد سخّر ذاته جسدًا وروحًا للعمل فيها، حتى غدت... جزءًا منه. أحسّ بمعدته تنقبض. تخلّيه عن الشركة يعني تخلّيه عن القلب النابض في حياته، وأن يبدأ مجددًا من الصفر، وأن يُعيد بناء كلّ شيء من جديد...

في المقهى، كان جهاز التلفزيون المثبّت على الجدار يعرض صورًا لأوستن فيشر، بطل كرة المضرب الذي كان يُراكم كؤوس الفوز، الواحدة تِلْوَ الأخرى. بعدما فاز مجدّدًا في كأس ويمبلدون منذ بضعة أسابيع، ها هو يتقدّم إلى بطولة فلاشنغ ميدوز كمرشّح أوّل للفوز ببطولة الـ«يو-إس-أوبن».

راح جوناثان ينظر إلى تلك المشاهد من دون أن يراها. بيع حصّته لمايكل يعني أيضًا تخلّيه عن حلمه السرّيّ في التفوّق عليه، وفي أن يُصبح هو أيضًا، صاحب أعلى نسبة من المبيعات.

استطرد مايكل:

– عليّ أن أطلب قرضًا؛ وسيكون عبئه ثقيلًا، لكنّه قد يكون الحلّ الأنجع لنا جميعًا.

– مرحبًا جميعًا.

جلست أنجيلا إلى طاولتهما، مطلقةً تنهيدة أسى طويلة، تعبيرًا عن استيائها، على الرغم من ابتسامة طفيفة على شفتيها. كان جوناثان يعرفها عن ظهر قلب.

– كيف حالكِ، بخير؟ تجشّأ مايكل كلماته.

– رفضت ابنتكَ أن تغسل أسنانها، قالت أنجيلا وهي تشير بذقنها إلى جوناثان. وأضافت: طبعًا، لم أذعن. بقيتُ أجادلها طوال عشر دقائق... وكانت النتيجة أنّنا وصلنا إلى المدرسة لنجد الأبواب موصَدة. اضطُرّت إلى أن تطرق باب الحارس، فتلقّت تأنيبًا قاسيًا. لا بأس فهي تستحقّ ذلك.

– قهوة خفيفة، كالعادة؟ سألها مايكل، والبسمة لا تفارق شفتيه.

– كلّا، فنجان قهوة مزدوجًا، أجابت أنجيلا، وهي تتنهّد مجدّدًا.

أومأ مايكل إلى النادل. رمقت أنجيلا جوناثان بنظرة تُرافقها ابتسامة لاذعة.

– تبدو هادئًا أنت. في كامل الاسترخاء.

غضّ جوناثان الطرف. مرّرَت أصابعها في شعرها الكستنائيّ الذي كانت أطرافُه تلامس كتفَيها.

– لُمتَني لأنّني أهتمّ بنبتاتي أكثر من ابنتي، ولكن...

– أنا ما لمتُكِ يومًا على هذا الشأن، اعترض جوناثان، إنّما بلهجة شبه مستسلِمة.

– لكنّ نبتاتي لا تتمرّغ أرضًا، وهي تصرخ وتزعق.

كبتَ جوناثان ابتسامة، ثمّ ارتشف قهوته من دون أن يقول شيئًا. مضت ثلاثة أشهر على انفصالهما، لكنّها لا تزال تُعاتبه وتلومه، تمامًا كما كانت تفعل سابقًا. فجأةً أحسّ ويا للغرابة، بأنّه يستسيغ الأمر. فهذا يُشعِره بأنّ علاقتهما ما زالت مُستمرّة، على الرغم من كلّ شيء. في تلك اللحظة، أدركَ ما لم يعترف به من قبل: ما زال الأمل باستعادة علاقتهما حيًّا في أعماقه.

أمّا بيع حصّته لمايكل فقد يعني التخلّي عن هذا الأمل، إذ يقطع الرابط اليوميّ الأخير الذي يجمعه بأنجيلا.

في عجل، ترك جوناثان شريكَيه في المقهى لينصرف إلى موعد العمل الأوّل. كانت لائحة الزبائن المُحتملين الذين ينوي زيارتهم طويلة. يوم شاقّ في ما يبدو، لكنّه آخر يوم عمل قبل عطلة نهاية الأسبوع. سيكون لديه الوقت الكافي بعد ذلك للاستراحة.

لم يخطر في باله ولو لحظة أنّ حياته ستنقلب رأسًا على عقب بعد يومين فقط.

2

«تعابير الوجه من الجانب منقبضة قليلًا. وقف، ألقى تحيّةً خاطفة، ثمّ أدار ظهره وابتعد.»

في دقّة شديدة، تتبّعت عدسة كاميرا الـ«نيكون» المُقرّبة تحرُّكات جوناثان، إلى أن غادر تِرّاس المقهى. تلاشت خطوط قامته. أوقف ريان التصوير، ثمّ استقام. من خلال الستارة السوداء، في الطابق الثاني من مبناه المواجِه الساحة، راح ينظر إلى الرجل وهو يبتعد.

– غياب سرعة البداهة... يبتلع إهانات الآخرين من دون التفوُّه بكلمة... طريف نوعًا ما، لكن ليس فظيعًا. فلنَقُل... 10 على 20 أو بالكاد، تمتم ريان.

مسح يديه المتعرِّقتين ببنطاله الجينز، وشدّ طرف الـ«تي-شيرت» السوداء ليمسح بها عرق جبينه. الأسود لا يتّسخ في سهولة، تلك حسنته.

بينما أجال بصره على تِرّاس المقهى، رصد امرأتين تتّسمان بشيء من الأناقة. كان يعرف إحداهما، فقد صوّرها مرّتين أو ثلاثًا، ولكن ما صوّره لم يصلح ليكون فيديو مسلٍّ. صوّب نحوهما الكاميرا المجهّزة بمايكروفون لاقط عالي التقنيّة ومتعدّد الاتّجاه. أعاد وضع سمّاعة الرأس، فتردّد صوت المرأتين في أذنيه في وضوح تامّ. لم يندم ريان

على شراء الجهاز: فمن مسافة أكثر من ثمانين مترًا، كان يسمعهما كأنّه جالسٌ إلى طاولتهما.

– بلى، بلى، هذا صحيح، قالت الأولى. أؤكّد لكِ. ومع ذلك، كنتُ قد جمّدتها سلفًا. قبل ستّة أشهر في الأقلّ. حجزتُ كلّ شيء، طبعًا. الطائرة، الفندق... كلّ شيء.

أجابَت الثانية، وهي تهزّ رأسها استنكارًا:

– هذا غير لطيف على الإطلاق. هل اشتريت بوليصة تأمين تحميك من خطر إلغاء السفرة؟

– بالتأكيد! تصوّري، لقد فعل بي الفعلة عينها منذ ثلاث سنوات. والآن أصبحتُ حذرة.

– لو كنت مكانكِ لانتقلتُ إلى شركة أخرى. بمؤهّلاتك المهنيّة تستطيعين أن تجدي الوظيفة التي تحلو لكِ. أمّا أنا فشبه عالقة...

صوّر ريان المشهد بعض الوقت، ولكن من دون جدوى. في الأسبوع الفائت، لاحظ أنّ نافذة غرفته في الجهة الأخرى من المبنى تُطِلُّ على حديقة المرأة الشابّة، من مسافة مئة مترًا تقريبًا. هي بعيدة بعض الشيء، إنّما قد يتمكّن من التصوير إذا ما استَعملَ مُضاعِف البُعد البؤري، هذا إن كان هناك ما يستحقّ التصوير فعلًا. من موقعها في الطابق الثاني، كانت شقّة ريان نقطة استراتيجيّة بامتياز؛ من جهة، يُطِلّ المبنى على الساحة عند الزاوية تمامًا، وتحديدًا يُشرف على ترّاس المقهى في أكمله، ومن جهة أخرى، على صفّ حدائق المنازل والمباني؛ حدائق غالبًا ما تشكّل مسرحًا لمشاهد عائليّة، هانئة في ظاهرها. كثير منها قد بلغ تقييم الـ12 على 20، السقف الذي يعتمده ريان ليستحقّ المشهد وعن جدارة أن يُنشَر في مدوّنته الإلكترونيّة.

عبّ جرعة من الكوكا، ثمّ أجال نظره على الترّاس. لمح رجلًا وامرأةً، خمسينيّين، في خضمّ مناقشة حادّة، فسلّط عليهما الكاميرا.

– عندما أكلّمك أشعر بأنّني أخاطِب تمثالًا من الشمع، كانت المرأة تقول.

ركّز ريان الكاميرا على وجه الزوج الذي بدا بين غائب وتائب.

– الشمع يذوب تحت الشمس. أمّا أنت فلا شيء يُذيبك. تبقى باردًا كالجليد. أو في الأحرى كتمثال من رخام. نعم، تمامًا كالرخام. كالقبر الأصمّ. عاجز عن الكلام. عاجز عن التواصل...

عند سماع تلك الكلمات، اجتاحت ريان موجة من الحقد، فأوقف التصوير.

«عاجز عن التواصل.» المَلامة عينها التي وُجِّهَت إليه مذ دخل عالم الأعمال، متأبّطًا شهادة الهندسة. وبعد سبع سنوات، ما زالت تلك الملامة حيّة لاهبة في ذاكرته.

راودَته صورة مدير الموارد البشريّة، في سحنته الساذجة، وهو يُطلِعه بنبرته المعسولة على نظريّته التافهة الفارغة. ففي رأيه، «ثمّة أشكال عدّة من الذكاء»، مع أنّه لم يكن الشخص المُخوّل للخوض في الموضوع. «والذكاء العقلانيّ ليس الوحيد، فللذكاء الانفعاليّ أو العاطفيّ، أهميّته هو أيضًا.»

الذكاء العاطفيّ إذًا... كم تُختلَق من ذرائع لطمأنة الأغبياء... ولِمَ لا يُقال أيضًا الذكاء العضليّ، والذكاء الهضميّ، والذكاء التغوّطيّ؟

والحقّ أنّه طُرِد، إذ لم يشإ الهبوط على غرار الآخرين إلى مستوى الأغبياء ليخاطبهم. في الواقع، هذا ما كان متوقّعًا منه. في مملكة الحمقى والمغفّلين، مَن يتكلّم لغة الأغبياء هو مَلِك. كان يجب تدريس تلك اللغة في جامعة بيركلي أو جامعة ستانفورد بدلًا من لغة الكمبيوتر وتطبيقات الـ Visual Basic. والأمر سيّان في السياسة: يفوز في الانتخابات مَن يتلو على جمهوره الهراء الذي يرغب هذا الأخير في سماعه. وكلّما تزايدت الحماقات، نجحت الحملات أكثر فأكثر.

تنفّس ريان نفَسًا عميقًا ليهدّئ توتّره. لم يعد ينقص سوى أن يُصابَ بسكتة دماغيّة حتّى يتسنّى للأغبياء أن ينتقموا منه.

كلّما استعاد شريط بداياته المهنيّة في ذهنه تكرّر الأمر عينه. كانت مشاهد مقابلات التوظيف، التي تلت صرفه من العمل، تراوده من جديد: ها هم يُعذّبونه لمعرفة أسباب تركه المبكر للوظيفة. مقابلات مُذِلّة حيث يستجوبونه حول حياته الخاصّة، وحول تفاصيل حميميّة لا شأن لها في العمل. كم تمنّى لو يصرُخ في وجوههم: «وما علاقة هواياتي بالوظيفة التي سأشغلها؟» و«ما شأنكم بي إن كنتُ متزوِّجًا أو عازبًا؟». كان عليه أن يقولها، أن يتركهم لغبائهم وينصرف فورًا، وتحديدًا أن يرفض تجاربهم التقييميّة، ولعبة الأدوار المُزرية... ودائمًا استنتاجاتهم المتسرِّعة، والسخيفة والبائسة: «تجب مراقبة مؤهّلاته العلائقيّة... سيلاقي صعوبةً في العمل ضمن فريق... عاجز عن التواصل».

محا ريان تسجيله الأخير المصوّر.

أمّا اليوم، فهو مضطرّ إلى الاكتفاء بوظيفة مُبرمِج معلومات براتب هزيل. كان العمل من المنزل الحسنة الوحيدة لوظيفة الدوام الكامل هذه. وكان يفرغ منها في غضون نصف نهار.

محموم الذهن، عبّ ثلاث جرعات من الكوكا، ثمّ استدار نحو شاشة الكمبيوتر. 176 «أعجبني»، و12 تعليقًا على آخر فيديو نشره: مشهدٌ يُظهِر شخصًا يغيّر رأيه أربع مرّات وهو يطلب وجبته من النادل، ثمّ يتناول طبق البرغر، حزينًا مُكتئبًا، وهو يُسرّ إلى رفيقه بأنّه كان يفضّل سندويش نقانق الـ«هوت دوغ». سُحنة أبله القرية في امتياز. مُضحِك إلى حدّ مميت.

كانت مدوّنته، «آخر أخبار مينيابوليس»، تغصّ بمشاهد من هذا النوع. وكان يجني بعض المال من اللافتات الإعلانيّة من هنا ومن هناك. أفضل من لا شيء. لقد تردّد في تسمية المدوّنة «يوميّات

الأغبياء»، لكنّه فضّل أن يشير في الاسم إلى مدينة بعيدة كلّ البُعد من سان فرانسيسكو. كان يصوّر شرائط الفيديو بلقطات مقرّبة، فيستحيل التعرّف إلى الأماكن وعناوينها. كان ذلك مجرّد تمويه ليبعد نفسه عن المشاكل، فالقانون في كاليفورنيا واضح وقاطع: يجب الحصول مسبقًا على موافقة جميع الأشخاص الحاضرين قبل تصوير أيّ مشهد في مكان عامّ. أمّا في أقاصي الغرب الأوسط، تحديدًا في مينيابوليس، فيمكن أيًّا كان أن يصوّر ما يشاء. وهكذا، كان يشارك مجموعة صغيرة من زوّار الموقع في الإنترنت مرحه وقهقهاته. كان يقول في نفسه: بما أنّ المجتمع نظّمه أغبياء من أجل الأغبياء، فمن الأفضل أن نضحك عليه، عوضًا أن نشكو وننتحب وننتهي بقروح.

من كثرة ما صوّر أهالي الحيّ، صار يعرف أسماءهم ونُتَفًا من قصّة حياتهم. صحيح أنّ معظمها تافه ويثير الاكتئاب في سطحيّته وسذاجته، لكنّ الحماقة قد تُحوّل أحيانًا المُبتَذل الهابِط مُبتَكرًا سائغًا.

عبّ ريان جرعةً أخرى من الكوكا، ثمّ سلّط عدسته على صبيّتين جالستَين قبالتهما كوبان كبيران من الشاي الساخن. كانت إحداهما تنوي الزواج قريبًا، فراحت تسرد على صديقتها مشاريع حياتها المستقبليّة. لم يتمكّن ريان من إخفاء ابتسامة حين سمع نبرة العروس الموعودة تنضح رقّة ساذجة. كان المشهد يعد بأن يكون صالحًا للنشر.

أعاد ضبط كاميرته: فتح عدسته المكبّرة على درجة f8، وثبّت القرب الكافي ليرى كلّ التفاصيل، حتى الرموش المُستعارة والبثور السوداء المُغطّاة بكريم التجميل.

– أنا وبوب نتشارك كلّ شيء، كانت العروس تقول.

– يا لكِ من محظوظة! أمّا أنا، فدائمًا ما يجد كيفن ذريعةً لئلّا يتولّى ترتيب الطاولة بعد الانتهاء من تناول الطعام. وكذلك يتهرّب من نشر الغسيل. يكاد يضيق ذرعي من سلوكه هذا.

– نعم، أفهمكِ. أمّا أنا وبوب فنتقاسم الأدوار. نتقاسم المهمّات. نتقاسم كلّ شيء. حتّى المال، نتقاسم النفقات بالتساوي. كلّ شيء واضح وشفّاف.

– آه، هذا رائع! أمّا نحن فلا نتّبع أيّ قاعدة...

– مثلًا، في ما خصّ الشقّة التي ننوي ابتياعها، قال لي بوب: «من الأفضل أن نتقاسم الأعباء: نكتب الشقّة باسمي، وأتولّى أنا دفع الأقساط الشهريّة، وأهتمّ بكلّ شيء. وأنتِ تدفعين الضرائب والفواتير وتكاليف الطعام وتكاليف العُطل». بعدما أجرى حسابات دقيقة، تبيّن له أنّ الأمر سيّان. بهذا الشكل، نخلق نوعًا من المساواة ولا ندع مجالًا للشجار.

– ولكن... ماذا لو حصل طلاق بينكما... عندئذ تكون الشقّة من نصيبه... وأنتِ... لا تحصلين على شيء؟

– آه... في هذه السرعة... إنّه رجل حياتي، سنتزوّج قريبًا، وأنتِ تفكّرين في الطلاق.

– ولكن...

– ألا تؤمنين بالحبّ أنتِ؟

عضّ ريان على شفتيه. تابع التصوير بضع ثوانٍ تحسُّبًا، ثمّ قطع المشهد. أخيرًا، انفجر ضاحكًا:

– ممتاز يا خُلوتي! لقد فزتِ وعن جدارة بمكان لكِ في مدوّنة مينيابوليس!

3

كان الضباب قد انقشع عن خليج سان فرانسيسكو، فيما لاحت جزيرة ألكاتراز في البعيد، تحيط بها الزرقة من كلّ جانب. كان الهواء الحارّ يعبق بعطر البحر، وأصوات اصطفاق الحبال على أشرعة المراكب الراسية تملأ الآذان. عبّ جوناثان الهواء ملء رئتيه. كان يحبّ تلك اللحظة من أيّام الصيف، حين يتبدّد ضباب الصباح بسحر ساحر، تاركًا مكانه شمسًا ساطعة، ما كان لأحدٍ أن يتوقّعها قبل هنيهات.

كان من النادر أن يزور أرصفة الميناء أيّام الآحاد، فلطالما اعتبرها سياحيّة بامتياز. لكن، في ذلك اليوم تحديدًا، ثمّة ما اجتذبه، رغم أنفه. صحيح أنّه كان يكره عطلة نهاية الأسبوع ما لم تكن ابنته معه، حين يتركه قانون زيارة واحدة مرّة كلّ أسبوعين وحيدًا، وحيدًا جدًّا، بيد أنّه اعتاد الخروج أيّام «الآحاد الراجلة» النادرة التي تخلو من السيّارات، إذ تُخصّص غالبيّة شوارع المدينة للمشاة، وتخلو الطرقات إلّا من الدرّاجات الهوائية والمارّة المتنزّهين.

كانت الصبيحة شاقّة للغاية: اضطرّ إلى نزع النفل بيديه من الحديقة خلف المنزل، وإلى رش كبريتات الحديد من جهة الشارع للقضاء على الطحالب.

كان المارّة يتدفّقون على الرصيف حوله، في جوّ من الحريّة الإيجابيّة والوديّة: أولادًا يقفزون ضاحكين مقهقهين، يلعقون كميات

كبيرة من البوظة التي تذوب على جوانب قرون البسكويت الهشّة. كان نسيم البحر العليل المشبّع باليود، يفسح المجال بين الحين والآخر لروائح الوافل أو الزلابية الساخنة المنبعثة من الدكاكين المجاورة. ونتف ثرثرات وأحاديث تتردّد وسط جلبة مرحة.

دفعته وفود المارّة تلقائيًا إلى زاوية الرصيف، التي كانت تطلّ على جمهرات من الفُقمات، متكوّمة على جزرها الصغيرة العائمة. لقد شاهدها مئة مرّة من قبل، لكنّه لم يكن يستطيع الامتناع عن إلقاء نظرة عليها كلّما مرّ من هناك. كانت أجسامها اللمّاعة تلتصق بعضها ببعض، تمامًا كأجساد السيّاح المتعرّقة المتدافعة للتفرّج عليها من وراء الدرابزين، أمّا هي فلا مبالية، غير آبهة بتلصّص الآخرين عليها.

لم ينفكّ يتساءل على مَن قد تقع المسؤولية إذا انهار الدرابزين برمّته تحت ثقل الفضوليّين، وجرفهم جميعًا إلى صقيع مياه الهادئ. الشركة المصنّعة؟ أم المتعهّد الذي ثبّته؟ أم المشرفين على « Pier 39» الذين جعلوا هذا الرصيف مساحة تجاريّة لاجتذاب الحشود؟ مذ استهلّ بيع بوالص التأمين لتجّار المنطقة، وذهنه مسكون بهذا النوع من التساؤلات. عقدة مهنيّة بحت.

تابع طريقه على امتداد الميناء، يحفّ به بين الفينة والأخرى أحد الفتيان المتزحلقين على الرولرز. كانت فرقة جاز صغيرة تستعيد مقطوعة شهيرة لسيدني بيشيه وهي تعزف على آلات موسيقيّة نحاسيّة برّاقة. وعلى بُعد خطواتٍ، رجلٌ في الستين من العمر يربّت جيوبه بعصبيّة، وهو يقول:

– لم تعد هنا! لقد اختفت!

– ماذا؟ سألته المرأة ذات النظّارة الضخمة التي كانت ترافقه. عمَّ تتكلّم الآن؟

– محفظتي! اختفت محفظتي!

– لا بدّ أنّك نسيتها في الفندق. أنت تنسى كلّ شيء في الآونة الأخيرة...

– ولكن لا... كانت معي... أنا واثق... أنا... آه! ها هي! في جيبي الخلفيّ، قال وهو يتلمّس ردفه الأيسر.

– أنت تفقد صوابك يا عزيزي المسكين...

نظر جوناثان إلى الثنائيّ الهَرِم بتأثُّر. على الأرجح، لن يعيش يومًا هذا النوع من العلاقة.

هو وأنجيلا بقيا معًا طَوال سبع سنوات. وعندما تركَته متهمةً إيّاه، ظلمًا وعدوانًا، بالخيانة، تلقّى صدمةً شديدةً، تلتها فترة قنوط، ثمّ عزلة، فنقص.

سرح بعيدًا في أفكاره، واستفاق على رنين جرس درّاجة هوائيّة.

بما أن السيّارات كانت ممنوعة في الشوارع في ذلك اليوم، استعاد المشاة وراكبو الدرّاجات الساحة، غازين الطريق العامّ في مرح. أمّا الإشارات فقد أذعنت بألوانها الثلاثة، وراحت تومض يئسةً، إلى ما لا نهاية. مع مرور الوقت، أخذت الجموع تتزايد، تجوب الشوارع ذهابًا وإيابًا، ناشرةً بهجتها وسرورها في كلّ زوايا المدينة.

بين الفينة والفينة، كان جوناثان يُلقي نظرةً على هاتفه ليتحقّق من ورود رسالة إلكترونيّة أو رسالة نصّيّة. في بعض الأحيان، كان التجّار يسوّون مشكلاتهم الإداريّة أيام الآحاد، فيبعثون له برسائل إلكترونيّة. ولئن أزعجه ذلك التواصل أحيانًا، فقد كان يخفّف عزلته وشعوره القاتل بالوحدة. كان جوناثان يردّد في نفسه: أن ينشغل الفكر بالأعمال خير وسيلة لصرفه عن الهموم. وبما أنّه أعجز من أن يكون سعيدًا، فخير له أن يكون منشغلًا.

كان يسير في هدوء حين اجتذبت انتباهه جمهرة متحمّسة على نحو غريب: راقصة تجرّ معها حوالى مئة مشارك على أنغام موسيقى إيقاعيّة، تبثّها مكبّرات صوت عالية.

– إنّها موهوبة حقًا، أليس كذلك؟ همست له سيّدة مسنّةٌ تحت قبّعتها الورديّة الواسعة الحواف. إنّها بابيث. هي فرنسيّة. تأتي كلّ «أحد راجل»، وفي كلّ مرّة تجرّ معها المزيد من الناس. يا لطاقتها...

كان جوناثان هو الآخر من أصول فرنسيّة، من جهة والدته. فقد ولد في بورغندي، حيث أمضى جزءًا من طفولته، في قرية صغيرة من كلونيزوا. أمّا والده، الكاليفورنيّ الأصيل، فقد تلقّن فيها أسرار مهنة زراعة العنب وتخميره، من خلال العمل في كروم أحد القصور الشهيرة. هناك تعرّف إلى المرأة التي أصبحت زوجته في ما بعد. بعد سنوات قليلة، انتقلت العائلة لتستقرّ في مقاطعة مونتيري، جنوب سان فرانسيسكو، حيث ابتاعت ملكيّة متداعية مع كرومها المُهمَلة. وقد سمح عقد كامل من العمل الدؤوب بإعادة ارتقاء السلّم درجة درجة، فاكتسب النبيذ الذي تنتجه العائلة بعض الشهرة. وذات يوم من شهر مارس، هبّت عاصفة هوجاء أتت على الكروم بأكملها. لم تكن الملكيّة مؤمّنة ضدّ الكوارث الطبيعيّة، فانتهت المؤسّسة بالإفلاس. مذّاك، لم ينجح والده في تجاوز تلك المأساة.

كان الراقصون الفرحون يرقصون بتناسق خطواتهم وحركاتهم، جميعهم معًا في انسجام تامّ، كأنّ خيطًا خفيًا يربط واحدهم بالآخر. شعر جوناثان برغبة مُلحّة في الانضمام إليهم، في الانخراط بينهم، والامتزاج بإيقاع الموسيقى الأخّاذ. تردّد بعض الشيء، إذ اعتراه خجل غير مُبرّر، ثمّ أغمض عينيه، فأحسّ بصدى الموسيقى يتوغّل في أعماقه ليسري تردّدات في كامل جسمه. كان على وشك أن يعقد العزم ويخطو الخطوة، حين شعر بيد تُمسِك يده. تراجع جفلًا، وقد فتح عينيه. وقفت شابّةٌ أمامه تضغط يده برفق بين أناملها الرفيعة الكامدة. كانت غجريّة. هزيلة، تكاد تختفي في ثنايا ملابسها الداكنة.

– سأقرأ طالعك.

كانت تحملق فيه بعينيها السوداوين الجميلتين. نظرة مثقلة بالمعاني، عميقة، أنيسة إنّما غير باسمة. استمرّت جموع الراقصين والمتفرّجين تتدفّق حولهما وتلامسهما أحيانًا.

ثمّ خفضت الشابّة ناظريها لتركّز على كفّ جوناثان. في بطء، باعدت أناملها الناعمة الدافئة بين أصابع جوناثان. لمسة ضاغطة رقيقة كأنّها مداعبة. شعر بالاضطراب من لمستها المثيرة. انحنت قليلًا على راحة يده. تركها تفعل، جامدًا بلا حراك، متلذّذًا رغمًا عنه بهذه الملامسة غير المتوقّعة، ومتشوّقًا في الوقت عينه لسماع توقّعاتها.

كان وجه الغجريّة باردًا ساكنًا بقسماته المتساوية، ورموش عينيها السوداء الطويلة شبه المعقوفة، وكان شعرها الأسود الكثّ مشدودًا بأناقة إلى الوراء. فجأةً عقدت ما بين حاجبيها وتغضّن جبينها. رفعت رأسها على مهل، وشاب الحزن والانكسار ملامحها. تلقّف جوناثان نظرتها، وقد تبدّلت تمامًا، فكاد الدم يجمد في عروقه. هي نفسها بدت مرتبكة، بل مضطربة إلى أقصى حدّ.

– ما الأمر؟

هزّت رأسها، وأفلتت يده، معقودة اللسان.

– ماذا رأيتِ؟

عابسةً منقبضةَ، تراجعت قليلًا، وهي تُخفض عينيها. شعر جوناثان بنوبة من الإعياء.

– ماذا؟ ما الأمر؟ قولي!

راحت تُحدّق مباشرةً أمامها، وفمها يرتجف بعض الشيء.

– سوف... سوف...

– نعم، سوف ماذا؟

– سوف...

فجأةً استدارت في عجل، ولاذت بالفرار.

علا صوتٌ جهوريّ من بين المارّة:

– ليزا، انتظريني!

كانت غجريّة أخرى، وإنّما بُنيتها أضخم بكثير. لكنّ المدعوّة ليزا توارَت عن الأنظار، مخترقةً الجموع برشاقة.

اندفع جوناثان أيضًا للّحاق بها، لكن في تلك اللحظة تحديدًا، قطعت عليه الطريق درّاجةٌ، تلتها أخرى فورًا. عائلةٌ بأكملها مرّت بدرّاجاتها أمامه، ولم تترك له أيّ فسحة. استشاط غضبًا، لكنّه حاول جاهدًا ألّا تغيب عن نظره، مرتعبًا من فكرة أن يفقد أثرها نهائيًا. كان على شفا الهلع. عليه أن يلحق بها، مهما كلّف الأمر، عليه أن يعرف.

ما إن أُخلي الطريق، حتّى انطلق خلفها. ولكن عبثًا... باتت الغجريّة بعيدة. لم يعد يلمحها إلّا بشكل متقطّع، وسط خليط من الوجوه والأجسام. كان يشعر بأنّه خسر الجولة... لكنّه أراد التشبُّث بالأمل المتبقّي. عليه أن يصل إليها. يجب أن يفعل، مهما كان الثمن. اندفع كالسهم، دافعًا الناس بمنكبيه ومرفقيه، شاقًّا طريقه عنوة، كالمجنون. تعالَت الاحتجاجات والصياح المستنكِر: لم يستدر ولم يلتفت حتّى، عيناه إلى الأمام، مسمّرتين على الطيف المنساب بين الجموع، خشيةً أن يختفي ويفلت منه.

في لحظةٍ، خُيّل إليه أنّه يقترب منها، فضاعف سرعته أكثر فأكثر. فجأةً، دفعته ذراعٌ عنيفة إلى الوراء، ذراع رجل صلب، قويّ البنية.

– هووووو! ستصطدم بشخص وتطرحه أرضًا!

لم يُجب، بل انخفض واندسّ سريعًا بين سائحين يابانيّين. ولم يستقم مجدّدًا لالتقاط أنفاسه إلّا بعد بضعة أمتار. أين هي؟ أين هي؟ حملق في الحشد كالمجنون. دفعه أحدهم؛ ثمّ اعتذر. راحت أنظاره تنقّب في بحرٍ من الوجوه. بسرعة! فجأةً، لاحت جديلة طويلة من الشعر الأسود ناحية اليمين. اندفع في اتّجاهها بكلّ ما أوتي من قوّة، ذراعاه مبسوطتان إلى الأمام ليندسّ بسهولة بين الناس. راح يصرخ لهم منبّهًا. فليبتعدوا، اللعنة!

فجأةً لمح جانب وجهها. إنّها هي، هي حقًا! أسرع صوبها، وركض بخطى ثابتة فمتعرِّجة بين الجموع، ودنا منها. اندفع إلى الأمام وأمسكها من ذراعها.

استدارت في حدّة لتواجهه، وهي تمطره بوابل من النظرات المميتة. كان جوناثان يلهث وقد انقطعت أنفاسه؛ هي الأخرى كانت مقطوعة الأنفاس. كان وجهها يتصبّب عرقًا، ما أبرز حدّة عينيها السوداوين، فيما واكب أنفها حركة صعود إيقاع أنفاسها المتقطّعة.

– من حقّي أن أعرف! هيّا قولي لي!

ظلّت تحدّق فيه، لاهثةً، وفمها مطبق بصمت مميت.

– أريد أن أعرف ما قرأتِ في كفّي. هيّا قولي!

كان يمسكها في إحكام. راح المارّة يدفعونهما تارةً من هنا، وطورًا من هناك، بعدما قُطع عليهم طريق المرور. لم يرمش جفنٌ للشابّة. ولم يعد جوناثان يدري كيف يتصرّف.

– قولي كم تريدين، وانطُقي!

بقيت صامتة.

لمّا أدركه اليأس، شدّ أكثر على ذراعها. لاح الألم دمعًا في عينيها، لكنّها بقيت تحملق فيه صامتةً، بكماء. شدّ أكثر فأكثر. بقيت شفتاها مقطّبتين...

انتابه الاشمئزاز، إذ أدرك أنّها لن تتكلّم. بقيت عيناهما مسمّرتين الواحدة في الأخرى، بلا جدوى.

أخيرًا، أرخى قبضته مُفلتًا ذراعها.

لم تتحرّك بل بقيت حيث هي، قبالته. تملّكه الارتباك.

– رجاءً...

لم تفارقه نظراتها. كانت دوّامة المارّة تنفتح أمامهما تارةً، لتعود فتنغلق طورًا، محاصرةً إيّاهما في موكبها.

استمرّ جوناثان ينظر إليها، من دون أن يطلب شيئًا. في أيّ حال، لم يعد يأمل بشيء.

بعد هنيهةٍ، بادرته في بطء شديد، كأنّما رغمًا عنها:

– سوف تموت.

ثمّ استدارت وتوارت بين الجموع.

4

من النادر أن يخبرك أحدهم بموتك الوشيك. لقد جاءت النبوءة كحكم إعدام زلزل كيان جوناثان. وجد نفسه يقف وحيدًا، مصعوقًا، وسط جموع هؤلاء المارّة، وبشاشتهم المُغيظة.

خلال ساعات المساء، راح يستعيد رشده شيئًا فشيئًا. حتى اليوم، لم يسبق أن اهتمّ بقارئات الطالع أو قارئات الكفّ، ولا البرّاجات العرّافات، ولا قارئات أوراق اللعب، أو غيرهنّ من المنجّمات والمنجّمين. فضلًا عن أنّه كان يضع تلك النّخبة كلّها في سلّة واحدة، سلّة مَن يراهن على سذاجة البسطاء والطيّبين ليكسب المال. أمّا هو، جوناثان كول، فمتعلّم ويعتبر نفسه ذكيًا ما يكفي. ألن يكون أغبى من الغباء إذا صدّق هذا الهراء؟ هيّا، لا تفقُد توازنك.

لا تفقُد توازنك. تلك هي العبارة التي لم ينفكّ يردّد بلا هَوادة منذ يومين. لكن، كان ثمّة خطب ما في التحليل المنطقيّ الذي عمد إلى بَلوَرتِه ليُطمئنَ نفسه:

كلام الغجريّة لم يأتِ بدافع كسب المال، فقد لاذت بالفرار من دون أن تطلب شيئًا...

لا تُفكّر في الأمر. كلّما شعر ببوادر خوف أو قلق، كان ينجح في صرف انتباهه إلى أمور أخرى، كأن يقرأ الأخبار في هاتفه الذكيّ أو يغوص في رسائله الإلكترونيّة. من جهة أخرى، كان يحلم بمشاريعه

اللاحقة كوسيلة ناجعة أيضًا للتفكير في أمر آخر. مشروع انتقاله إلى منزل آخر على سبيل المثل. حالما تُخوّله نتائجه وعائداته الحصول على راتب أفضل، سيستأجر منزلًا أكثر اتّساعًا، فتكون لكلويه غرفتها الخاصّة عندما تأتي لزيارته. لقد ضاق ذرعًا بفتح الكنبة-السرير في الصالون، والنوم عليها، وطيّها وتوضيبها مجدّدًا في الصباح. وبعد ذلك، ربّما يفكّر في تغيير السيّارة، الأمر الذي قد يسرّه ويمتعه بعض الشيء...

صباح اليوم الثالث، نهض من النوم وهو يشكو ألمًا في الرأس: صُداعًا حادًّا مُتركّزًا في موقع معيّن. لم يحتج ذهنه المحموم أكثر من ثوانٍ معدودة لكي يعرف السبب؛ استبدّ به القلق... وبدأ يعذّبه. بعد نصف ساعة، تناول هاتفه:

– أريد موعدًا مع الطبيب ستيرن.

– لحظة، سأنظر قائمة المواعيد، أجابه صوت نسائيّ، مهنيّ بقدر ما هو غير مرحّب.

– إنّها... حالة طارئة.

طالعَتهُ نوتات بيانو، باهتة مَعسولة. انتظر في ترقّب، فيما القلق يعتمل داخله. راحت الأفكار تتخبّط في ذهنه عشوائيًّا: رأى نفسه ممدّدًا في غرفة العمليّات، يخضع لجراحة في الدماغ. للمناسبة، هل تغطّي بوليصة تأمينه هذا النوع من العمليّات؟

– من فضلك، الانتظار. وردَني اتّصال آخر.

نوتات البيانو مجدّدًا، تقطر نعومةً.

من النافذة المفتوحة، تناهى إليه صياح غاري، بائع المافين. كان مؤخّر مخبزه ينتهي بمساحة عشبيّة تحاذي حديقة منزل جوناثان الخلفيّة. أثناء العطلات المدرسيّة، كان أولاده يمضون فيها معظم أوقاتهم، فيما يصرخ والدهم فيهم موبّخًا عند أدنى هفوة. كان هؤلاء المساكين ينالون نصيبهم من الصياح والشتائم من دون سبب في كلّ

مرّة. ولا بدّ من القول أنّ أشغاله لم تكن في ازدهار؛ على الرغم من جودة حلوياته، كان زبائنه يُعدّون على الأصابع، ولا ريب في أنّ ما يجنيه لا يكفيه حتى نهاية الشهر...

استمرّت نوتات البيانو. فجأةً، استعاد جوناثان رشده. أوجاع الرأس تلك انتابته غير مرّة في الماضي، فلِمَ يقلق ويتوتّر المرّة هذه؟ ساورته موجة من الغضب، وما لبث أن أقفل الخطّ. كلّ ذلك بسبب تلك الغجريّة اللعينة! لو لم تحشُ رأسه بأفكارها الحمقاء، لما وصل إلى هذه الحال من الهُراء!

كان حانقًا. حانقًا عليها، وعلى نفسه، إذ أذعن لتأثيرها رغمًا عنه. كيف تجرّأت على قول شيء كهذا؟ ومن أين لها الحقّ؟ وما أدراها بذلك أساسًا؟ ماذا؟ ولئن كان سيموت حقًّا، فمتى يكون ذلك؟ هذا أهمّ ما في الأمر، أليس كذلك؟

قرّر تناول الفطور في الخارج. كان بحاجة إلى الترويح عن نفْسه قليلًا قبل أن يلتقي شريكَيه، وإن لم يكن لديه الكثير من الوقت.

في الخارج، كان الهواء لا يزال باردًا. تنفّس بعمق. جرعة هواء. هذا آخر ما قد تحصل عليه مجّانًا في هذه الدنيا الفانية. لا شكّ أن أحدًا سيجد يومًا وسيلة ليُدرج الهواء على الفواتير التي نسدّدها، يوم نصبح مرغمين على تنقيته، مثلًا. في سرّه، هنّأ جوناثان نفسه لأنه وقّع عبر الإنترنت على عريضة تطالب بمنع السيّارات الأكثر تلويثًا للبيئة.

اختصارًا للوقت، توجّه إلى مخبز غاري. فور دخوله، دغدغت أنفه رائحة البنّ المحمّص للتوّ. كان الجوّ كئيبًا، ليس إلّا زبون وحيد يجلس في إحدى الزوايا، لكنّ قطع المافين هنا لذيذة حقًّا، مع أنّ صغر حجمها لا يُبرّر سعرها الباهظ.

اقترب غاري في صمت. ثمّ تمتم «صباح الخير»، بصوت خافت لم يكد يُسمَع. كان حاجباه الأسودان الكثّان والمعقودان على الدوام،

يطلّان على عينين صغيرتين متغضّنتين بعض الشيء، فيما يغور فمه خلف لحية تجعله أقرب إلى دبّ برّيّ ضخم.

أخذ غاري الطلبيّة، قليل الكلام كما عهدته، وبخيل الابتسامة. في مخبزه كان البخل ينسحب على كلّ شيء، وعلى كلّ صعيد.

جاثمة عند أعلى أحد جدران الطوب الأحمر، شاشة تعرض وجه مُراسلة الـ«سي. أن. أن» في مقابلة مع أوستن فيشر، بطل كرة المضرب. إذا فاز في المباراة، فمن المرجّح أن يحطّم الرقم القياسيّ لبطولات الـ«جراند سلام». الضغوطات كبيرة كما شرحت المراسلة، بلهجة لاذعة بعض الشيء، لا سيّما أنّ أوستن فيشر لم ينجح بعد في فرض نفسه في بطولة فلاشنغ ميدوز، حيث لم تكن أرض الملعب العشبيّة في مصلحته، ذكّرتنا المراسلة في دهاء، ناكئة الجرح حيث يؤلم أكثر.

حملق جوناثان في قسمات البطل العنيدة، والذي امتدّ قوامه الآن ليحتلّ عرض الشاشة، ومعه شعار نايكي الرياضيّ المطبوع على لباسه. تعرّف جوناثان في الحال إلى مشاهد مباراة يُعاد بثّها، وقد التُقطت أثناء فوز أوستن الأخير. نادرًا ما يبتسم، وكان أسلوبه في اللعب فعّالًا بشكل لا يُخطئ، ما منحه جانبًا لا يرحم وطابعًا شرسًا لا يُقارَب. ربّما لهذا السبب تحديدًا لم يكن ليثير حماسة محبّيه، وذلك على الرغم من براعة التفوّق على الذات التي كان يجسّدها في كلّ مرّة.

بينما كان جوناثان يتناول المافين، أدرك فجأةً أنّ صداعه زال.

عندما فرغ من تناول فطوره كان قد اتّخذ قراره. سيجد تلك الغجريّة، ويطلب منها الشرح الذي تدين به له. ليس ثمّة ما هو أسوأ من الغموض والشكّ. فالذهن يتشبّث بهما، وعبثًا يحاول البحث عن الإجابات الناقصة. أمّا جوناثان فلم يكن ينوي تمضية ما بقي من حياته في التساؤل والتفكير كالمجنون، ولا أن يعيش في خوف غير مبرّر. مع حلول نهاية الأسبوع المقبل، يكون قد عرف المزيد.

دفع الحساب، ودقّق في الفكّة المُعادة إليه. ففي المرّة الماضية، كاد يقع ضحيّة غش، إذ أعاد إليه غاري فكّة خمسة دولارات، عوضًا عن العشرة التي دفعها له. راح يتساءل ما إذا فعل غاري ذلك عمدًا.

مضت بقيّة الأسبوع من دون متاعب. كرّس وقته للعمل، مكافحًا كلّ يوم لإحراز الأهداف التي كان قد وضعها هو وشريكاه.

لعلّ ذلك يُغلِق فم مايكل الذي قال له ذات يوم، وهو يكاد يموت من شدّة الضحك: «لو كنتُ زبونًا، لما أوحت لي سحنتك هذه بالثقة». غالبًا ما كانت تعاوده تلك العبارة، وكان يستعيد المشهد، فيدور ويدور في ذهنه إلى أن تغزوه فجأةً رغبة في الأخذ بالثأر. من الممكن التغلّب على مايكل من خلال العمل بلا توقُّف.

مع حلول يوم الجمعة، أدركَ جوناثان فجأةً أنّ رعاية كلويه طيلة عطلة الأسبوع ستحول دون ذهابه مجدّدًا إلى تلك الفجريّة. من المستحيل أن يصطحب ابنته إلى هناك... ومع ذلك، لم يكن يقوى على الانتظار أكثر من ذلك. كان عليه أن يراها، أن يكلّمها. لم يكن لديه ما يكفي من الشجاعة لتحمّل عذاب الشكّ ثمانية أيّام إضافيّة.

انتهى إلى رفع سمّاعة الهاتف.

– أنجيلا، هذا أنا، جوناثان.

صمت مطبق عند الطرف الآخر من الخطّ.

– ألو؟

– أسمعكَ يا جوناثان...

– لديّ... مشكلة صغيرة... أنا...

– دعني أحزر: أنت مشغول نهاية هذا الأسبوع؟

– لا، ولكن... بلى... أعني...

– اذهب مباشرةً إلى بيت القصيد يا جوناثان. أنا منهمكة هنا. شتولي في انتظاري...

– أريد فقط أن أعيد كلويه قبل الموعد المتفق عليه، يوم الأحد.

صمتٌ من جديد.

ثمّ تنهيدة في الطرف الآخر من الخطّ.

فضّل جوناثان عدم الإلحاح.

جاءت عطلة نهاية الأسبوع. وكما جرَت العادة، نشرت كلويه مرح سنواتها السبع وحماستها في سائر أرجاء المنزل الصغير. يوم السبت، توجّها إلى شاطئ ستينسون. كانت الرياح قد هبّت بشدّة الليلة الماضية، والأمواج أعلى بقليل من المعتاد، تتكسّر على الرمال ناثرةً رذاذها المشبَع برائحة البحر المالحة.

أمضت كلويه صبيحتها تلعب وتلهو على الشاطئ؛ تحفر حوضًا في الرمال وتبني قصورًا رمليّة، وتمارس لعبتها المفضّلة: الركض في الماء، والقفز مع كلّ موجة.

– بابا، تعال والعب معي!

– بعد قليل، يا عزيزتي...

كان جوناثان يراقبها بطرف عينه، وهو يردّ على الرسائل الإلكترونيّة التي بعث بها الزبائن. إذا تركها تتراكم، فمن شبه المستحيل أن يُحسِن الردّ عليها.

– بابا، هيّا تعال...

أخيرًا، نجحت في استدراجه إلى شطّ البحر، فتعلّقت بعنقه وهي تصرخ من الفرح، وتبلّله بالماء البارد حتى الصقيع. كانت ضحكاتها وقهقهاتها الجذلة تطغى على احتجاجاته.

جلسا على ترّاس «باركسايد كافيه» لتناول طعام الغداء، في فيء شجرة صنوبر ظليلة تنشر عطور ملايين الأوراق الإبريّة بعدما أدفأتها الشمس. بعد ذلك، هرعت كلويه إلى الجهة المقابلة، إلى المساحة المخصّصة للعب الأولاد.

– تعال معي!

– هيّا اذهبي، وأنا أشاهدكِ من هنا.

جلس على مقعد طويل، وهو يحسد ابنته على هناء العيش وراحة البال. راح ينظر إليها تلهو محاولًا الإفادة من اللحظة. ولكن، ما السبيل إلى الاسترخاء والفكر مشغولٌ بألف مهمّة وواجب لا بدّ من إنجازها، وهي تتراكم وتتكدّس في هذه الأثناء، فيما يبقى هو مسمّرًا هنا، لا حركة ولا فعل؟ مهمّات وواجبات تخز ضميره بشكل أفكار خاطفة تهاجمه واحدة تلو أخرى: ترتيب القبو، واستنساخ آلاف الصور وحفظها في الكمبيوتر قبل أن يستجدّ حادث يتلفها، ولائحة الحاجات – عليه شراء الفوط الورقيّة المتعدّدة الاستعمالات – واغتنام عطلة الصيف لإعادة دَهن مصاريع النوافذ قبل أن تبدأ بالاهتراء، وغسل السيّارة، وريَ الحديقة، وبالطبع... اقتلاع النفل حالما يعاود نموّه. آه... وأجل طبعًا: يجب الردّ على الرسالة التي بعثت بها العمّة مارجي، تخبره فيها بأحوالها. رسالة جميلة مكتوبة بخطّ اليد، الأمر النادر في أيّامنا هذه. يا للعار... فقد استلمها منذ شهر...

فجأةً، عبرت ذهنه صورة الغجريّتين. راح يتخيّلهما ترتعان عند رصيف الميناء، أمام « Pier 39». ثمانية أيّام كاملة بعد... يا له من انتظار طويل وقاسٍ.

– بابا، هيّا...

هزّ جوناثان رأسه، راسمًا ابتسامة رغمًا عنه. مع هذا الكمّ من الهمّ، كيف يمكن أن يلاعب ابنته؟

بيد أنّ كلويه لم تدعه وشأنه. بل اقتربَت منه.

– إذًا، احكِ لي حكاية!

– حسنًا، اتّفقنا.

– أجل! أجل! رائع!

تعلّقت بعنقه.

– إذًا... إنّها حكاية...

في هذه اللحظة بالذات رنّ الهاتف. ظهر في الشاشة رقم زبون كان يحاول الاتّصال به من دون جدوى منذ يومين.

– عزيزتي... أمهليني لحظة، إنّه اتّصال مهمّ. أرجوكِ لا تضجّي... شش!

في اليوم التالي، ذهبا إلى الشاطئ للتنزّه ركوبًا على درّاجة هوائية. عندما وصلا إلى بوّابة لومبار غيت، انعطفا غربًا، وحرصا على إدارة الظهر لرصيف الميناء المشؤوم. سلكا ممرّ بريزيديو متوغّلَين بين منازل الساحل الجميلة والأشجار الصنوبريّة التي تُناطح السماء. كانت الأجواء عابقة برائحة البحر المُنعشة، والمحيط يمتدّ ياقوتيًا أزرق إلى ما لا نهاية، بالكاد ترتعش صفحته تحت لمسات النسيم اللطيف. وبين الحين والآخر، يلوح طيف جسر غولدن غيت المديد كما لو أنّ رسّامًا ماكرًا يلهو كلّ مرّة بإغلاق الخليج في لمسة برتقاليّة. اغتبطت كلويه، وراحت تقود درّاجتها الصغيرة في أقصى ما تستطيع من سرعة، وهي تطفح سعادة شديدة العدوى، فيما تعلو شفتيها ابتسامة عريضة تفعِم قلبَ جوناثان بالفرح. حتّى أنّها أنسته تلك النبوءة المشؤومة التي قُرئت عليه. لكن، فجأةً، عند أحد منعطفات المدرج، ظهرت المدافن الوطنيّة، فبانت آلاف الصلبان البيضاء المتناثرة على التلال، لتعكّر مزاجه طوال الفترة الباقية من النزهة.

أعاد كلويه إلى والدتها في الساعة المعتادة، بالتمام والكمال. وكما في كلّ مرّة، أخفى ألمه ومرارة الفراق خلف ابتسامة. انتظر حتّى أُغلِق باب البيت الأصفر الصغير، ثمّ أقلع في عجل. السابعة والدقيقة الواحدة. مَن يدري؟ لعلّ السيّاح غادروا رصيف الميناء وعادوا إلى فنادقهم، ولا بدّ من أنّ روّاد نزهات الأحد قفلوا عائدين إلى بيوتهم. لكنّ المحاولة تستحقّ العناء. فالتصرُّف يخفّف وطأة التوجُّس.

راح يقاوم رغبة جامحة في تجاوز السرعة المسموح بها، فهو لا يرغب في دفع غرامة مُخالفة، ثمّ أمضى حوالى ربع ساعة وهو يحاول إيجاد مكان ليركن سيّارته في حيّ المرفإ. هرع نحو الرصيف، متشنّج الأمعاء. كان يشعر بنوع من الرهبة، وكان كلّما دنا أكثر من الساحة، ازدادت عضلات ساقيه انقباضًا. خلافًا لما توقّع، كان المكان لا يزال مكتظًّا بالمتنزّهين، يتمتّعون بنسيم المساء العذب. وقف على أحد المقاعد الطويلة ليمسح المشهد بنظره، طولًا وعرضًا، مرارًا وتكرارًا. لا أثر للغجريّتين. اجتاز الساحة، منعمًا في الوجوه، باحثًا عن شعر طويل أسود، محملقًا في الوجوه. لا شيء. سلك الرصيف صعودًا حتّى آخره، ثمّ عاد أدراجه على امتداد الرصيف المقابل. كان في منتهى التيقُّظ، في ترقُّب. بلا جدوى. بدأ الإحباط يستولي عليه. اتّجه نحو عربة لبيع البوظة.

– ماذا أقدّم لك؟ سأله البائع. رجل ناهز الخمسين من العمر، بشرته كامدة، شعره أسود فاحم، خشن وقاسٍ، ومقصوص بشكل مُزرٍ مع بضع خصل متفلّتة تنسدل على وجهه.

– مجرّد سؤال: هل لمحتَ الغجريّتين اليوم؟ المرأتين اللتين تقرآن الكفّ...

ضيّق البائع عينيه.

– وماذا تريد منهما؟ سأل مرتابًا.

– إحداهما قد... قرأت طالعي، وأريد أن أعرف المزيد... أريد فحسب... جلسة أخرى. هل تعرفهما؟

رمقه البائع بصمت في وهلة.

– كانتا هنا بعد الظهر. لا أعرف أين هما الآن.

– هل تأتيان إلى هنا عطلة كلّ أسبوع؟

– لستُ مَن يهتمّ بجدول عملهما. نعم سيّدتي، أيّ نكهة ترغبين؟

بقي جوناثان يتفرّس في وجوه المارّة بضع دقائق، ثمّ توجّه على مضض نحو سيّارته. سيعيد الكرّة نهاية الأسبوع المقبل. لكن، في قرارة نفسه لم يعُد يأمل بشيء. شعر مسبقًا بأنّ عليه أن يعتاد التخلّي عن الأمور، وأن ينسى هذه النبوءة الحمقاء التي لا تُثبِت أيّ شيء. لو كانت خطوط كفوفنا تقرأ أمورًا عن حياتنا، لعرف العلماء ذلك منذ زمن، أليس كذلك؟ من الأفضل إذًا أن ينسى وعلى الفور تلك الترّهات. وأن يقلب الصفحة!

فجأةً، حضر في ذهنه جون، رفيقه من أيّام الكلّيّة، والذي قرأ له ذات مرّة في رقّاص الساعة، أنّه سيُرزَق... صبيًا. لم يستطِع كتمان ابتسامة بسبب الفكرة، وفي تلك اللحظة بالذات، رآها، تبعد خطوات منه. لا، لم تكن تلك التي قرأت كفّه، بل الأخرى، الأكثر امتلاءً والأكبر سنًا، والتي نادَتها ليزا، بينما كانت تتوارى عن الأنظار. انقضّ عليها.

– أين رفيقتكِ؟ أريد أن أراها!

– ما بالك أنت؟ أجابته في فظاظة فائقة. سبق أن رأيتَ أختي. فماذا تريد بعد؟

من دون أن تنتظر جوابًا، أطبقت فجأةً على يده، وفرجت أصابعه. انقبض، لكنّه تركها تفعل.

– سبق أن أخبرَتكَ ليزا، قالتها وقد تركت يده من دون سابق إنذار. ستموت. هذا مكتوب.

– ما الذي يجعلك تؤكّدين أمرًا خطيرًا كهذا؟ لشيء مُعيب أن تُقنعا الناس بأشياء مماثلة!

– إن كنتَ غير راغب في سماع ذلك، فلماذا عُدتَ إذًا؟

– ومتى من المفترض أن أموت؟ قولي. متى؟

نظرت إليه في احتقار. لا أثر للشفقة ولا للرحمة في عينيها.

– كان من المفترض أن تكون ميتًا منذ زمن. عليكَ أن تكون ممتنًا. لكنّك لن تُكمِل السنة. والآن انصرف، واتركنا في سلام.

سمَّره عنف كلامها مكانه. نظر إليها وهي تبتعد، مبهوتًا مصعوقًا.

5

مرّت الأيّام التالية شاقّة عسيرة. كان جوناثان كَمَن تلقّى ضربة شديدة على الرأس. هو الذي رفض بدايةً أن يصدّق أقوال الغجريّة الأولى، بات الآن يأخذها على محمل الجدّ. أختُها، أختها المَقيتَة وسلوكها الخسيس، قد كرهها بالتأكيد، لكنّ أفظع ما في الأمر أنّه أحسّها، على الرغم من كلّ ذلك... صادقة. مجرّدة من أدنى قدر من العطف أو التعاطف، لكن... صريحة وصادقة. صراحة عنيفة، مُخضِعة، مُكتسِحة.

في طبيعة الحال، قد تكون صريحًا ومُخطئًا، أو تكون على خطإ وأنت على ثقة تامّة. ومع ذلك... الأمر كلّه ترك جوناثان فاقد الكلام، فاقد الوعي. أحسّ بالأرض تميدُ تحت قدميه، وحياته توشك أن تنهار. هو الذي لم يأبه حتّى اللحظة، بمقدار العمر الذي قد يعيشه، يجد نفسه الآن يُنعِم في اقتراب أجله، وأمّا هذه الفكرة بحدّ ذاتها... فلا تُحتَمل ولا تُطاق.

حاول استعادةَ إيقاع حياته اليوميّة المعتادة. أرغم نفسه على النهوض صباحًا في الموعد المألوف، منجزًا مسؤولياته كاملةً، من مهمّات مهنيّة إلى واجبات شخصيّة من دون حماس أو نشاط. غير أنّه ظلّ يهجس بنبوءة الغجريّتين، متسائلًا في سرّه عمّا إذا كانتا محقّتين.

بعد مرور أسبوعين على هذه الحالة شبه الخاملة، انتفض فجأةً، وقرّر استشارة الطبيب ستيرن. طلب الأخير فحوصًا شاملة. تحاليل

دم، صورًا بالأشعة، سكانر، صورًا بالرنين المغنطيسيّ: المحصّلة كاملة. حرّر الطبيب الوصفة وهو يؤكّد له بنبرة جامدة لا مبالية، أنّ التأمين الصحّيّ لن يتولّى تغطية التكاليف، في غياب أيّ عارض واضح. قُدّمت له تسعيرة من سبعة آلاف وثمانمئة دولار، تركته فاغر الفم، أصمّ أبكم.

عاش ذلك كظُلم فادح. لو كان من الأثرياء، لتصرّف واستطاع إذا لزم الأمر أن يتعالج في الوقت المناسب. راح يجترّ غيظه يومًا تلو آخر، ثمّ انتهى إلى الإذعان. أولن تكون الفحوص الطبّيّة، في نهاية الأمر، عديمة النفع؟ إذا كان سيموت، فسيموت في أيّ حال. لا يمكن معاندة القدر. أوليست حكاية كاترين دو ميديسيس خير دليل؟ فقد تنبّأ لها كوم روجييري، منجّمها الخاصّ، بأنّها ستموت بالقرب من سان جيرمان. طيلة حياتها، آثرت الابتعاد من جميع الأمكنة التي تحمل هذا الاسم، حتّى أنّها أمَرَت بوقف ورشة بناء قصر التويلري، المحاذية لسان جيرمان لوكسيروا. ولكن، جاء يوم مرِضت فيه، واشتدّ عليها المرض إلى حدّ أرسل كاهن ليمنحها مسحة المرضى. وهي على آخر رمق، التفتت إلى ذاك الكاهن، واستجمعَتْ كلّ ما بقي لها من قوة، لتسأله عن اسمه، فأجابها بنبرة وديعة مُطَمئنة: «جوليان دو سان جيرمان». اتّسعت حدقتا عيني ملكة فرنسا السابقة من الرعب، ولفظت أنفاسها الأخيرة.

كان جوناثان مُنهَكًا، كما طائر مُحلّق اخترقت جناحيه مئات الرصاصات.

ومع ذلك، واصل التشبّث بنمط حياته اليوميّة المعهودة، حتّى لو بات يصعب عليه، أكثر فأكثر ويومًا بعد يوم، إبقاء الابتسامة العريضة التي تفرضها وظيفته، وتقتضيها أدواره الحياتيّة بوصفه رجلًا أو والدًا أو جارًا. مواعيد، مفاوضات، اعتراضات، توقيعات، ازدحامات، أهداف غير محرَزة، نعم سيّدي الزبون الموعود، لا سيّدي الزبون، ومن ثمّ، شراء الحاجات، وغسل الملابس، وفرك الصحون، وتنظيف المنزل

وترتيبه، ورمي أكياس النفايات، ودفع الفواتير، وتقديم العرائض... لقد عاد الكفاح اليوميّ؛ ولكنّ الحياة فقدت اللذّة التي يمكن أن تنطوي عليها. طعم الهناء الذي لم يخطر في باله أن يستمتع به فيما مضى، بيد أنّ احتمال فقدانه «الوشيك» جعل نكهته ألذّ فألذّ. لا يقدّر المرء قيمة الحياة إلّا عندما يهدّدها خطر الموت.

من الآن فصاعدًا، بدأ شبح الموت يحوم فوق جوناثان في استمرار، يُحيك دسائسه خيطًا خيطًا وعقدةً عقدةً في لوحة عيشه اليوميّ. وأبعد من خوفه الذي كان يعذّبه رغمًا عنه، غدا ذهنه خاليًا من المشاريع التي طالما شغلت اهتمامه في ما مضى: لطالما اعتاد أن يزيّن الحاضر المُحبِط بأزاهير المستقبل الواعد: عطلة السنة المقبلة، التخطيط لشراء قطعة أثاث جديدة أو زوج أحذية أو سيّارة، الأمل بلقاء جديد، وخصوصًا الأمل بمجيء يوم ينتقل فيه إلى منزل أكثر رحابةً وسِعَة. كلّ ذلك المستقبل الذي ما انفكّ يتشبّث به حتّى اللحظة، بدا فجأةً كأنّه حُرم منه. لقد تبخّر المستقبل. لم يبقَ له سوى ما كان له سابقًا، هذا الحاضر الكئيب المملّ، المزروع بالمشاكل والمتاعب، والذي غاب عنه أيّ أمل بالتطوّر والسير قُدمًا.

ذات صباح، وهو يهمُّ بالنهوض للذهاب إلى العمل، أدركَ جوناثان أنّه لم يعُد في إمكانه الاستمرار على هذا النحو. لقد فقد كلّ متعة وكلّ رغبة، وأضاع كلّ وسائل التحفيز. فقد القدرة على النهوض.

حتّى أنّ حالة الضياع التي تُغرِقه جعلته يعيد النظر في عيشه السابق. ما كان معنى العيش على هذا النحو؟ إلى أين كان سيقوده؟ العمل المتواصل ومكابدة الصعوبات، في انتظار عطلة نهاية الأسبوع، حيث يزور الأسواق والمتاجر، إطفاءً لظمإ بعض الرغبات – رغبات قد نجح المجتمع في خلقها لديه – فالشعور عندئذٍ بشيء من الرضا لا يلبث أن يضمحلّ ويتلاشى، ثمّ مزاولة العمل من جديد ليستطيع معاودة الكرّة نهاية الأسبوع التالي، وهكذا دواليك. وهل الحياة عبارة

عن سلسلة متفاوتة بين مثابرة وإصرار وملذّات تافهة عابرة فقط؟ أمّا طموحه السرّيّ، أي أن يتفوّق على نفسه ويصبح تاجرًا مفاوضًا أفضل من مايكل، فلم يعد له معنى بعد الآن. لا بل بدا له حافزًا سخيفًا، لا قيمة حقيقيّة ولا نفع له. وعمله في حدّ ذاته، هل له معنى؟ إبرام العقود والمزيد من العقود... وما نفع ذلك كلّه، في نهاية المطاف؟

كان جوناثان بحاجة إلى وقفة لتنفُّس الصعداء، لكسر هذه الدوّامة الجهنميّة، والنظر إلى الأمور من منظار آخر. كان يحتاج إلى أن يقرّر هو نفسه ما يريد فعله في أيّامه المتبقّية. وإن حدث أن مات قبل نهاية السنة، فأيّ أمر ممّا عاشه في شهوره الأخيرة قد يشعره بالرضا أو بالامتنان؟

اجتمع إلى شريكَيه شارحًا أنّ ظروفًا شخصيّة قاهرة تحتّم عليه تعليق العمل فترة من الوقت. ولا داعي للقلق من الناحية الماليّة، فلن يؤثّر غيابه سلبًا: توزيع المداخيل منصف ويتناسب مع العقود التي يبرمها كلٌّ منهم. أمّا متابعة الملفّات الجارية فتتولّاها السكرتيرة المُعاونة.

سأله مايكل:

– هل سيطول غيابك؟

تنفّس جوناثان نفسًا عميقًا. لم تكن لديه أدنى فكرة.

– الوقت اللازم...

لم تعلّق أنجيلا بكلمة واحدة.

في ذلك اليوم، رافقه مايكل في بادرة لطيفة إلى باب المكتب.

– لقد أدركتُ تمامًا أنّ الأمور ليست على ما يرام. همس له. اسمع، خذ وقتك، وفكّر في اقتراحي.

عندما عاد جوناثان إلى منزله، وضع في حقيبة سفر صغيرة الحدّ الأدنى من الحاجات الضروريّة، وركب الشيفروليه البيضاء القديمة في عجل، وانطلق مُسرعًا على الطريق 101 المؤدّي إلى الجنوب. انحسر

الضباب الصباحيَ المألوف، وبدت له زرقة السماء الحادّة شاسعة، لامتناهية.

6

«ننتقل الآن إلى إيفا كامبل، مراسلتنا الخاصّة في بطولة فلاشنغ ميدوز، لتطلعنا على التفاصيل.»

«نعم طوني، نعم، تصوّروا أنّ أوستن فيشر فاز توًّا في الجولة الأولى من دورة يو أس أوبن. تغلّب في سهولة فائقة على الأستراليّ اللطيف، جيريمي تايلور، المصنّف الثالث والأربعين عالميًا. كانت مباراة استثنائيّة، من 3 أشواط: 2 -6 ،4 -6 ،3 -6. وها هو أوستن إلى جانبي...»

– هل ستمضي وقت الغداء كلّه مسمّرًا أمام التلفزيون؟ سألت أنجيلا.

كانا جالسَين على ترّاس مقهى الساحة، في محاذاة النافذة العريضة الزجاجيّة المفتوحة على اتّساعها، بينما عينا مايكل لا تفارقان الشاشة المثبّتة على الجدار في الداخل.

– أراهنكِ على أنّه سيفوز في البطولة.

– رائع، أجابته أنجيلا بتلك اللهجة الساخرة التي لا يُجيدها سواها.

– هل تتصوّرين؟ سيحطّم الرقم القياسيّ في بطولات الـ«جراند سلام»، وسوف يـ...

– وهذا سيغيّر مجرى حياتي.

ومن ثمّ، تناولَت الهامبرغر من طبقها وقضمت قضمة كبيرة منه.

– ولكن، عليكِ الاعتراف بأنّها ستكون مباراة خار...

قاطَعَته أنجيلا، وفمها لا يزال مليئًا:

– لن تعود كلويه لتوقظني في الليل، ولن تنتابها الكوابيس بعد اليوم...

– توقّفي...

– وسيوقّع الزبائن عقودَنا من دون مفاوضات ولا تساؤلات...

ضحك مايكل ملء شدقيه.

– أنجيلا...

– لا، تابع أرجوكَ، واصل المشاهدة. أنا لستُ هنا. غير موجودة...

– اسمعي، يعرضون هذه المشاهد المُغرية قبالتي، لا يمكنني مقاومتها...

– في أيّ حال، تُقاوم بسهولة رغبتك في التحاور مع المرأة الجالسة قبالتك.

قهقه مايكل عاليًا.

– هيّا الآن، لن تجعليني المتنفَّس الجديد لمزاجك العكر...

ابتسمت أنجيلا أيضًا. وصبّ مايكل مزيدًا من المشروب له ولها.

– في رأيكَ، هل سيعود جوناثان أم سيتوقّف عن العمل نهائيًا؟ سألَتهُ.

– سيعود بالتأكيد.

قطّبت أنجيلا حاجبيها، قائلةً:

– في المرّة الماضية، كنتَ تعتقد العكس...

– أجل... ولكن في نهاية الأمر، أظنّه سيعاود النهوض من كبوته، ويعود إلى العمل. أترين؟ كلّما فكّرتُ في ذلك، اقتنعتُ أكثر بأنّ هذا الرجل هو من النوع المكافح. نعم، في هذه الشركة، هو شريك مدى الحياة.

- هل عزمتَ على تعكير مزاجي، لتلومني في ما بعد على مزاجي السيّئ؟

ابتسم مايكل.

- كلّا، إنّما... أظنّكِ تضيّعين وقتكِ في أمل واهم. لا جدوى من ذلك.

- هل تريد حقًّا أن تُنغّص عليّ وجبة الغداء؟

- مؤكّدٌ أنّك في وضع لا يُحسَد عليه...

تنهّدت أنجيلا، وقضمت قطعةً أخرى من الهامبرغر.

- ما أجبنَ الرجال...

- شكرًا على هذا التعميم...

- عاجزون عن تحمّل مسؤوليّاتهم...

- لكنّ هذا لا ينطبق على جوناثان.

هزّت أنجيلا كتفيها.

- يوم عدتُ إلى المنزل، ووجدته في الداخل مع فتاة عارية، خمّن ما قال لي.

- ماذا؟

- قال: «لا... ليس الأمر كما تظنّين... إنّها الحاضنة الجديدة... أعني... هي تقدّم طلب الوظيفة...»

كتم مايكل ابتسامة.

- لا بدّ أنّكِ أصبتِ بصدمة عمرك.

- سألته ما إذا كان يستعدّ لإخضاعها لاختبار الرضاعة. فابنتنا البالغة سبع سنوات...

قهقه مايكل شديدًا.

قضمَت أنجيلا قضمةً أخرى، وراحَت تمضغها وهي تنظر في العدم.

- أتريدين سماعي؟

- ماذا؟

تنفّس مايكل عميقًا.

– في الواقع، لو كنتُ مكانكِ، لتركتُ أنا الشركة كي أقلب الصفحة نهائيًا.

– كم أنا محظوظة اليوم. أنا مسرورة حقًا لأنني قرّرتُ المجيء...

– هذا رأيي ليس إلّا...

– أبدًا! هل تسمع؟

– لم أقصد أن...

– بالفعل، فأنا المُلزَمة تربية كلويه بمفردي، وحدي. وفوق ذلك كلّه أنا مَن يجب أن أبحث عن وظيفة جديدة، وفي الأوقات العسيرة هذه... ومن ثمّ ماذا أيضًا!

– أفهم ردّ فعلك، ولكن عليكِ التفكير في مصلحتك بالمطلق، وليس التصرّف على هوا ردود أفعال جوناثان.

– ليس عليّ أن أضحّي بنفسي دائمًا وأبدًا...

شرب مايكل من كأسه.

– اسمعي، لديك متّسع من الوقت، فكّري جيّدًا. إن غيّرتِ رأيك، أخبريني. ربّما لديّ اقتراح أعرضه عليكِ.

عادت عدسة الكاميرا المقرّبة إلى الوراء: بانَ التّراس كاملًا، في لقطة عريضة، ومن ثمّ قطع ريان التصوير.

كلّ ذلك لا يضاهي لقطة ذلك اليوم، تلك التي التقطها من نافذة غرفته، حين صوّر جوناثان يدبّ على يديه وقدميه في حديقته، وهو يقتلع النفل، سُويقة تلو أخرى، بدلًا من رشّ مبيد الأعشاب الضارّة، كما يفعل كلّ الناس. كان مشهدًا ساذجًا إلى حدّ أنّه راح يضحك ويقهقه وحده. لقد لقي الفيديو نجاحًا مُلفِتًا. 114 أعجبني و17 تعليقًا.

عبّ ريان جرعة من الكوكا.

لفته شابّان يخوضان حوارًا شيّقًا على التّراس. حوارًا محمومًا في ما يبدو. وجّه المذياع اللاقط صوبهما وضبط موجة الصوت، من ثمّ شغّل المُسجّل.

7

كان الطريق 101 يمتدّ في محاذاة خليج سان فرانسيسكو، مسافة عشرين كيلومترًا تقريبًا، ثمّ يتوغّل في الأراضي حوالى ساعتين، قبل أن يعود ويلتقي البحر عند دنوّه من مونتيري. إن واصلنا السير نحو الجنوب، ازداد الغطاء النباتيّ كثافةً، وبدأت أشجار الصنوبر التي تسود المشهد في معظمه، تنشر أريج الصيف.

كانت الشمس لا تزال في كبد السماء عندما دخلت شيفروليه جوناثان القديمة الممرّ الظليل الجميل تحفّ جانبيه أشجار السرو والجنبات المعترشة. مباشرةً بعد المنعطَف، بان منزل عمّته، منزل أبيض جميل، مفعم بالسحر، لكن من دون أبّهة، قابع كلؤلؤة في مخمل من الخَضار. أوقف المحرّك، وفتح باب السيّارة. في لحظة واحدة ردّهُ عبير الأزهار العَطِرة ثلاثين سنة إلى الوراء. كان في السادسة، وكانت عائلته قد عادت حديثًا من فرنسا، وكانوا يزورون العمّة مارجي لأوّل مرّة. ما إن ترجّل من السيّارة آنذاك حتى اجتاحته عطور الورود وياسمين البرّ وزهر العسل، متوّجة المشهد بعبير الجنّة، كما لو أنّ جنّيّةً طيّبة نثرت حفنة من الرذاذ السحريّ على المنزل وحديقته. واليوم بعد مضيّ ثلاثين سنة، لا تزال الأزهار عينها تنشر الرقّة ذاتها.

تقدّم نحو المنزل. صرّ الحصى الذي يفرش الممرّ تحت قدميه. في الأسفل، على بُعدِ مئة متر تقريبًا، بدا المُحيط هاجعًا في زرقته

الشديدة، بالكاد تحجبه عن الأنظار أغصان أشجار الصنوبر العالية الملتوية بعدما جابهت الرياح على مرّ مئة فصل شتاء وشتاء.

ظهرت العمّة مارجي عند أعلى درج المدخل، وبادرته بالابتسامة إيّاها التي ارتسمت على مُحيّاها قبل ثلاثين سنة، عندما رأتهُ أوّل مرّة. العينان نفسهما، تُشعّان بهجةً وحيويةً، ويلوح فيهما طيش مَرِح، الأمر النادر لدى أشخاص في مثل سنّها.

لقد عاشت حياةً غريبة عجيبة. يُعرف عنها أنّها حظيت بثلاثة أزواج، وبثلاث مِهَن في الأقلّ: كانت عالمة آثار، ولكن سرعان ما تخصّصت في دراسة جماجم أوّل سكّان الكوكب، إذ كانت تفضّل البشر على الحجر، وقد مارست المهنة هذه أكثر من عشرين سنة. ثمّ بين ليلة وضحاها، قرّرت أنّ الأحياء أكثر أهمّيّة من الأموات، فواصلت دراستها إنّما هذه المرّة في علم البيولوجيا. بعد بضع سنوات من العمل في المختبر، أنشأت مؤسّستها الخاصّة، والتي لم يفهم جوناثان هدفها حتّى الآن. شيء من قبيل إجراء البحوث بهدف اكتشاف مجالات عادةً ما تهملها العلوم. وقد أحيلت إلى التقاعد منذ حوالى عشر سنوات، لكنّها بقيت الرئيسة الفخريّة للمؤسسة. كان يشكّ في أنّها لم تطوِ الصفحة نهائيًا، وأنّها ظلّت تربطها علاقة بباحثيها.

– غرفتك جاهزة، قالت مارجي. ويمكنكَ أن تبقى قدر ما شئت!

تعانقا بحرارة.

– لم تصلني أخبارك منذ دهر، قالت. فاستنتجتُ أنّك لا تعاني متاعب.

– مارجي!

أطلقت ضحكة قصيرة. لم تكن مخطئة، وفي قرارة نفسه، شعر جوناثان بشيء من الذنب: بالفعل، فهو نادرًا ما يزورها ما لم يكن بحاجة إليها، وهذا على الرغم من محبّته الصادقة لها. أحيانًا، قد يقودنا نمط حياتنا السريع اللاهث إلى التقصير بحقّ من نحبّ.

– للمناسبة، قال لها، تلقَّيتُ رسالتكِ الشهر الماضي، وكنتُ أرغب في الردّ، لكنّ الوقتَ لم يسعفني...

– أنا سعيدة في رؤيتكَ؛ أنت مُحقّ في أخذ إجازة. إذا ظلّت رؤوسنا منهمكة في العمل على الدوام، فقد نصبح أغبياء.

استلم الغرفة التي خصّصتها له. غرفة جميلة في الطابق الأوّل من المنزل، جدرانها بيضاء، وأثاثها عتيق عفّى عليه الزمن إنّما لا يخلو من السحر، مطليّ بألوان الباستيل الفاتحة، وكلّها محصورة في أجواء ضيّقة بعض الشيء. في كلّ زاوية تقريبًا، لوحات ونقوش وصور قديمة من الهند أو من مصر أو من الشرق الأوسط: من كلّ الأماكن التي زارتها في مهمّاتها الأركيولوجيّة. على المنضدة المحاذية للسرير كتاب متروك لكارل ياسبرس. اقترب جوناثان من النافذة وفتحها. سُمع صرير خفيف حين احتكّ الخشب بالمفصّلات الحديد. تسلّل إلى الغرفة نسيم الحديقة المُعطّر ليغمره بأريجه. خلف الحديقة الغضّة، كان البحر يمتدّ بزرقته إلى ما لا نهاية. مدّ جوناثان رأسه من النافذة، وعبّ ملء رئتيه نسمات البحر المُنعِشة.

بدت ضوضاء المدينة وتلوّثها، بعيدين منه، كلّ البعد، تمامًا مثل ضغوطات عمله وتوتّره.

في اليوم التالي، كانت في انتظاره مفاجأة غير سارّة: عطل آخر في سيّارته. سرعان ما راوده شعور بالكدر الشديد يحاكي حدّ الغضب: هل تنوي المتاعب ملاحقته إلى هنا؟ هل سيظلّ ملزمًا الكفاح والمكابدة حتّى آخر يوم من حياته؟ هل كان هذا قدره حقًّا؟

أمام اضطرابه الجليّ، سألته مارجي بشيء من الدهاء الساخر:

– هل ستظلّ تفكّر في الأمر بعد عشرين سنة؟

– أيّ أمر؟

– عطل السيّارة هذا.

– آ... لا، طبعًا لا. لماذا؟

– انسَ الأمر إذًا في الحال، أجابته في مرح مشوب ببعض الشقاوة.

نظر إليها مذهولًا.

بدت صغيرة منمنمة جانب اللوحة الحجريّة الجميلة المنتصبة في زاوية الحديقة. في الواقع كانت نسخة من تلك التي اكتشفتها في بداياتها المهنيّة، في شبه الجزيرة العربيّة. منحوتة بدقّة وجمال، كانت مزدانةً بنقوش وكتابات باللغة الآراميّة.

– لا تقل لي أنّك ستدع كومة خردة تتحكّم في مزاجك؟

– هذا لأنّني سأضطرّ إلى معاودة الاتّصال بالميكانيكيّ، وإخباره بأنّ تصليحاته لم تكن ناجحة. سيكون عليّ أن أحتجّ وأتذمّر وأفاوض، وربّما أن أصرخ وأهدّد... لقد سئمتُ الكفاح في كلّ أمر.

استرسلت مارجي في الضحك.

– لا أجد ما يُضحِك في الأمر.

– بلى، بلى يا صديقي المسكين!

– وما هو؟

– كم تذكّرني بزوجي الأوّل! هو الآخر كان يرى الحياة كفاحًا دائمًا، ومقاومة في كلّ لحظة. كان مزاجي البشوش والهادئ على الدوام يُفقِده صوابه. كان يجدُني محظوظة، ويعتبر أنّ القدر يوفّر عليّ المتاعب، في حين أنّ عليه هو نفسه، أن يجابه يوميًا الهموم التي تسقط على رأسه. لم يُدرِك إلّا في آخر أيّام حياته أنّ معظم متاعبه لم تكن سوى نتيجة نظرته إلى العالم، وليست هي السبب...

ابتعدَت منه داخلةً إلى البيت، فتركته في حيرةٍ من أمره حيال أقوالها، التي بدت له غير عقلانيّة.

نادته من المطبخ:

– في انتظار أن تصلح سيّارتك، خذ سيّارتي القديمة، فقد ينفعها أن تسير قليلًا. عادةً لا أستخدمها إلّا للتسوّق، مرةً واحدة في الأسبوع.

لعلّها تعاني الضجر المميت.

– هل يسمح عقد تأمينكِ بذلك؟

– هوِّن عليك.

انفتح باب المرأب وسط صرير مزعج، على نفحة من العفن والرطوبة. لا بدّ من أنَّ سيّارة تريونف المكشوفة كانت تعود إلى السبعينيات. حمراء داكنة، مع سطح متحرّك أسود باهت بعض الشيء.

أصدر محرّكها حشرجة متقطّعة، ثمّ دار من دون صعوبة تُذكَر، مُفلتًا طنينًا يصمّ. فتح جوناثان السطح المتحرّك، ووضع نظّارته الشمسيّة على عينيه.

ما هي إلّا لحظات حتّى وجد نفسه يسلك طرقات بيغ سور الصغيرة المهجورة، وسط جبال مخضوضرة ترتمي في تضاريسها المرسومة في أحضان البحر. كان نسيم البحر يفوح أريجًا، والشمس لا تحول ولا تزول. لقد أفلح جوناثان في انتشال كيانه من دوّامة التوتّرات اليوميّة المنهكة، فأحسّ فجأةً بالرغبة في التمتّع بكلّ ثانية من وقته. ولئن كُتبَ له حقًّا أن يموت وهو في ريعان شبابه، فعليه أن يستغلّ كلّ لحظة بملئها، لا أن يرضخ للواقع اليومي وينتحب على حظّه العاثر. ولئن كانت الحياة تقضي بانتهاز الملذّات التي توفّرها، فقد اختار المكان المناسب لتذوّق حلاوة الوجود. جعل كلمة سرّه واحدة: الاستمتاع بكلّ ثانية، من دون التفكير ولو لحظة في الموت.

في غضون أسبوع واحد، كان قد تعرّف إلى معظم مطاعم الساحل الجميلة، وسبح في المياه المنعشة وسط خلجان منسيّة، وتمدّد متكاسلًا على الرمال يعدّ نجوم السماء، وتمتّع هو ومارجي بحلويات وحدها هي تعرف سرّ وصفتها الفريدة ومذاقها الاستثنائيّ، كما تمشّى على ضفاف المياه يستمع إلى صياح طيور النورس، وأحيا الليل رقصًا على ترّاس ملهى قبّته السماء، وذاق طعم غزل لذيذ عابر، وحضر مغيب الشمس كلّ مساء وفي يده كأس شاردونيه.

في طبيعة الحال، بقي على اتّصال بزبائنه وباقي العالم، فالرسائل الإلكترونيّة وقراءة أخبار مواقع الصحافة الإلكترونيّة كانت تشكّل جزءًا لا يتجزّأ من نمط حياته اليوميّة، لكي يفكّر ولو لحظة في الاستغناء عنها. كان يسمح لنفسه بالإجابة عن بعض أسئلة الزبائن، فيما يُرجِع بعضها الآخر إلى السكرتيرة. كان أيضًا على اطّلاع مستمرّ على أخبار الساعة، يومًا فيومًا.

أخذَت فترة الراحة تلك تعود عليه بالمنافع، فسحة مفتوحة على هناء الوجود والعيش بلا همّ ولا غمّ، فاسترخى مستسلمًا لحياة الخمول والتكاسل، من دون أيّ تحفّظ.

مع ذلك، ومع مرور بعض الوقت على العيش السطحيّ الخامل هذا، بدأ يتسلّل إلى أعماقه شعور بالخواء. كان تسكّعه هكذا، عاطلًا من العمل، متعة خالصة، لكنّه في نهاية المطاف، لم يكن ليرضيه ولا ليسير به قدمًا. ملذّات أعقبت ملذّات، لكنّ تأثيرها راح يتناقص شيئًا فشيئًا، ما دفعه إلى البحث عن المزيد منها. بدأ يدرك لِمَا قد تدفع حياة الترف التي يعيشها بعض أولاد الأغنياء إلى تعاطي المخدّرات وإدمانها في سهولة فائقة.

من جهة أخرى، كانت لديه مشكلة: الوقت. كان الوقت يمضي أسرع فأسرع يومًا بعد يوم. كانت أيّامه ولو غير ناشطة، تمضي في طرفة عين. بدأ يحسّ بأنّ إقامته تلك ستمضي سريعة، تمامًا كبقيّة حياته.

كان يتمنّى إيجاد وسيلة لتعليق الزمن. عندما كان ولدًا، كانت فترة بعد الظهر وحدها، تبدو له طويلة، بل طويلة جدًا. لكن، عندما أصبح راشدًا، صارت الحياة تمضي بسرعة البرق؛ كلّ سنة تبدو أقصر من السنة الماضية. في أيّ حال، كان أحد أصدقائه، وهو فيزيائيّ، أكّد له ذلك: من حيث الوعي والإدراك، يكون المرء قد بلغ منتصف حياته مع بلوغه سنّ السادسة عشرة.

8

لم يوَفِّق ريان بعد بصيد سمين. لا شيء إلّا ترّهات وتفاهات، ليست مُضحكة ولا طريفة حتّى.

أحدث فتح عبوّة الكوكا الألومنيوم ضجّة شديدة، ثمّ رنّت مرّة واحدة عندما نترها ريان وانتزعها كاملة. انسكبت الكوكا في الكأس، ففارت فقاقيعها راغيةً مزبدة. ظمئًا، حملها ريان إلى شفتيه، من دون تردُّد. رائحتها باتت مألوفة. راحت الفقّاعات الصغيرة تفرقع ناشرةً بعضًا من رذاذها الخفيف المُنعِش على بشرته. شرب ثلاث جرعات، ثمّ وضع الكأس جانبًا. بحركة من ذراعه، مسح فمه بكمّ بالـ«تي-شيرت» السوداء.

لم ينشر شيئًا في مدوّنته منذ يومين. كان يشعر بنهم نمر يتضوّر جوعًا. اجتاز الصالون، ودخل الغرفة، ونظر من النافذة مُستغرقًا في أفكاره. المشهد المُطلّ على حدائق المنازل المتراصفة على امتداد الشارع، وعلى صفّ حدائق الجادّة الموازية، نادرًا ما كان يقدّم حدثًا مُشوِّقًا.

الكائن البشريّ الوحيد الذي لمحه كان غاري ذاك، والذي كعادته في كلّ صباح، كان يقرأ بريده، جالسًا في أحد مقاعد الحديقة البلاستيك البيضاء، وسط العشب. منظر يميت ضجرًا. كان بائع المافين يهزّ كتفيه بلامبالاة مع قراءة كلّ رسالة. مشهد يصلح مخدّرًا أو منوّمًا أقلّه.

لا شيء في الحدائق الأخرى. ولا شيء في المنازل القريبة التي يستطيع خرق حيّز من حميميّتها، من خلال زجاج النوافذ، ومواربةً بالطبع.

عاد ريان إلى الصالون، برِمًا متأفّفًا، لكنّه ما لبث أن جمد مكانه؛ خطرت له فكرة. لا تكمن الحماقة في الكلام وحده أو في الأفعال وحدها. فقد نجدها في التصرّفات أيضًا. والحالة هذه، تأتي الفكاهة من التكرار. أجل، تمامًا: ففي نهاية الأمر، هذا الدبّ الفظّ غاري قد يثير الضحك بكآبته البلهاء. شرط أن يُصنَع منها مسلسل من حلقات متتالية... إذا أعددنا الأجواء وكلّ شيء لينتظر متصفّحو المدوّنة يوميًا هزّة كتفَي غاري عند اطّلاعه على بريده، فقد يتحوّل المشهد هزليًا بحقّ.

عاد ريان إلى الغرفة وسلّط عدسته على الرجل. لقطة مكبّرة بالكامل. من بُعد مئة مترًا تقريبًا، رصد المذياع اللاقط خشخشة مغلّف يُمَزَّق. عجائب التكنولوجيا. في اللقطة المقرَّبة، قطّب غاري حاجبيه وهو يُخرج الرسالة من مغلّفها. قرأها، ومن ثمّ حتمًا وكالعادة، هزّ كتفَيه. انفجر ريان ضاحكًا. بلى بالطبع! كان غاري من الشخصيّات المُثيرة! شخصيّة حقيقيّة! وعليه هو، ريان، أن يضمن له الإخراج المسرحيّ...

في طبيعة الحال، كان يجازف أكثر منه لو صوّر مجموعة من الناس في مكان عام. ولكن، لا بأس، فاحتمال أن يكون أحد متصفّحي مدوّنة مينيابوليس على معرفة بأحد الفاشلين في سان فرانسيسكو، يكاد يكون منعدِمًا. ثمّ إنّ ريان اتّخذ جميع احتياطاته، فالمدوّنة يستضيفها أحد أجهزة خدمة الإنترنت العامّة غير المركزيّة. وللوصول إليه، يجب تحديد أجهزة شاشات عدّة وتعريفها فتفاديها. ولن يكلّف أحد نفسه عناء البحث عن مسألة في هذه التفاهة.

بعد ربع ساعة فقط، نقر ريان زرّ «الدخول»، فظهرت صورة غاري في المدوّنة، فيما راح يطبع العنوان على لوحة المفاتيح: «يوميّات الأغبياء – الحلقة الأولى». كان ريان واثقًا: هذه الحلقة ستكون فاتحة مسلسل طويل.

9

– ماذا لو تمشّيت؟

اقتراح مارجي فاجأ جوناثان كليًّا.

– أتمشّى؟

– أجل. ثمّة ممرّات كثيرة هنا. ومع ذلك، لا نرى أحدًا يسلكها، رغم أنّ المناظر رائعة.

كانت نزهة رائعة بالفعل، وقد فوجئ جوناثان، إذ اكتشف بمنظار جديد الأماكن التي كان يعبرها في التريونف منذ ثمانية أيّام. السرعة تختذل علينا التفاعل العاطفيّ مقابل ما توفّره لنا من تشويق وإثارة.

كانت الطبيعة خلّابةً، غنيّة، معطّرة. كان بعض السفوح مكسوًّا بالأجمة الشديدة الخضرة، بالشجيرات والدَغَل التي تكشف بين الحين والآخر أزهار الأوركيد البرّيّة. أمّا بعضها الآخر فتكسوه أشجار صنوبريّة تضفي ظلالها سَكينة على المشهد. مع الاقتراب من البحر، كانت أشجار السيكويا تتجلّى للناظرين بجذوعها الحمراء التي نحتها الزمن.

كان جوناثان يتنزّه على وقع زقزقات الطيور المختلفة الألوان والأشكال، حتّى أنّه لمح بعد ظهر أحد الأيّام نسرًا يحلّق في كلّ جبروته في السماء.

كانت قمم الجبال تتوالى أمامه، والمنحدرات السهلة تفضي إلى مرتفعات وعرة منهكة، في سبحة تكرّ إلى ما لا نهاية لتستأنف من جديد. مع ذلك، كان كلّما نجح في تسلّق إحدى التلال، متّع نظره بمشهد مختلف وفي بعض الأحيان استطاع تبيُّن البحر من خلال فرجة بين مرتفع وآخر. كانت المشاهد في تجدُّد متواصل، وفي كلّ لحظة، كانت دهشة جوناثان هي هي. فالمشهد المُطلّ عينه كان يبدو بعد تسلُّق حثيث، أكثر جلالًا وعظمةً منها حين يتوقّف ليشاهده من نافذة السيّارة. هل هو الاعتزاز بما أنجزناه؟ أم إنّ الطبيعة لا تكشف روائعها إلّا لمَن بذل جهدًا وثمنًا سعيًا إليها؟

ما خلا سحر الكمال هذا، عاش جوناثان صدمة طفيفة: يوم اكتشف أثناء نزهاته الطويلة، أنّ هاتفه... لم يعد يلتقط أيّ اتّصال! أوّل الأمر، شعر وكأن رابطًا انكسر، أو علاقة انقطعت، وكان متضايق ومشغول البال، إلى حدّ أنّه كان كلّما اعتلى قمّة، أخرج هاتفه من جيبه ورفعه يائسًا نحو السماء، كما لو أنّه يريد تلقّف رسائل الكون؛ موسى وعصاه المرفوعة. لكن بلا جدوى.

بدايةً، أحسّ بأنّه معزول، منقطع عن العالم، إلى أن أدرك أنّه لم يكن يومًا أكثر اتّصالًا وتواصلًا. طبعًا، ليس مع وسائل الإعلام التي كانت تنتقي من أجله أسوأ الأخبار والأحداث على وجه الكرة الأرضيّة، ولا مع الرسائل الإلكترونيّة أو رسائل معارفه القصيرة التي كانت تتذكّره في كلّ حين، ليلَ نهار على مدار الساعة، وكلّ طرف يودّ الإثبات لنفسه أنّه ما زال موجودًا في نظر الآخر. كلّا، فما يحسّ به الآن هو من جبلة أخرى، ومن طابع مختلف تمامًا، وهذا ما لم يخبره من قبل: شعر بأنّه في تواصل مع ذاته، مع جسده، ومشاعره، مع باطنيّته، وإنّما أيضًا ويا للعجب، شعر بأنّه في تواصل مع الأرض وعالم النبات والحيوان.

مع كلّ ساعة مشي، كانت الشعلة هذه تتأجّج أكثر فأكثر، موقظةً ذاك الغنى المجهول أو الراقد في أعماقه منذ زمن بعيد، إلى حدّ أنّه نسي وجوده.

راحت نشوته تتزايد يومًا بعد يوم، فبدّدت الكآبة والضغينة اللتين كانتا تستبدّان به. شيئًا فشيئًا أخذ المشي يملأه بشعور من الامتنان لم يعرفه من قبل. امتنان تجاه جمال الكون والعالم، تجاه الحياة التي قدّمت له أخيرًا فرحًا وسكينة وطمأنينة كان يجهلها تمامًا إلى اليوم. هو الذي اعتاد الاحتجاج على كلّ مشاكل وجوده وحياته، ها هو الآن يلهج بالحمد والشكر، من دون أن يعرف إلى من يوجّههما. يُطلِق الشكر إلى رحاب الكون كمَن يرمي في البحر رسالةً في زجاجة. شكرًا لأنّني حيّ، شكرًا لأنّني أتنفّس، شكرًا لأنّني أرى وأشمّ وأسمع. لم تعد توقّعات الغجريّتين تهمّه في شيء. ففي هذه اللحظة، هو حيّ يُرزق، وهذا وحده المهمّ.

كان للعمّة مارجي رأيها في المسألة، والذي شاركته إيّاه ذات مساء، في الحديقة. كانا جالسين في مقعدين من الأسل الجميل، ذوَي أوسدة وثيرة ناعمة. وكانت كعادتها، قد هيّأت إبريق شاي ساخن أضافت إليه ملعقة صغيرة من العسل و... قطرة من الليمون.

– تُعيد الطبيعة لنا ما انتزعه المجتمع منّا.

– وما الذي انتزعه منّا المجتمع؟

– كمالنا.

– أوه... هلّا أوضحتِ لي أكثر، من فضلكِ؟

– نحن كائنات كاملة متكاملة، وتحملنا الطبيعة على الشعور بذلك في عمق أعماقنا، في حين أنّ المجتمع لا يولّد لدينا إلّا النقص. يجيد المجتمع حملنا على الاعتقاد والشعور بأنّ «ثمّة ما ينقصنا» لكي نكون سعداء. يحول دون أن نكتفي ونرضى بما نملكه، وبما نحن عليه. لا يكفّ عن إقناعنا بأنّنا ناقصون.

خلّفت كلماتها وقعًا شديدًا داخل جوناثان. حالة الكمال التي تتحدّث عنها، تتطابق تمامًا مع ما شعر به في أحضان الطبيعة. حالة بعيدة تمامًا من المذاق المملّ والمُخيّب في نهاية المطاف، الذي خلّفه أسبوعه الأوّل من الملذّات على أنواعها، كما شرح لمارجي.

– آه لا، هذا أمر آخر ومختلف جدًّا! صاحت فجأةً، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة. أنت استسلمتَ للخطيئة في أسبوعك الأوّل!

– أوليس غرورًا منكِ أن تلوميني على هذا وزجاجة مشروبكِ على الطاولة؟ أنتِ التي تزوّجتِ ثلاثة رجال...

انفجرت مارجي ضاحكةً.

– يا ابن أخي العزيز، لم أقُل أنّ ارتكاب الخطيئة شرّ!

– لم أعد أفهمكِ...

– لو كنتَ تعرف اللغة الآراميّة لفهمتَ...

– يا للحماقة، في الثانويّة، اخترتُ صفّ الإسبانيّة إلى جانب الفرنسيّة.

ابتسمَت وصبّت لكلّ منهما كوبًا آخر من الشاي.

– لطالما سعى رجال الدين إلى إثارة عقدة الذنب في نفوسنا، بالفعل، كأنّ ارتكابَ الخطيئة زلّة أخلاقيّة شنيعة... وذلك كلّه بسبب خطإ بسيط في الترجمة...

– خطأ في الترجمة؟

– نعم، الكلمة الأصليّة التي استخدمها السيّد المسيح، والتي تُرجمت بلفظة «خطيئة» كانت «خطاهاين». وهي تعني «خطأ»، بمعنى أنّ ما نفعله لا يتناسب مع الغاية المرجوّة. كذلك، فإنّ المسيح عندما تكلّم عن الشرّ، استخدم لفظة «بيشا» التي تعني «غير ملائم». في اختصار، ارتكاب الخطايا ليس حقًّا ارتكاب الشرّ، بل هو بالأحرى ارتكاب خطإ، والابتعاد من الهدف.

– الهدف؟ ولكن... أيّ هدف؟

أجابت وهي تصبّ الشاي في الكوبين:

– آه... هنا تكمن المسألة كلّها... سيجيبك المسيحيّون واليهود والمسلمون لا محالة «البحث عن الله»، والبوذيّون «البحث عن الصحوة»، والهندوس «إيجاد الخلاص»، فيما يقول آخرون «إيجاد السعادة»... لكنّ حقيقة الأمر هي واحدة تقريبًا. تمامًا كما كتبَ في كتب الـ«فيدا» في الهند: «الحقيقة واحدة؛ ولو تعدّدت التسميات التي يطلِقها عليها الحكماء». «إيجاد السعادة»، كرّر جوناثان، وهو مُطرِق.

ارتشف رشفةً من الشاي. كانت سخونته لذيذة، مُعطّرة. راح النور يخفت حولهما. في البعيد، كانت صفحة المُحيط تعكس آخر ومضات النهار التي ارتسمت في السماء ألوانًا ورديّة وبرتقاليّة دافئة. أمّا الحديقة الغارقة في سكون منقطع النظير، فكانت تعبق صفاءً وطمأنينة. حتّى الطيور صمتت كَمن يتذوّق روعة اللحظة.

– إذًا، ما تقولينه هو أنّ الأسبوع الذي أمضيته في تكاسل وخمول لم يكن يأخذني في الاتّجاه الصحيح لبلوغ هدفي. صحّ؟

– نعم، وقد شعرتَ بذلك شخصيًا. والجميع قد يشعر به في أيّ حال: تغرينا الملذّات السهلة المنال، وحالما نستهلكها، سواء كانت ملذّات مذاقيّة، أم جسديّة، أم ببساطة أمسية نمضيها في التنقّل من قناة تلفزيونيّة إلى أخرى، نشعر بنوع من الخيبة، لا؟ لا بل نشعر بإحباط غريب، لأنّ هذه اللذّة أو تلك لا تُسمِن ولا تُغني من جوع. جميعنا قد خبر ذلك. وقد وصفه سبينوزا بدقّة في القرن السابع عشر.

– إن وصفه سبينوزا...

– ومجدّدًا لا ضَير في ذلك، لكنّه في بساطة لن يجلب لكَ ما تبحث عنه أنت، وما نبحث عنه جميعًا بشكل أو بآخر، عن وعي أم لا.

أطرق جوناثان بضع لحظات.

– و... كيف تفسّرين ذلك؟

تنفّست مارجي نفَسًا طويلًا.

– خلال الأسبوع الذي أمضيتَه في الملذّات، كنتَ تبحث خارج ذاتك عمّا يجلب لك السعادة بصورة أو بأخرى، أليس كذلك؟ في المطاعم والمقاهي والملاهي والمتاجر أو لا أدري أين...

– نعم.

– حسنًا، لن تجد السعادة في الخارج أبدًا. قد تمضي حياتك كاملة تلهث سعيًا وراء كثير من الأمور. إذا بحثتَ في المكان الخطإ فلن تجد شيئًا. هذا كمَن يبحث عن قبر نفرتيتي في أميركا.

– همم...

– وكلّما حصلتَ على ملذّات خارجيّة، روّضتَ دماغك على التوجّه إلى الخارج بحثًا عن مصادر الارتواء والاكتفاء. وفي كلّ الأحوال، تقودنا أدمغتنا فعلًا إلى القيام بما تخالُه الأفضل والأنسب لنا. والمشكلة هي أنّها تتّخذ قراراتها تبعًا لِما عشناه من اختبارات. إذا قدّمتَ لدماغك مصادر رضًا واكتفاء خارجيّة، تحديدًا، فسيدفعك أكثر فأكثر إلى خارج ذاتك.

وافق جوناثان.

– ربّما لهذا السبب، حثّت الأديان أتباعها دائمًا على الابتعاد من الملذّات.

– نعم، ولو أدّى ذلك أحيانًا إلى شعورنا بعقدة ذنب. وإنّما هذا أيضًا لا يُفضي إلى السعادة... لذا، من الأجدى أن نستمتع بالملذّات التي نمنحها لنفسنا في الحياة! إذا استسلمنا للمغريات، فمن الأفضل أن نعيشها بملئها!

ابتسم جوناثان، وهو مستغرق في التفكير.

– لكنّ المشكلة هي أنّ الملذّات هذه تستهويني وتجتذبني، أتفهمين. إذا شئتُ أن أكون صادقًا مع نفسي، فعليّ الاعتراف بأنّني

أعمل من أجل ذلك. لكي أشتري ما يستهويني ويغريني. لكي أشبع جزءًا من رغباتي.

– نعم، هذا ما ظننته أيضًا. وهذا ما ينطبق على معظمنا. وبما أنّ ذلك لا يُرضينا كليًا، فما إن نفرغ من تلبية رغبة ما، حتّى نرغب في أمر جديد لم يكن ليخطر في بالنا من قبل. وفي نهاية الأمر، يؤدّي إشباع الرغبات المتتالية بنا إلى سباق لا ينتهي، رغبة... فرغبة جديدة... فأخرى.

– ربّما.

ارتشفت مارجي القليل من الشاي.

– لقد أدركَ البوذيّون هذه الظاهرة جيّدًا. فهم يرون أنّ رغباتنا هي من أسباب عذابنا. لذا، يدعون الناس إلى التحرُّر من الرغبات.

– التحرُّر من الرغبات...

– بالضبط.

– نعم، نعم... فهمتُ النظريّة، ولكن عمليًا، لستُ واثقًا في أنّني أؤيّد الفكرة.

– ولماذا؟

– لديّ انطباع بأنّ الرغبات هذه هي سبب عيشي.

– سبب عيشكَ؟

– بالتأكيد. في غياب الرغبات، لا أعلم ما قد يحفّزني على السير قدمًا. الرغبات هي بالأحرى محرِّك، أليس كذلك؟ لأنّني أرغب في أمور معيّنة، أستجمع الطاقة للمكافحة في سبيل تحقيقها. أمّا إذا استطعتُ التحرُّر من رغباتي، كما تقولين، فسيكون هناك... ما يشبه الفراغ والخواء. أترين؟ أتصوّر نفسي هكذا، هادئًا باردًا، لا أفعل شيئًا، لأنّني لم أعد أرغب في شيء... فأجد المشهد... كئيبًا مُضجِرًا بعض الشيء، أليس كذلك؟ هذا مدعاة إلى الاكتئاب نوعًا ما.

ابتسمت مارجي.

– يا عزيزي، تقول ذلك لأنّ مجتمعنا لم يدَعْك تشعر إلّا بالملذّات العابرة، الناتجة من إرضاء رغباتك؛ لم تُترك لك فرصة الإحساس بالفرح الحقيقي، الفرح النابع من الداخل.

– ربّما.

– ما الذي اعتاد والداك فعله من أجل إسعادك؟

– أوه... لا أدري، يقدّمان لي هديّة...

– أيّ هديّة؟

– ماذا تعنين؟

– كيف كانا يختاران الهديّة؟

– لا أدري... أفترض أنّهما كانا يحاولان معرفة اللعبة التي أرغب فيها.

هزّت مارجي رأسها.

– نعم، اللعبة التي ترغب فيها أنت... وفي عيد ميلادك، ماذا كانا يفعلان من أجلك؟

– يقدّمان لي هديّة، طبعًا.

– وفي أعياد الميلاد ورأس السنة؟

– أجل، هدايا.

انحنَت مارجي، وصبّت المزيد من الشاي.

– المشكلة، كما ترى، هي أنّ أهلك أرادوا وبكلّ صدق فعل ما يُسعدك، ولا بدّ من أنّك شعرتَ بذلك وأحسست به. كانوا يريدون لك أن تكون سعيدًا.

– طبعًا.

– والواقع، أنهم لم يدركوا أنّهم كانوا يعلّمونك أنّ المرء يسعَد فقط إذا ما تلقّى عطيّة ما من الخارج، لإرضاء رغباته.

– بدأت أفهم...

– إلّا أنّ ذلك غير صحيح على الإطلاق. فكلّما ازددت التفاتًا إلى الخارج بحثًا عن مصادر ترضيك وتُشبع رغباتك، ازداد شعورك بالنقص. وكلّما سعيتَ وراء رغباتك، تناقص شعورك بالرضا والامتنان.

وافق جوناثان في تمهُّل.

– لقد تحوّلت المسألة ثقافيّة بحتًا، كما تلاحظ، تابعت مارجي. غدت في دواخلنا الآن، في نفوسنا. لقد طوّعونا على ذلك. ومن ثمّ وصلنا إلى ما كنت تصفه أنت منذ دقيقتين: تلبية رغباتك هو ما يجعلك تتقدّم في الحياة، وفق قولك. أتُدرك الآن؟ هل تُدرك إلى أيّ حدّ نحن مقولبون؟ وفوق ذلك كلّه، نستميت في العمل من أجل ذلك، من دون أن نعي أنّنا لا نحتاج إلى كلّ ما نسعى لاهثين خلفه...

سرح جوناثان بنظره في البعيد. كان مركب شراعيّ صغير يتهادى على سطح البحر.

– حسنًا، لا بأس بكلّ هذا، ولكن ماذا عليّ أن أفعل لأقاوم رغباتي؟ فأنا لا حول لي ولا قوّة تجاهها، بما أنّها قائمة فيّ...

– إيّاكَ أن تقاوم رغباتك!

– الآن، ما عدتُ أفهمكِ البتّة.

– إذا قاومتَ رغباتك، فذلك يعني أنّ جزءًا منك يرغب في شيء ما، فيما يقاوم جزء آخر هذه الرغبة.

– بالضبط.

– هذا نوع من الحرب الداخليّة بينكَ أنتَ و... أنتَ نفسك.

– نعم، يمكنك قول ذلك.

– إذًا، بهذا الشكل، لن تسير الأمور على ما يُرام! لهذا تحديدًا، عندما نفرض على أنفسنا حمية غذائيّة، نفشل في معظم الأحيان. عندما نشنّ حروبًا على ذواتنا، ثمّة أمر واحد أكيد: أحدنا سيخسر!

نظر إليها جوناثان مبهوتًا.

– ما الحلّ إذًا؟

هزّت مارجي رأسها، وقالت:

– في الواقع، لا أظنّنا نستطيع أن «نستأصل» أمورًا راسخة في أعماقنا، سواء من رغبات أم غير ذلك. إذا كانت لديك رغبة جامحة ومتكرّرة في أكل الحلوى أو رقائق البطاطس، هيّا، فلتُكابِد لاستئصال الرغبة من داخلك. أتمنّى لك التوفيق.

– أوافقكِ الرأي تمامًا.

– لا نستطيع أن «نستأصل» شيئًا من دواخلنا. لا نستطيع إلّا أن «نُضيف» أشياء.

– نُضيف؟

– نعم، نضيف أشياء أقوى من رغباتنا، أشياء تتجاوز رغباتنا وتسمو عليها، أشياء تغذّينا، وتُنيرنا، إلى حدّ تُنسينا رغباتنا. وتُنسينا إيّاها. عندئذٍ، تتبدّد رغباتنا وتتلاشى تلقائيًا. تذوب وتزول.

– و... ما هذه الأشياء؟

– تلك التي تتيح لنا التعبير عمّن نحن حقًّا، عن حقيقتنا نحن، والغاية التي ولدنا لأجلها. تلك الأمور التي تجلب لنا الرضا والقناعة والبهجة النابعة من أعماق أنفسنا.

حدجها جوناثان هنيهات، ولم ينبس بكلمة.

– و... كيف أجد ذلك أنا؟

مالت عليه مارجي، وهمسَتْ له بصوت خافت، كأنّها تودِعه سرًّا:

– ابحث في داخلك.

لم يرفع جوناثان عينيه عنها فيما راحت كلماتها المهموسة تتردّد في أعماقه.

تنفّس نفسًا عميقًا. بدا كأنّ الزمن توقّف. في صمت الحديقة، حبست النبتات أنفاسها.

تابعت مارجي:

– لذا، يجب أن نأخذ مساحة ووقتًا من أجل أنفسنا فحسب. أن نترك ما في دواخلنا ينبعث ويطفو... أن نتعلّم فكّ رموز رسائل قلوبنا وأجسادنا...

سبح كلام مارجي مرفرفًا في الأجواء، محمولًا على أجنحة المساء الرقراقة، تحت النجوم البرّاقة. كانت تبتسم، ونظرتها الصافية المشرقة تنبعث من جمال تجاعيد وجه نحتته سِنون حافلة بالتجارب الغنيّة والخبرات المثمرة.

– لستُ واثقًا في التقاط إشارات ورسائلَ كهذه التي تصفين، ومع ذلك لا أشعر بأنّني أكبتها أو أحبسها...

– في أيّامنا هذه، جميعنا يفعل ذلك بشكل أو بآخر، ومن دون أن ندري حتى.

لم يكن جوناثان مقتنعًا بما فيه الكفاية.

– هل تشعر بالتعب أحيانًا؟ سألته مارجي.

– نعم، كسائر الناس.

– عندما نشعر بالتعب، فذلك يعني أنّ أجسادنا تطالبنا بالراحة، وأدمغتنا بالنوم. أمّا نحن فماذا نعطيهما في المقابل؟ فنجان قهوة!

وافق جوناثان في هدوء، وهو يفكّر في كلّ ما يبتلعه من منبّهات لتغذية طاقته في العمل...

– هل تُصاب بحالة من الكآبة والحزن، من وقت إلى آخر؟ سألته مارجي.

ندّت من جوناثان تنهيدة.

– أجل، في طبيعة الحال، قد يحصل لي أحيانًا.

– وكيف تتصرّف في مثل هذه الحالة؟

– كيف أتصرّف؟ لا أدري... لماذا؟

– تذكّر آخر مرّة حصل لك ذلك.

– آخر مرّة... نعم، كان ذلك...

– هذا لا يعنيني. قل لي فحسب ماذا فعلت عندما شعرتَ بذلك الاكتئاب؟

– ببساطة، تناولتُ أربعة مربّعات من الشوكولاته! آ... كلّا... ثمانية.

– وهل تحسّنت حالُك بعد ذلك؟

– لم تتحسّن كما يجب، لكنّ ذلك منحني شيئًا من المتعة في تلك اللحظة. أقلّه هذا.

– وماذا فعلت بعد ذلك؟

– أظنّ أنّني شغّلتُ التلفاز.

– أرأيتَ؟ النمط نفسه. نبحث في الخارج عن حلول لمشاكل الداخل: الشوكولاته، لذّة تأتي من خارجك، والتلفزيون سيل من الأخبار والانفعالات يأتيك هو الآخر من الخارج.

– وهل هذا خطير، حضرة الطبيب؟

ضحكت مارجي ضحكة خافتة.

– بحسب بول فاتسلافيك الذي كان يُقيم في الجوار: هذا ميؤوس منه ولكنه ليس خطيرًا!

– طمأنتِني...

– لا بأس، هذا أفضل من أن تتناول أقراصًا مهدّئة، وإن كان النمط نفسه! في أيّ حال، عندما تكون مريضًا، فأنا واثقة في أنّ أوّل ردّ فعل لك هو...

قاطعها جوناثان بنبرة ذليلة تدّعي الانهزام:

– تناول دواء.

ضحكت مارجي، وصبّت مزيدًا من الشاي.

– صدّقني في الداخل نجد حلًّا لمعظم مشاكلنا.

– فهمتُ.

– هذا من أكبر الأوهام في عصرنا. بتنا أكثر فأكثر لا نصغي إلى ما في دواخلنا. حتّى أنّنا قد ننتهي أحيانًا غير عارفين ما نريد أن نصنع

في حياتنا. وفوق ذلك، في حياتنا اليوميّة، نميل إلى الضياع، إذ نريد التطابق مع معايير ليست من شيمنا، بل مفروضة علينا فرضًا من المجتمع.

– معايير؟

– نعم، معايير أو قوانين أو مقاييس... سمِّها ما شئت. قواعد سلوك، قواعد رأي، خصوصًا قواعد ذوق. أشعر أحيانًا بأنّنا نُحِبّ لا ما تهمس به قلوبنا، بل ما يدفعوننا دفعًا إلى حبّه. هل نحن حقًّا مَن نختار ملابسنا وهواتفنا ومشروباتنا أو الأفلام التي نشاهدها؟

– نعم، ولكن كما تعلمين، هذا أمر لا يسعنا تجنّبه في أيّامنا هذه. فنحن اليوم مترابطون متّصلون في ما بيننا، لذا جميعنا يؤثّر الواحد في الآخر. ولا ضير في ذلك.

– بالطبع لا، لا ضير على الإطلاق. ولكن في إطار هذين الترابط والتواصل، علينا أن نبقى على تواصل كافٍ مع ذواتنا، لكي نتقن عيش حياتنا، لا حياة الآخرين.

أطرق جوناثان مفكّرًا في ساعات المشي الطويلة التي خاضها، وحيدًا، في طبيعة بيغ سور، وتذكّر ذلك الشعور القويّ، شعورًا حقيقيًّا لم يراوده قطّ مِن قبل، بأن يكون هو نفسه، على طبيعته.

– لكي نُجيد عيش حياتنا حقًّا، واصلت مارجي، من الضروريّ أن نصغي إلى كلّ ما يأتينا من أعماق ذواتنا. نصغي إلى الرسائل والإشارات التي تهمس بها أرواحنا. لكنّ أرواحنا كملاك يوشوشنا بصوت خافت ووديع إلى درجة علينا أن نصيخ السمع لكي نميّزه. فكيف لنا أن نتنبّه له وفكرنا منهمك على الدوام بألف أمر وأمر، خارج عن ذواتنا؟

– ربّما أقلّ من ألف...

– فكّر في كلّ تلك الأخبار والمعلومات التي نتلقّاها على الدوام، من دون انقطاع، كلّ هذه المحفِّزات.

– دعيني أستبقكِ: ستندّدين بالتلفزيون، والإنترنت، وشبكات التواصل الاجتماعيّ، وألعاب الفيديو، وفيض الرسائل الإلكترونيّة في الهاتف المحمول، والرسائل النصّيّة...

– لا أندّد بشيء، ذلك كلّه مفيد جدًا، شرط أن نكون على قدر كافٍ من النباهة، لئلّا نقع في الفخّ. فهل تعلم لماذا نصبح تابعين، مُدمنين؟

– كلّا.

– لأنّ الوسائل هذه كلّها تولّد فينا انفعالات وعواطف. وعندما نشعر بالانفعال، نحسّ بأنّنا نعيش. وهكذا، نطلب المزيد وأيضًا المزيد. لهذا، نبقى موصولين بكلّ تلك الشبكات الاجتماعيّة. ما إن ترِدْ رسالة تعنينا حتّى ننفعل. بلغَنا خبر؟ انفعال. ثمّة من فكّر فيّ؟ انفعال. عاصفة ضربت بلدًا ما؟ انفعال... مجدّدًا أقول لك، لا ضير في ذلك، ولكن مع الاستمرار في الانغماس في ما يأتينا من الخارج، نفقد التواصل مع ذواتنا. كلّما أملى الخارج علينا انفعالاتنا ومشاعرنا، تناقصت قدرتنا على استنهاضها من الداخل، بقوّة أفكارنا الخاصّة، وأفعالنا واختباراتنا. كأنّنا نعيش في عربة من عربات الأفعوانيّة في مدينة الملاهي، نتأرجح على مرّ النهار في قاطرة لا نعرف سائقها، ونجهل إلى أين تقودنا.

وافق جوناثان، هازًا رأسه على مهل، مُغرقًا في التفكير.

– كما تعلم، يصعب على بذرة أن تبرعم وتنبت في تربة تخنقها الأعشاب الضارّة. لا بدّ من فسحةٍ يأتينا النور من خلالها.

تركَ جوناثان نظره يسرح في ما حوله. كان القمر يعلو مياه المحيط، مُغرقًا الحديقة بليل نصفه عتمة ونصفه ضوء. بطاقة بريديّة مُذهلة بالأبيض والأسود.

وأردفت مارجي:

– إن لم نأخذ الوقت الكافي لكي نُصغي إلى أرواحنا، ونتلقّف ما ينبعث من أعماق ذواتنا، فقد نصبح غرباء عن أنفسنا. وما لم نعرف ذواتنا جيّدًا...

توقّفت لتقضمَ في هدوء قطعة بسكويت بالزنجبيل.

– ماذا؟

– ما لم نعرف ذواتنا، فسنترك أوهامنا تتحكّم في حياتنا وتقودها حيث تشاء.

رفع جوناثان رأسه، ورمقها قائلًا:

– أوهامنا؟

– نعم، لدى كلّ واحدٍ منّا أوهام وأفكار خاطئة عن الحياة، تأخذنا في هذا الاتّجاه أو ذاك. في أعماقنا، يُدرِك وعيُنا أنّ هذه ليست حقيقة الأمر، وأنّنا نسير في الطريق الخطإ. لكن ما لم نستمع إلى قلوبنا، فقد نترك هذه الأوهام تستلم دفّة مركبنا، وتحرمنا الحرّيّة الحقيقيّة. وعندئذٍ، قد نصبح عبيدًا لأوهامنا...

– لم أفهم جيّدًا ما تقولين.

ارتشفت مارجي بضع رشفات من الشاي.

– عليّ أن أرفق كلامي بأمثلة... حسنًا، أزواجي على سبيل المثل.

– صحيح أنت تزوّجتِ أكثر من رجل واحد...

– عندما نُحبّ لا نحسُب! زوجي الأوّل كان صاحب كاريزما ومُحِبًّا للسلطة. وهمّه كان أنّ الناس ليسوا أهلًا للثقة، بالتالي عليه أن يدير بنفسه كلّ شيء، ويتأكّد من صحّة كلّ شيء. في شتّى الأحوال، كان هاجسه أن يسيطر على الأوضاع، خصوصًا... على الناس المحيطين به! لكنّ الحياة تتكفّل تحويل مخاوفنا الوهميّة وتخيّلاتنا الجَزِعة واقعًا وحقيقة. فالجبناء يستسلمون للخوف والعذاب؛ والذين يخشون أن يكونوا دون المستوى يفشلون بالفعل؛ والذين يخافون النبذ والإقصاء ينتهون منبوذين. وعندما نريد أن نتحكّم في كلّ أمر، بسبب قلّة الثقة، ننتهي بفقدان السيطرة تمامًا: تحكّم في زوجتك، تخنك؛ تحكّم في أولادك، يتمرّدون عليك؛ تحكّم في شعبك، ينتفض عليك ويثُر.

– ألهذا السبب هجرتِه؟

– كان يريدني أن أتخلّى عن بعثاتي الاستكشافيّة في مصر، كأنّني قد أقع في غرام مومياء...

غمست طرف قطعة البسكويت في كوب الشاي وتذوّقتها.

– وزوجكِ الثاني؟

– هو؟ كان مختلفًا كليًا. وهمّه كان في أنّه يعتبر نفسه أكثر ذكاءً من الجميع. الأمر الذي جعله يعامل الآخرين في استخفاف وشيء من الاستعلاء. كان يستمع إليهم محافظًا دائمًا على مسافة بينه وبينهم، كأنّه يحكم سلفًا على ما سيقولون من هراء وكلام فارغ. ولن أذكر احتقاره المشاعر وردود الأفعال... حتى أنه كان يرمي مخاطبه، في برود تامّ، ببعض العبارات ليبيّن له عدم المنطق في حديثه. لا حاجة إلى القول أنّنا خسرنا الكثير من أصدقائنا...

– ولكن، لماذا تقولين أنّ ذكاءه كان وهمًا؟

– بل الوهم في أنّه كان واثقًا في تفوّق ذكائه. تشبّثنا بالعقل والمنطق لا يعني أنّنا أذكى من الآخرين.

– تشبّثنا بالعقل والمنطق؟

– نعم، لن أُلقي عليكَ محاضرةً في علم البيولوجيا، بل لتبسيط الأمر قد أقول أنّ لدى كلّ إنسان ثلاثة أدمغة...

– لطالما شكّت أنجيلا في أنّني أملك دماغًا؛ وفي النهاية، أكتشفُ أنّني أملك ثلاثة.

– لكي أكون أكثر دقةً: يحتوي دماغ الإنسان على ثلاث طبقات، يختلف تطوّر كلّ منها باختلاف الأشخاص: هناك الدماغ القديم البدائيّ الموروث من أسلافنا الزواحف، ويعود إلى أربعمئة مليون سنة، أي ما قبل إنسان الكهف في زمن طويل. وهذه الطبقة هي تحديدًا ما تعطينا ردود أفعال ارتكاسيّة بدائيّة للكفاح من أجل البقاء في قيد الحياة، وأخرى عدائيّة، وتشبّثيّة، للتمسّك بالأرض والموقع. عند بعض الناس

يكون الدماغ القديم البدائيّ أكثر نموًّا منه لدى البعض الآخر، وهؤلاء موهوبون بالفطرة للقيام بالفعل والتفاعل والانفعال. عادةً ما يتّسمون بميل إلى السلطة، والمال، والجنس...

– رجال السياسة!

قهقهت مارجي.

– وطبقات الدماغ الأخرى؟ سألها جوناثان.

– الدماغ الطرفي أو الدماغ العاطفيّ، وهو المسؤول عن إحساسنا بمشاعرنا ومشاعر الآخرين، وهو ما يسمح لنا بتنمية قدراتنا العلائقيّة. ظهر مع ظهور أوّل الحيوانات الثدييّة، والتي كانت مضطرّة إلى الاعتناء بصغارها العاجزة عن الاستمرار من دون تفاني الكبار. أخيرًا، هناك القشرة الدماغيّة الحديثة، مركز ما يمكن تسميته العقل أو الذهن: الفكر المنطقيّ، القدرة على الصوغ ووضع المفاهيم، إلخ...

– فهمتُ...

– الأمثل في الحياة هو إيجاد توازن بين الأدمغة الثلاثة هذه، لكي يكون الإنسان، في نهاية المطاف، منسجمًا ومرتاحًا في فعله وانفعاله كما في تفكيره المجرّد.

– إذًا، كانت القشرة الدماغيّة الحديثة لدى زوجك الثاني متطوّرة جدًّا...

– يمكن القول. لكنّ الذكاء لا يُختزَل بالعقل أو الذهن. بل يرتكز على استعمال طبقات الدماغ الثلاث بشكل متوازن. أمّا هو فكان يعاني صعوبات على الصعيدين العاطفيّ والانفعاليّ. لم يكن يعرف نفسه ما يكفي، ولا يجيد فهم الآخرين. كان شخصًا يرفض الإصغاء إلى قلبه، وعواطفه، ورغباته، ولا يفهم انفعالاته الخاصّة حتّى. فما بالك بانفعالاتي أنا...

– هل بقيتما في تواصل بعد الطلاق؟

– علِمتُ أنّه أصيب بداء ألزهايمر. يا للعار، وهو الذي كان يحسب أنّ دماغه دماغ مفكّرٍ...

– مسكين.

– وسرعان ما نسيَ أنّه مُصاب بهذا الداء...

رشفت مارجي رشفةً من الشاي.

– وزوجي الثالث كذلك الأمر، كان شخصًا مختلفًا بالكامل. كان يبحث عن السعادة في مكانته الاجتماعيّة. وهذا أكثر الأوهام صعوبة بلا شكّ... أوّل الأمر، كنتُ معجبةً بشخصه الذي يفرض حضوره على الجميع. ثمّ أدركتُ ذات يوم أنّه يسعى وراء كلّ ما هو لامع ومبهرج، ومن شأنه أن يزيده أهمّية. من الألقاب وصولًا إلى الملابس الأنيقة، مرورًا بماركة السيّارة، وهندسة المنزل، أو الكلمات الرنّانة التي ينمّق بها أحاديثه. حتّى معارفه كان يختارهم بدقّة لرفع قيمته بين الناس. لا شيء ينبع من قلبه. بل كلّ شيء تُمليه حاجته لأن يعترف به الغير ويُعجَب بصورته. أظنّه كان ينتهي بأن يزهو بنفسه إعجابًا بنفسه، ومع ذلك، لم يكن سعيدًا: كان دائمًا بحاجة إلى المزيد، كأنّما لم يكن يومًا على مستوى الصورة التي يشتهيها. لا شكّ في أنّه كان يحتاج إلى طمأنة نفسه، وسدّ نقص في احترام ذاته، نقص كان يُخفيه بمهارة ويموّهه... عندما أردتُ تغيير مهنتي لأصبح عالمة بيولوجيا، فعَلَ كلَّ ما في وسعه ليَحول دون ذلك: أن يكون متزوّجًا عالمة آثار، هذا فخر ورُقيّ، أمّا أن يكون زوج عالمة بيولوجيا، فهذا عاديّ جدًّا.

أفلتت ضحكة صادقة من جوناثان.

– مات مسحوقًا تحت عجلات سيّارة، قالت مارجي بنبرة خالية من التأثُّر.

– يا للهول!

– كلّا! على العكس!

– كيف يمكنك قول أمر كهذا؟

– كانت سيّارة رولز رويس، في ختام سهرة راقصة مترفة في أحد القصور. ميتة الأحلام بالنسبة إليه! تصوّر، لو أنّ درّاجة ناريّة صغيرة هي التي دهسته، وفي ضواحي المدينة...

– مارجي...

– نفّذنا وصيّته بحذافيرها: جنازة فخمة في حضور نخبة المجتمع، فرقة أوركسترا وفرق كورس لعزف «نشيد الموتى» لموتسارت، ومدفنًا أكثر ضخامةً ومهابة من مدفن رونالد ريغان. لقد ذُهل الجميع. أمّا أنا فلم أتأثّر كثيرًا. أمام عظمة توت عنخ أمون، هو ضئيل ضئيل إن فهمتَ ما أعني...

10

تنفّس الرجل عميقًا، نقّل نظره مرّتين أو ثلاثًا بين كرة الغولف والملعب. حركة خفيفة من كتفيه، تبعَتها حركة دائريّة طفيفة إلى الوراء. كتم مايكل ضحكته. في كلّ مرّة يهمّ جون دايل بضرب الكرة، يشوبه ذلك التشنّج العصبيّ اللاإراديّ. مُضحِك جدًّا!

بضربة حادّة، طارت الكرة عاليًا راسمةً قوسًا كبيرًا قبل أن تسقط على الأرض وتلبث حيث سقطت.

– لا بأس، قال مايكل وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة اطراء. ضربة «لوب» موفّقة.

تابع الرجلان سيرهما جنبًا إلى جنب. كان الضباب الصباحيّ قد تبدّد تحت شمس مشرقة أغرقت بنورها الساطع ملعب الغولف في حديقة غولدن غايت. كان المكان يفوح بعطر العشب المجزوز حديثًا. من بعيد، بدا المحيط متململًا بعض الشيء، والزبد يعلو الأمواج في عرض البحر.

– أين وصلتَ في المفاوضات مع شريكَيك؟

– الأمور في تقدّم، أجاب مايكل. وأنا متفائل.

– منذ ثلاثة أشهر وأنت تقول لي الكلام نفسه، بيد أنّ شيئًا لم يحدث...

– لقد أنذرتُكَ بأنّ الأمر قد يستغرق وقتًا طويلًا. فالشركة بمثابة طفلتهما. ولا يمكن لأحد أن ينفصل عن ثمرة أحشائه هكذا بسهولة.

– بالمال الذي أعرضه يمكنهما إنجاب ما يحلو لهما من الأطفال.

– لم يعد الموضوع مطروحًا...

توقّف جون دايل، ونظر إلى مايكل.

– وماذا لو كلّمتهما أنا شخصيًا؟

– أبدًا، إيّاك أن تفعل! أنا أعرف كيف أناور معهما. منذ خمس سنوات، وأنا أتمرّس في ذلك...

– ولِمَ كلّ هذا الوقت؟ فالعرض الذي أقدّمه يجعل أيًا كان يوافق فورًا، في ما أظنّ.

– حين يتعلّق الأمر بالعواطف، لا يمكن للمال أن يشتري كلّ شيء. لن يبيعا أيّ شخص من الخارج. يجب أن تتمّ الصفقة من خلالي أنا. أنا أعمل على الموضوع عن كثب. وبالتالي، يلزمني بعض الوقت. لا يمكن الحصول على شيء مجّانًا.

بادره جون بتكشيرة ملؤها الشكّ.

– ثق فيّ، نحن على السكّة الصحيحة.

واصَلا المشي في اتّجاه الميدان الأخضر. بعيدًا، في عرض البحر، كانت مراكب شراعية عدّة قد خرجت تتحدّى الأمواج العاتية، مفيدةً من هبوب الريح. وكان من الممكن التكهُّن بحالها البائسة؛ ألعوبة في قبضة الأمواج.

تنفّس مايكل ملء رئتيه. لن يستطيع الاستمرار طويلًا في التلاعب بجون على هذا النحو، وهو يدرك ذلك جيّدًا. لكثرة ما راهن على الفوز على جميع الأصعدة، قد ينتهي بخسارة كلّ شيء. ولكنه لن يكتفي فقط بالربح الذي يضمنه بيع أسهمه وحدها، ويترك شريكيه يحصلان على المقدار نفسه من الربح، في حين أنّهما لم يفعلا شيئًا ولم يبذلا جهدًا، ولم يشاركا حتى في المفاوضات. هذا أفضل في أيّ

حال، فقد كانا من النوع القنوع إلى حدّ قد يقبلان بثمن متواضع، فيبيعان الحصّة الواحدة لقاء أربعمئة أو خمسمئة دولار في حين أنّ جون مستعدّ لدفع ألفي دولار.

* * *

«... في مصنع الألبان والأجبان العملاق هذا يا دان، نرى مئات الأبقار مصفوفةً جنبًا إلى جنب، ملتصقًا بعضها ببعض. حتّى أنّ المساحة ضيّقة إلى حدّ لا يتيح لبقرة أن تستدير. قد نتساءل ما إذا ما كانت تستطيع أن تتمدّد أرضًا لتنام. وما هو لافت، كما ترى، أنّها موسومة بعواقب حبسها على هذا النحو. أمر لا يُصدّق، لكن تصوّر أنّ أظلافها نمَت واستطالت، لأنّها لا تستعملها أبدًا. أصبحت وكأنّها مخالب عملاقة مَحنيّة ومعقوفة على نفسها. هذا شنيع ومشين حقًا، إن شئنا القول، وكما ترى يا دان، حين ننظر إليها لا نستطيع إلّا أن نفكّر في أنّها حالما تفرغ من حياتها كأبقار مُدرّة للحليب، ستَرتاح من عذابها ويواسيها بل يُسعِدها أن تُساق إلى الذبح في مسلخ، لتنتهي شرائح لحم في أطباقنا.»

«شكرًا تيفاني، مراسلتنا في إحدى المزارع القريبة من دنفر، في كولورادو. نبقى في ملفّ البيئة: يوافينا مراسلنا جيريمي ستنسن مباشرةً من الدوحة في قطر. جيريمي، لقد اجتمع ممثلو مئة وتسعين دولة لمناقشة ظاهرة الاحتباس الحراري. هل تمّ التوصّل في النهاية إلى قرار مُشترك؟»

«صباح الخير، دان. لقد أنهى الناطق الرسميّ مؤتمره الصحافيّ توًّا وغادر فورًا. وقد قدّم كلّ من ممثلي البلدان تقارير خبرائهم الرسميّة، هنا في الدوحة. ويلتقي الآن العلماء في معظمهم على استنتاجات متقاربة: في أفضل الأحوال، يراهنون على زيادة أربع درجات مئويّة كحدّ أدنى، من اليوم حتّى آخر القرن. وأربع درجات مئويّة، عزيزي

دان، قد تبدو قليلة في نظرنا نحن المواطنين لأنّنا نحبّ الطقس الدافئ؛ لكن، وكما ذكّرنا علماء الوفد الفرنسيّ، قد عرفنا في الماضي حقبة، حيث كانت حرارة الكرة الأرضيّة أربع درجات مئويّة أدنى من حرارتها اليوم. تصوّر يا دان، أنّ تلك الحقبة كانت ما يُعرَف بالعصر الجليديّ... نعم، نعم، سمعتني جيّدًا، أربع درجات مئويّة، هذا كثير على مستوى الكرة الأرضيّة. وقد توقّع هؤلاء العلماء أنّ هذه الدرجات الأربع الإضافيّة، ستؤدّي في أواخر القرن إلى الذوبان الكامل لكتل جبال الألب الجليديّة في أوروبا؛ أي أنّه لن تبقى قطرة ماء واحدة في وادي نهر الرون، الوادي الفرنسيّ الكبير، الأمر الذي سيحوّل منطقة بروفانس تحديدًا إلى صحراء قاحلة. وتلك صورة فظيعة يبدو أنّها انطبعت في الأذهان؛ ومع ذلك يا دان، فإنّ المؤتمر الدوليّ الذي يكاد ينتهي، لم يُسفر عن أيّ قرار. اكتفى رؤساء الدول بالاتّفاق على الاجتماع مرّة أخرى بعد سنتين، في باريس، لمناقشة التدابير المحتملة، وقد...»

أطفأ جوناثان جهاز الراديو، وعاد إلى الجلوس في مقعده الخيزرانيّ، قبالة النافذة المفتوحة في غرفته، في الطابق العلويّ. نظر إلى البحر واستنشق الهواء ملء رئتيه. «ابحث في داخلك»، هذا ما قالته مارجي. تنهّد. ليس سهلًا أن تجد السعادة في أعماقك فيما العالم كلّه يدور بعكس ما يفترض. ليس سهلًا أن تستبعد الأمور التي لا تسير على ما يُرام.

حاول أن يطرد من ذهنه تلك الأخبار السيّئة. لماذا يسير المجتمع إلى الوراء؟ شعر بمزيج من الغضب والعجز. ربّما كان عليه أن يتابع الخبر حتّى النهاية. لعلّ المذيع قد يشير إلى عريضة تُوقّع عبر الإنترنت، أو ربّما مشروع تظاهرة احتجاج. سيجري أبحاثه في الإنترنت.

«ابحث في داخلك.» أغمض عينيه بضع لحظات في محاولة لتصفية ذهنه. عندما فتح عينيه مجدّدًا، لمح القمر شاحبًا في زرقة

سماء الصباح. القمر... أنجيلا... أمسياتهما الطويلة في الحديقة أيّام الصيف، قبل ولادة كلويه. كانا يُمضيان ساعات وساعات يتسامران تحت النجوم، يُعيدان بناء العالَم بأحلامهما. أنجيلا... يشقّ عليه أن يعترف، لكنّه اشتاق إليها، كثيرًا. على الرغم من الحقد الشديد والمتراكم حيالها، وحيال هذا الانفصال الجائر القائم على اتّهامات باطلة بل مستحيلة. وماذا كان في وُسعه أن يفعل إذا كانت حاضنة الأطفال التي أرسلَت إليه من النوع الشبِق؟ لكنّ أنجيلا رفضت سماع أيّ تبرير. عنيدة، لا تتبدّل ولا تلين. تمامًا كما في الماضي، عندما كانت تلومه على كثرة انهماكه في العمل، وعدم مجيئه إلى البيت للاهتمام بالعائلة. «ليست لي أيّ قيمة عندك»، كانت تقول وفي كلّ جرأة. لم تكن تدرك أنّه وإنّما يفعل ذلك كلّه من أجلها. من أجلها ومن أجل كلويه.

نهض وبحث في جيب سترته عن محفظة أوراقه. منذ سنوات، لم يتفقّد الصورة. ومع ذلك، فهو يعرف جيّدًا أنّها هنا، قابعة في مكان ما. وجدها أخيرًا، محشورةً ويا لسخرية الظروف، بين أوراق التأمين. أمسكها بين أصابعه وأحسّ بانقباض في الصدر. آنذاك، لم يكن يلتقط صورًا لأنجيلا إلّا بالأسود والأبيض. هذا أكثر صدقًا وطبيعيّة وأكثر تعبيرًا وتأثيرًا. في هذه الصورة تحديدًا، كانت أنجيلا ترتدي حمّالة صدر من الدانتيل البيضاء، وقد التقطت الكاميرا تعبيرًا رائعًا على وجهها: ابتسامة يلابسها غضبٌ مَرِح احتجاجًا على التقاط الصورة وهي ترتدي ثيابها. عاقدة الحاجبين، ضاحكة العينين؛ سحر لا يُقاوَم.

طُرِق الباب فجأةً، ودخلت العمّة مارجي، وفي يدها صينيّة. دسّ جوناثان الصورة بسرعة في كمّ قميصه.

– قهوة في غرفة نومك!

– أنتِ رائعة حقًّا يا مارجي.

كان على الصينيّة إبريق قهوة من البورسلين الجميل، فنجانان، وقارورة شراب. كان واضحًا أنّها دعت نفسها لتناول القهوة معه. اقتربت من المنضدة الصغيرة في محاذاة النافذة، لتستودعها حمولتها، لكنّ حركة خرقاء منها كادت تقلب الصينيّة. في الحال، مدّ جوناثان ذراعه، فسندها بسرعة، مُعيدًا إليها التوازن. في هذه الأثناء انزلقت الصورة من كمّه وسقطت على الأرض. التقطها برشاقة، وهمّ بخوض موضوع آخر لصرف انتباهها، لكنّ عمّته بادرته بنبرة حنون رقيقة:

– لم تقلب الصفحة بعد، أليس كذلك؟

صمت جوناثان.

صبّت القهوة في الفنجانين، ودفعت أحدهما إلى ابن أخيها.

– تفضّل يا عزيزي.

تناول جوناثان الفنجان ساخنًا، يتصاعد منه البخار. عبقت رائحة البنّ الدافئة.

– ماذا لو أخبرتَها بمشاعركَ؟ قالت له بلهجة حميمة.

انقبض جوناثان بعض الشيء. بقي صامتًا بضع ثوان، ثمّ قطع الصمت:

– لا جدوى. لقد تناقشنا مرارًا وتكرارًا. فعلث كلّ ما في وسعي لأثبت لها أنّ اتّهاماتها في حقّي باطلة. ولكن عبثًا.

– لا أقترح أن تفسّر لها، بل أن تبوح لها بمشاعرك فحسب.

– الأمر سيّان، لا؟

تنهّدت العمّة مارجي.

– عزيزي المسكين. على الرغم من السنوات التي عشتها معها، ما زلث تجهل النساء...

نظر جوناثان إليها مبهوتًا.

– لا تأبه المرأة بتفسيراتك وشروحاتك المنطقيّة لإيضاح وضع معيّن. شرح وتفسير... وشرح وتفسير... كأنّ المسألة هي أن تكون على

حقّ. آه... الرجال لا يفهمون شيئًا... ما تريده هو أن تشعر بأنّك تحبّها، أن تشعر بأنّك تُحِبّها هي...

– لكن، هذا غير منطقيّ إذًا...

– لا يهمّنا المنطق في الحياة الزوجيّة! إنّها مسألة مشاعر وأحاسيس، وليست مسألة رياضيّات وحسابات!

لم ينبس جوناثان ببنت شفة هنيهات. لا، لم يكن مستعدًّا للتحدّث إلى أنجيلا مجدّدًا ولا خوض هذا الموضوع. فهي قادرة على نبذه شرّ نبذ. وهو يرفض أن يكون موضع استهزاء. هذا غير وارد على الإطلاق. بسرعة إذًا، فلنغيّر الموضوع.

– استمعتُ إلى ريبورتاج مقزّز على الراديو. حول التربية المكثّفة للمواشي. يا لها من فضيحة مُخزِيَة.

– آه...

جلس في مقعده، وأسنَد ظهره.

– ما أصعب العثور على السلام الداخليّ حين نعيش في عالم أنانيّ وعنيف وعلينا أن نقاومه في استمرار. جلست على حافّة النافذة. نظرت إلى ابن أخيها، ثمّ إلى الأفق البعيد في الخارج.

– صحيح، قالت بعد هنيهة، وأنا أيضًا تحزنني أخبار كهذه.

كان نور النهار المخفوق بضباب الصباح يغمر وجهها بهالة رقيقة شاحبة كألوان ثوبها الحائلة. وتجاعيد وجهها الجميلة تُحاكي رهافة تشقّقات طلاء النافذة.

مع ذلك، واصلت مارجي:

– ألن يكون انتفاضنا ضدّ أمور لا يمكننا التحكّم فيها خير وصفة للاكتئاب؟

أصابت الملاحظة جوناثان في الصميم، كما لو أنّ مرآة عكست له حقيقة مُزعجة، مُغيظة.

نظر إلى عمته صامتًا. صحيح، كان يشعر بالعجز المُطلَق إزاء هذا النوع من الأوضاع، وكان ذلك يُضنيه في الصميم.

– يجب أن يثور أحدهم ضدّ انحرافات المجتمع. لا يمكن أن نبقى مكتوفي الأيدي، ونكتفي بالتأسّف على ما يحدث أمام عيوننا، ثمّ نواصل حياتنا الخاصّة، كأنّ شيئًا لم يكن.

رمقته مارجي بنظرة تعاطف.

– في ثلاثينيّات القرن الماضي، عمد أحد اللاهوتيّين البروتستانتيّين إلى تعميم صلاة من صميم الواقع. بعضهم يزعم أنّه استلهمها من مارك أوريل، وبعضهم الآخر يقول أنّها تعود إلى القدّيس فرنسيس الأسيزي، ولكن لا يهمّ.

– وماذا تقول؟

– أعطني يا ربّ الشجاعة لأغيّر ما يمكن تغييره، والهدوء والطمأنينة لأتقبّل في ما لا أقوى على تغييره، والحكمة لأتمكّن من التمييز بين الاثنين.

حدّق فيها جوناثان بضع لحظات.

– أمّا أنا فلا يمكنني أن أبقى متفرّجًا، لا أفعل شيئًا. في الحياة، يجب أن نرى الأمور تتطوّر نحو الأفضل، لا أن تتراجع إلى الأسوإ.

– أفهمُكَ بالطبع، ولكن ماذا تريد أن تفعل؟ وفي أيّ حال، ماذا تفعل الآن؟

رفع جوناثان رأسه لينظر إليها.

– أنا أقاوم ذلك كلّه. أفضحه وأندّد به قدر استطاعتي. أناضل...

صمت لحظةً، ثمّ استلقى إلى الخلف في مقعده، قبل أن يتابع:

– أحيانًا، أتساءل ما الفائدة من ذلك، في الحقيقة...

– لا فائدة منه على الأرجح.

– شكرًا، أنتِ ترفعين معنويّاتي.

أخذت مارجي نفسًا عميقًا.

– حين نناضل غالبًا ما نقوّي ما نناضل ضدّه.

عَقَدَ جوناثان حاجبَيه.

– ربّما وجدتَ أمثلة تناقض الأمر، لكنّه يبقى صحيحًا وعلى جميع الأصعدة تقريبًا.

– لستُ أفهم السبب حقًّا.

صبّت مارجي مزيدًا من القهوة: ساخنة، زكيّة الرائحة.

– ثمّة سبب جوهريّ لذلك، لكنّني أفضّل أن أجعلك تكتشف ذلك بنفسك، من خلال اختبار...

– اختبار؟

– يجب أن أنظّمه في مؤسّستي.

– ظننتكِ تقاعدتِ منذ عشر سنوات.

افترّت شفتاها عن ابتسامة بدلًا من إجابة.

– في الانتظار، يمكن أن أعطيك بعض الأمثلة أو الصور، إن أردتَ؛ على سبيل المثل، في مجال العلاقات، تصوّر الآتي: أحدهم يعبّر عن فكرة، وهي خاطئة تمامًا في نظركَ، لا بل صادمة.

– حسنًا.

– إذا عارضته وهاجمت فكرته، ماذا يحصل؟ ستغيظه، وترغمه بالتالي على الدفاع عن وجهة نظره، لئلّا يبدو سخيفًا أو غبيًا. الأمر الذي يجعله يتشبّث برأيه وموقفه، وعندئذٍ لن يستطيع تغيير رأيه. إذا عارضتَ فكرته، رسّختَها من دون أن تدري...

– صحيح، إن نظرنا إليه بهذا الشكل...

– في فرنسا القرن الثامن عشر، لطالما حارب الحُكم الملكيّ التابع للنظام القديم، فلاسفة التنوير بفرض الرقابة عليهم، فلم يفعل ذلك سوى تعزيز حركة هؤلاء، وقد آلت إلى ثورة 1789.

هزّ جوناثان رأسه موافقًا. واسترسلت مارجي:

– في روسيا، مطلع القرن العشرين، كانت شرطة القيصر تنكّل بالمعارضين، اشتراكيين كانوا أم ليبراليّين. لكنّ ذلك لم يفعل أكثر من تأجيج الاحتجاج الذي انتهى لمصلحة الشيوعيّين وثورتهم في العام 1917.

– لم أكن أعْلَم.

– لديّ مثل آخر أكثر إثباتًا، قالت مارجي وهي تقوم من مقعدها. لحظة، لا تتحرّك، أريد أن آتي بالأرقام.

– دَعْكِ من ذلك. لا تتعِبي نفسَك...

– بلى، بلى.

غادرت الغرفة، وعادت بعد دقائق معدودة، وبيدها ورقة.

– هل تذكر عندما أطلقت الإدارة الأميركيّة ما أسمته «الحرب ضدّ الإرهاب» في العام 2002؟ في ذلك العام تحديدًا، أحصت وزارة الخارجيّة الأميركيّة 198 عملًا إرهابيًا في العالم، خلّف 725 قتيلًا. بعد عشر سنوات من حرب لا هوادة فيها وعلى نطاق واسع، وبإمكانات هائلة من أسلحة وأموال، كشفت الإدارة الأميركيّة عن أرقام العام 2012: 6771 عمليّة إرهابيّة أودت بحياة 11 ألف شخص.

– الوضع مطمئن...

– وينطبق ذلك على صعيد الصحّة أيضًا. ربّما نتحدّث عن ذلك ذات يوم. لن أُلقي عليكَ محاضرةً في البيولوجيا اليوم!

– كلام جميل، لكن في المقابل لا يمكننا أن نتقبّل كلّ الأمور. فالنمط المشجّع على الفرديّة والاستهلاكيّة، والذي يجعل سائر الناس تعساء، قد استطاع الانتشار في الكوكب كلّه، وحتّى في الأصقاع الأكثر اختلافًا على الصعيد الثقافيّ. هيمنة كاملة. وهذا ما يجعلني أثور.

– تمامًا، ولأنّ النمط هذا بات مهيمنًا، فسوف ينهار من تلقاء نفسه. وهنا أيضًا، يميل التاريخ إلى إثبات صحّة ذلك على مرّ القرون. نجح

نابوليون في احتلال نصف القارة الأوروبيّة، أليس كذلك؟ ولكن عندما غادر السلطة، كانت مساحة فرنسا قد تقلّصت إلى أدنى ممّا كانت عليه عندما استولى على الحكم... فكّر مثلًا في الإمبراطوريّة الرومانيّة، الإمبراطوريّة المقدّسة، أو السلطنة العثمانيّة، الإمبراطوريّات الاستعماريّة، أو الاتّحاد السوفيتيّ... كلّ السلطات التي كانت لديها شهوة السيطرة، تفكّكت وانهارت.

لم يكن جوناثان مقتنعًا تمامًا، مع أنّ كلام مارجي كان يطمئنه. ألقى نظرة من خلال النافذة. كان الضباب بدأ ينقشع في بطء. أخذ فنجانه الساخن بكلتا يديه وارتشف منه رشفة. نكهة مركّزة، دافئة ومريحة. مع تغلغله في جنبات جسمه، راح الدفء يلطّف شيئًا فشيئًا من سَوْرَة غضبه. لكنّ صوت مارجي الرقيق انتشله فجأةً من ضباب أفكاره.

– صدّقني؛ لا جدوى من النضال، وكما قال لاوتزه منذ ألفين وخمسمئة سنة: «لئن توقد شمعة خير من أن تلعنَ العتمة».

– «توقد شمعة خير»، كرّر جوناثان بنبرة ارتياب، تاركًا نظره يسرح خارج النافذة.

كان القمر قد اختفى تمامًا. محاه ضياء السماء بعدما هجرها الضباب.

استأنفت مارجي بلهجة هادئة جدًا، تحاكي البراءة:

– ما نمقته لدى الآخرين هو أحيانًا ما لا نقبله لدى أنفسنا.

تلقّى جوناثان الضربة. على الرغم من مظهرها البشوش اللطيف لم تكن مارجي لترحمه في أقوالها. لقد كان مستعدًا لمراجعة نفسه، لكن صدقًا، لم يكن يفهم لماذا تحمّله مسؤوليّة مآسي المجتمع. حسنًا، ربّما لم يكن في كامل النزاهة في ممارسة مهنته، ولكن مَن مِن الناس كذلك؟ ما من إنسان كامل. أمّا هو فلا يرى عيوبًا لديه تستحقّ الملامة.

إذا كان جميع الناس غير نزهاء في مقداره هو، لكان العالم جثّة الله على الأرض.

انحنت مارجي صوبه، وفيما التمعت عيناها شبه ضاحكتين، همست له بنبرة مَن يبوح بسرّ حميم:

– ابحث عن البذرة الإلهيّة داخلكَ، بدل البحث عن حبّة شرّ في نفوس الآخرين.

حملق جوناثان فيها لحظات، مستاءً بعض الشيء.

– «البذرة الإلهيّة داخلي»؟ ظننتُ أنّ ما يقبع في أعماقنا هو الخطيئة...

– لعلّ ما تقوله هو أسوأ المعتقدات التي عرفتها البشريّة. نظرًا إلى مقدار الدمار الذي ألحقته هذه الفكرة بالنفوس... وما زلنا نتكبّد العواقب حتّى اليوم...

– لكنّ آدم وحوّاء ارتكبا المعصية، أجابها جوناثان مع ابتسامة ساخرة...

بادلته مارجي الابتسامة.

– تُريد رأيي؟ إن كان الله موجودًا لشاء أن تأكل حوّاء تلك التفّاحة!

– يقول الكتاب المقدّس أنّه حرّم عليها أكلها...

– أجل، وذلك ليحرّضها على أكلها! في تمرّدها هذا، أنجزت حوّاء أوّل فعل تحرّر. لم تكن خطيئة أصليّة، بل حرّية أصليّة!

– لعلّك بهذا تغالين قليلًا...

تظاهرت مارجي بأنّها أحسّت بالإهانة.

– وكيف لمؤمن أن يتصوّر لحظة واحدة أنّ الله ليس قادرًا على خلق كائن كامل ينفّذ مشيئته في حذافيرها؟ لو شاء أن تطيعه حوّاء، لأطاعته. لا، على العكس، صدّقني: الله شاء للإنسان أن يكون حرًّا!

عليه، تناولت قارورة المشروب وأفرغت منها بضع قطرات في فنجان قهوتها. نظر جوناثان إليها. هي حقًّا شخصيّة استثنائيّة. كان يحسدها على تفاؤلها الدائم والمنيع.

– هكذا إذًا... لديّ بذرة إلهيّة في أعماق ذاتي... وماذا أفعل لكي... أجدها؟

بادرته بأجمل ما تملك من ابتسامة:

– احزر.

– قولي لي...

– أجبتك عن سؤالك هذا من قبل.

– آه... ستقولين مجدّدًا: «ابحث في داخلك»، أليس كذلك؟

– أنت تتعلّم بسرعة.

– لكنّ هذا لا يدلّني على الوسيلة. ثمّ ما معنى «البذرة الإلهيّة داخلي»؟

وجّهت مارجي إليه نظرة متوهّجة، ملؤها الطيبة.

– البحث عن البذرة الإلهيّة يعني الانتقال إلى مستوى وعي أعلى.

– مهلًا... هذا خياليّ، لا محسوس ولا ملموس، عليكِ الاعتراف.

– سيأتي يوم تفهم فيه الأمر كاملًا.

– هممم...

– وهذا اليوم أكثر قربًا ممّا تتصوّر.

– و... بمَ ينفعني أن أنتقل إلى ذلك المستوى من الوعي، كما تقولين؟

– هل تذكر ما قلناه عندما تحدّثنا البارحة عن الخطيئة؟ كنّا نقول أنّ بعض الأمور، وبعد اكتفاء عابر، إنّما يخلّف فينا فراغًا كبيرًا، وفي النهاية، يشدّنا أكثر نحو الأسفل.

– نعم.

– حسنًا، أمّا في هذه الحالة، فالعكس هو الصحيح: عندما نتجاوز مرحلة البحث عن الملذات، عندما تأتمر أعمالنا وأقوالنا بما تهمسه لنا ضمائرنا لا رغباتنا في الاستحصال على فائدة شخصيّة منها وحسب، سوف نشعر بأنّنا محمولون على أجنحة قوّة... أسمى منّا. قد يحصل هذا أيضًا عندما نجد رسالتنا في الحياة، وما نحقّق فيه ذواتنا، ولو كان خارج إطار العمل. عندئذٍ، نكتشف أنّ ذلك يتجاوز أشواطًا وأشواطًا، كلّ ما قد يجلبه تحقيق رغباتنا من فرح عابر.

– رسالتنا... أصبحتِ من المتصوّفين الآن.

ابتسمت العمّة.

– أميل إلى الاعتقاد بأنّ كلًّا منّا له قدره الخاصّ، بالفعل، ولمؤسف أن نفوّته أو نمرّ به مرور الكِرام.

استرسل جوناثان في الضحك.

– وتعتقدين حقًّا أنّ هناك سبعة مليارات إله خالق الدنيا الفانية...

– لم أقُل أنّها رسالة عظمى، فقد تكون متواضعة وبسيطة جدًّا. لكنّ الأمور التي تبدو عاديّة أو حتّى تافهة في الظاهر، قد تكون هي الأهمّ في هذه الحياة. نميل إلى الاعتقاد بأنّ كبار الزعماء والقادة هم الذين حدّدوا مجرى التاريخ. وهذا ليس صحيحًا تمامًا. فكلٌّ منّا بأفعاله وأقواله وحالته الذهنيّة ومشاعره وانفعالاته يؤثّر في محيطه. ومن ثمّ ينتشر التأثير هذا كما تنتشر الدوائر المائجة على سطح الماء. لا محالة. ولا مناص. ما من شيء حياديّ. ففي النهاية، لكلّ منّا تأثيره ووقعه في العالم. ومتى وجدنا رسالتنا، يكُن لنا دور نؤدّيه، دور تفيد منه الإنسانيّة والكائنات الحيّة، والكون بأسره.

– دور نؤدّيه...

– لذا، لكلّ منّا مواهبه الخاصّة به وحده، ولو ظلّت دفينة لدى معظم الناس، فهي تتوق إلى أن تبصر النور، لتنمو وتُصقَل. في أيّ حال، أن نكتشف مواهبنا خير وسيلة لفهم رسالتنا.

عبس جوناثان.

– إذًا، لا بدّ أنّها مخفيّة تمامًا عندي.

صبّ مزيدًا من القهوة.

– يظنّ الناس في معظمهم أنّ من واجبهم أن يعملوا ما اعتادوا أن يعملوه على الدوام، وإن لم يساعدهم على التفتّح والنجاح. يرفضون الإصغاء إلى رغباتهم العميقة، مقتنعين بأنّها لن تعود عليهم بأيّ نفع. في حين أنّ العكس هو الصحيح. رغباتنا العميقة، لا السطحيّة التي يستثيرها المجتمع، هي الخيوط التي علينا تتبعها لكي نسير قدمًا على درب رسالتنا.

– خيوط؟

– نعم، هي أرواحنا تومئ لنا من خلال تلك الرغبات، بغية إرشادنا إلى طريقنا. وَشوَشة خافتة من القدر...

ارتشفت بعض الرشفات، قبل أن تواصل:

– يتجلّى طريقنا متى تبدّدت أوهامنا، التي لطالما خدعتنا وتخدعنا لكي نُضلّ وجهة سيرنا، ومتى استيقظ وعيُنا وضمائرنا. أوتعلم؟ ما يثير العجب في هذه الحياة هو أنّ كلّ ما يحدث لنا، سلبًا أو إيجابًا، في السرّاء أو الضرّاء، إنّما يخدم سرّيًا هدفًا واحدًا: إيقاظ وعينا، فبالوعي وحده نصبح ذواتنا، بملئها.

تنفّس جوناثان عميقًا. عبر النافذة نصف المفتوحة، كان نسيم البحر يتسلّل إليه، حاملًا في طريقه عطور الأشجار والأجمات وأزهار الحديقة.

– لصعب عليّ أن أكتشف رغباتي الدفينة، كما تقولين... فبعد محادثتنا الأخيرة، أمضيتُ وقتًا طويلًا أفكّر في ما يمكن أن يتجاوز رغباتي. لقد نقّبتُ مرارًا وتكرارًا في تلافيف عقلي، من دون جدوى.

بادرته مارجي بابتسامة ودود.

– اصغِ إلى قلبك لا إلى عقلك.

ضحك جوناثان، وقال:

– «اصغِ إلى قلبك»... لمستغرب أن أسمع هذه العبارة الشعبيّة الخالية من أيّ معنى، على لسان عالمة بيولوجيا.

– أعرف أنّ العبارات الشعبيّة موضع استهزاء رجال الفكر. لكنّ هؤلاء على خطإ! غالبًا ما يكون الشعب أكثر حكمةً من نخبة مثقّفيه الذين يخالون أنفسهم أرفع من العالم أجمع.

– ربّما. ولكن في هذه الحالة... أن يستمع الإنسان إلى قلبه لا يعني شيئًا، عليكِ الاعتراف.

– حاشا وكلّا، القلب هو الذي يقرّر. في مجتمعنا هذا، لطالما أقنعنا أنفسنا بأنّ كلّ شيء يدور في الرأس، حتّى أنّنا انقطعنا عن باقي أجسامنا. لا نثمّن إلّا الدماغ، وذلك كلّه لأنّه يحتوي على العصبيات. هذا سخفٌ وبُطلان! وتحديدًا لأنّ القلب يؤوي عصبيات أيضًا، مع أنّ لا أحد يأتي على ذكرها. وأمعاؤنا تحوي منها أيضًا، وإضافة...

– هل تمزحين؟

– في قلبك، حوالى أربعين ألف عصبية وفي أمعائك خمسمئة مليون. وفي كلّ من القلب والأمعاء جهاز عصبيّ مستقلّ ومتطوّر جدًّا.

– عجبًا!

– القرارات الصائبة تأتي من القلب، أو من الأحشاء، لا من الرأس. في مصر القديمة، فهموا المسألة جيّدًا.

– آه... ابحثوا عن عالمة الأركيولوجيا خلف عالمة البيولوجيا...

– كان المصريّون يستخرجون أحشاء الفرعون كلّها قبل أن يحنّطوه. لكنّهم لا يحتفظون إلّا بالجزء المهمّ منها: يحفظونه في جرار فاخرة، مخصّصة لتُدفَن مع المومياء. وتلك كانت حالة القلب والأمعاء على وجه التحديد.

استراحت قليلًا، قبل أن تُكمل:

– أمّا الدماغ فكانوا يرمونه في سلّة مهملات.

11

ضبط ريان كاميرته مركّزًا عدستها على غاري، كان جالسًا على مقعده البلاستيك العتيق الأبيض الذي استحال مصفرًا من الشمس. عاقد الحاجبين، كان يفضّ مغلّفات رسائله. أمّا أولاده فكانوا يطاردون الكُرة قربه.

انتظر ريان بفارغ الصبر. لقد تأخّر هزُّ الكتفين. فجأةً، تراجع غاري إلى الوراء، وهو يضيّق عينيه بعض الشيء، بينما يُحملق في يده. قرّب ريان العدسة؛ بضع قطرات من الدم كانت تسيل من طرف إصبع غاري. الغبيّ. جرح إصبعَه وهو يفضّ رسائله.

– كفّوا عن هذه الحماقات! صاح غاري في وجه الأولاد.

في سرعة البرق، انتقل ريان إلى لقطة عريضة شاملة. تبًا، لقد فاته مشهد الأولاد وهم يرمون الكرة في حوض الزهور.

– أأنتم أغبياء أم ماذا؟ صرخ غاري غاضبًا، وقد تحوّل وجهه أحمر قانيًا. كم مرّة نبّهتكم إلى ألّا تمسّوا الزهور؟ ما بالكم؟ هل أدمغتكم أدمغة دجاج؟

جمد الأولاد بضع لحظات، مرتبكين مذعورين، ثمّ التقطوا كُرتهم وقفلوا عائدين إلى المنزل.

هزّ غاري رأسه، ثمّ بسط الرسالة المفتوحة، وراح يمصّ إصبعه المجروح.

قرّب ريان العدسة من جديد.

عقد غاري حاجبيه، فيما انحنى رأسه يميل من اليسار إلى اليمين على إيقاع قراءته سطور الرسالة.

خلف الكاميرا، لم يتمالك ريان نفسه عن الابتسام، ثمّ بعد طول انتظار، وأخيرًا جاء هزّ الكتفين الموعود. قهقه ريان ساخرًا. قهقهة ماكرة قاسية. لقطة «بوست» اليوم باتت مضمونة.

* * *

كانت حبال الأشرعة تصطفق في صخب مَرِح على صواري المراكب الشراعيّة يتلاعب فيها نسيم لطيف مُشبع بعطور بحريّة تتخلّلها لفحات باردة منعشة تحت أشعّة شمس ما بعد الظهر.

«ابحث عن البذرة الإلهيّة داخلك.»

ما أسهل القول... مضت ساعتان وجوناثان جالسٌ على ترّاس المقهى في ميناء مونتيري، يبحث عن ضالّته في ثنايا ذاته، يجهد وينقّب. لا شيء.

بين الحين والآخر، كان نظره يسرح مع المُشاة، وسمعه يلتقط نتفًا من حديثهم، وهم يمرّون به. بشرٌ مثله، بالتأكيد، إنّما مع فارق شاسع: كانوا يبدون مرتاحي البال أو غير مبالين، أمّا هو فلم يعُد مثلهم. «لن تُكمِل السنة». ما زال صوت الغجريّة الثانية، قاسيًا جائرًا، يدور في فكره.

نظر إلى عرض البحر، آملًا بطرد طيف القلق والضيق الذي عاوده. لم يشأ أن يُغرقه الاكتئاب مُجدّدًا، أن يقع مرّة أخرى في هذا السبات الخامل الذي لا يمكن الخروج منه إلّا بجهد جبّار، تمامًا كالحشرة المحبوسة في جرّة زجاجيّة ملساء: مع كلّ محاولة هروب، تنزلق نزولًا فتهوي إلى القاع.

«ابحث في داخلك.»

ما أصعب النظر إلى الداخل، حين نخشى ألّا نجد فيه سوى القلق والجزع.

داخل المقهى، كان التلفاز المعلّق على الجدار يبثّ مشاهد مذهلة لغابةٍ شاسعة صُوِّرَت من على متن الطوّافة. تناهى صوت المُراسل ضعيفًا، خافتًا، إلى مسامع جوناثان.

«غابات الأمازون، كان يقول، تتعرّض للإبادة وذلك في وتيرة مخيفة: ألف وستمئة هكتار كلّ يوم، أي ما يعادل ألفًا وخمسمئة ملعب لكرة القدم».

ثمّ انتقلت الصورة إلى هنديّ عجوز يقف عند مدخل متحف التاريخ الطبيعيّ في سان فرانسيسكو، حيث يُقام في هذه اللحظات – بحسب ما ذكرت المُراسلة الصحافيّة – معرض مشوّق عن غابة الأمازون. جديلة شعره منسدلةٌ على ظهره، وعلى وجهه ملامح صفاء يشوبها بعض الحزن، ظهر الهنديّ كأنّه في وضعيّة استسلام هادئ.

ندّت عن جوناثان تنهيدة طويلة. كيف يمكن الإنسان أن يكون سعيدًا، والعالم حوله بائس إلى هذا الحدّ؟ كيف له أن يجد داخله القدرة على الاستمرار والمقاومة، في حين أنّ الشرّ يكتسح الأرض؟ لا جدوى من النضال، كما قالت العمّة مارجي.

كان صوتُ الهنديّ العجوز هادئًا رزينًا. على الرغم من خطورة ما يقول، لم يكن يشي بحقد ولا بعدوانيّة.

كان يقول: «متى قطعتُم آخر شجرة، واصطدتُم آخر سمكة، فستكتشفون أنّ المال لا يؤكَل.»

12

– مدّ إصبعكَ، من فضلك.

– عفوًا؟

– سبّابتكَ، لو سمحتَ.

مدّ جوناثان يده نحو الشابّة التي كانت ترتدي رداءً أبيض. في رفق وعناية، وضعت حول سبّابته حلقة ليّنة عريضة شبيهة بإصبع كفّ من الألومنيوم المبطّن، يمتدّ منها سلك كهربائيّ طويل ودقيق، موصول بكمبيوتر على طاولة، يبعد بضعة أمتار. خلفها على الجدار كانت شاشة عملاقة.

– ها أنتَ الآن موصول، قالت له.

كان صوتها ناعمًا ومبتسمًا، لكنّ جوناثان لمس فيه بعض التحفّظ. صوت يدلّ على مناقبية في العمل ليس إلّا.

قبعت وراء مكتبها، وبدأت تطبع على لوحة الكمبيوتر.

ألقى جوناثان نظرة على الأشخاص الثلاثة الجالسين إلى جانبه على كراسٍ صُفّت في شكل نصف دائرة: امرأة في الثلاثين أو الخامسة والثلاثين من العمر، سمراء شعرها مقصوص قصيرًا ومتساويًا، وقد بدت حريصة على تفادي نظرات الآخرين. وامرأة أخرى تناهز الستّين، باسمة جدًّا وذات بشرة متورِّدة وشعر أشقر منتفخ يفوح منه عطر سبراي الشعر، وكانت عند دخولها ألقت التحيّة الحارّة على

كلّ الحضور في الصالة. وأخيرًا، شابٌ يبدو طالبًا، منفوش الشعر، لحيته طويلة، راح نظرُه يغوص بين الفينة والأخرى في تقويرة العاملة المخبريّة. مع الإشارة إلى أنّ ياقة لباسها الأبيض بقيت مفتوحة ما يكفي لتكشف محاسنها.

كانت الصالة الواسعة نوعًا ما، بجدرانها البيضاء وديكورها البسيط المجرّد، وعلى الرغم من طابعها الصارم، مغمورة بضياء شفّاف دافئ. كانت مؤسسة العمّة مارجي قابعة في زاوية نائية من ضواحي مونتيري. عمارة بسيطة، وحيدة وسط الأشجار في منطقةٍ قليلة السكّان.

– المنحنى الذي تشاهده على الشاشة يمثّل قدرة بشرتك على النقل والتوصيل، مع تقلّباتها في الوقت الحقيقيّ.

لم يكن المنحنى المذكور أفقيًا تمامًا، بل يتأرجح ببطء وضآلة، لكن بصورة غير منتظمة. كان بعيدًا من المنحنى الصحيح والدقيق لمخطّط كهرباء القلب.

– قدرة النقل والتوصيل تتطوّر وفقًا لدرجة رطوبة الجلد، أي في اختصار، وفقًا للتعرّق. هو الجهاز العصبيّ الذي يتحكّم في غدد التعرّق، تمامًا مثل الضغط الشراييني، أو أيضًا نظم القلب.

– حسنًا.

– إذًا، لحالتك الداخليّة، وانفعالاتك، وتوتّرك، تأثير في تلك العناصر الفيزيولوجيّة، والتي يمكن أن تتغيّر بين لحظة وأخرى.

– فهمتُ.

ثمّ أوصلت العاملة الشابّة سبّابات المشاركين الآخرين.

بدأت الشاشة العملاقة تُظهر الآن أربعة منحنيات مختلفة الألوان، يتحرّك كلّ منها في معزل من الآخر. كان منحنى جوناثان أزرق اللون. أمّا منحنى الشابّة السمراء، فأصفر زاهيًا، والأكثر تسطيحًا بين الأربعة. كان منحنى الشابّ أخضر اللون، يتأرجح على نحوٍ معتدل. أمّا أحمر

اللون، والعائد إلى السيّدة الستينيّة، فتشوبه تقلّبات عشوائيّة وأكثر بروزًا منها تقلّبات المنحنيات الأخرى، وتقطّعها بشكل منتظم.

– كما تلاحظون، قالت العاملة، يختلف أحدنا عن الآخر، ولكلّ منّا فيزيولوجيا خاصّة به، وتختلف ردود الفعل من شخص إلى آخر، تجاه الظرف عينه أو الحالة عينها.

تراجعت بضع خطوات.

– والآن، سأجعلكم تفكّرون في أمور عدّة. بدايةً، تذكّروا آخر مرّة عانيتم فيها توتّرًا شديدًا...

حلّق المنحنى الأحمر على الفور.

أغمض جوناثان عينيه. ظهرت أمامه صورة الغجريّة. نظر إلى الشاشة. رأى منحناه الأزرق يصعد كالسهم. أمّا منحنى الشابّ فبالكاد تحرّك، فيما بقي الأصفر مسطّحًا كما كان.

اقتربت العاملة من المشاركين، وتوجّهت إلى الشابّة السمراء، قائلةً:

– ألا تذكرين أيّ توتّر شديد؟

ردّت عليها الشابّة بابتسامة صغيرة غامضة، وبقي المنحنى مسطّحًا، على حاله.

خطت العاملة خطوةً نحو الشابّ.

– ألم تأتِ الحياة الطالبيّة بكثير من الانفعالات في الآونة الأخيرة؟ سألته وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة ممازحة.

في هذه اللحظة تحديدًا، سقط القلم من يدها. انحنت لالتقاطه، فزاد انكشاف تقويرتها.

ارتفع المنحنى الأخضر كالصاروخ، فيما تورّد وجه الشابّ خجلًا. حسّاسة للغاية، تلك الآلة. كبت جوناثان ابتسامة. هل كان سقوط القلم متعمّدًا؟

نظرت المرأة السمراء إلى ساعة يدها. وتساءل جوناثان كم يتقاضى المتطوّعون لقاء هذا النوع من التجارب.

– سنقوم الآن بتمرين استرخاء، قالت العاملة. اجلسوا بشكل يُريحكم.

سوّى المشاركون جلساتهم.

– أدعوكم الآن إلى أخذ نفَس عميق، في بطء وهدوء... نعم هكذا... ثمّ في تباطؤ أكثر فأكثر... نعم... نعم، هكذا... ومع كلّ زفير تدَعون أجسامكم تسترخي أكثر، فأكثر، فأكثر...

ترك جوناثان نظره يستقرّ على الشاشة. أخذت جميع المنحنيات تهبط ببطء، الأحمر أكثر من الأخرى، والأصفر أقلّ. ثمّ التقى منحنى جوناثان ومنحنى الشابّ، وسرعان ما تقاطعا في الاتّجاه الآخر.

راح صوت العاملة يرشدهم إلى حالات مختلفة، استرخاء أو تشنّج، إيجابيّة مُريحة أو سلبيّة موتّرة، وبدا كلّ من المنحنيات يواصل مساره، من دون اهتمام بالمنحنيات الأخرى.

ثمّ دعَت العاملة الشابّة الجميع إلى أن ينظروا في عيون بعضهم بعضًا، ففعلوا، منقّلين أنظارهم من واحد إلى آخر. حتّى المرأة السمراء شاركت في التمرين، وأحسّ جوناثان بأنّها باتت أقلّ جمودًا.

– انظروا في عيون بعضكم بعضًا... بكلّ تعاطف، قالت العاملة بصوتها الهادئ المشجّع وحاولوا أن تُدركوا وتتبيّنوا ما يجمعكم سويًا ويربط بينكم...

جعلهم الاختبار يبتسمون، في خجل وتحفّظ في البداية، ثمّ ما لبثت الابتسامة أن تحوّلت طبيعيّة عفويّة.

من غير المعتاد أن ينظر الواحد «حقًا»، في عينَي الآخر. غالبًا ما كان جوناثان يتفادى النظر إلى الناس في عيونهم، أو يفعل في صورة سريعة خاطفة، وفي النهاية كان ينظر إليهم من دون أن يراهُم، ماسحًا المكان بنظره وهو يفكّر في أمرٍ آخر، أو يركّز على حديثه الخاصّ. أمّا

الآن، فهو ينظر إلى هؤلاء في عيونهم، ولا نيّة لديه في النظر إليهم، هُم شخصيًا، وهُم فحسب. وذلك بمثابة اكتشاف جزء من خصوصيّاتهم، كأنّه يلمح حياتهم الشخصيّة، ويميّز هويّاتهم. نعم، هكذا بالضبط، فقد انتابه شعورٌ مُربِك بأنّه يرى هؤلاء على حقيقتهم. لم يعودوا غرباء كما عشرات الناس الذين نصادفهم كلّ يوم، في أماكن العمل، أو خلال التسوُّق، من دون أن نبالي بهم.

في الشاشة، تقاربت المنحنيات على نحوٍ مدهش، كأنّها تلتقي معًا. أمر لا يُصدَّق. لكن كيف؟ كيف لتواصل بصريّ بسيط بين الأشخاص أن يولّد هذا التقارب بين فيزيولوجيّات مختلفة؟ في تلك اللحظة، تراقص منحناه الأزرق كاللولب، فاضحًا ذهوله. ابتسم وقرّر مواصلة اللعبة، مركّزًا انتباهه من جديد على الأشخاص حوله، مشاركًا إيّاهم لحظة الاندماج التامّ.

اتّحاد عميق يكاد يكون مقدّسًا.

بعد مضيّ لحظات، نظر خلسةً إلى الشاشة: لقد التقت المُنحنيات وتطابقت تمامًا، وشكّلت منحنًى واحدًا.

13

– أوستن فيشر، لقد فزتَ وفي سهولة فائقة في الجولة الثانية من بطولة فلاشنغ ميدوز. فما شعورك اليوم، مباشرةً قبل خوض جولتك المقبلة؟

ابتسم أوستن. لطالما أراد الصحافيّون معرفة ما يدور في قرارة نفسه.

– لسنا سوى في البداية، ولم يُحسَم شيء بعد. لا بدّ من الحفاظ على اليقظة والتركيز.

– معلوم أنّ هذا الملعب لا يناسبك. ومع ذلك، إذا فزتَ في هذه البطولة، فستدخل سجلّ الأرقام القياسيّة، مسجّلًا أكبر عدد من الانتصارات في الـ«جراند سلام». هل تشعر بالتوتّر بسبب ذلك؟

– أحافظ على هدوئي وبرود أعصابي. فالفوز في البطولة إنّما يكون في مباراة تلو أخرى.

بدت المُراسلة محبطة بعض الشيء. طبعًا، فقد كانت تتمنّى أن يجلس في كرسيّ الاعتراف ويُفضي بكامل أسراره.

– كيف تفسّر التفاوت الكبير بين فوزك الباهر وبين صورتك لدى الجمهور، بوصفك لاعبًا... فلنقُل... غير محبوب؟

«غير محبوب.» إنها تنوي جعله يدفع ثمن تحفّظه. كابَد ليحافظ على ابتسامته العريضة.

– لا أهتمّ بأمور كهذه. أنا لاعب كرة مضرب ليس إلّا، وذلك يشغلني ما يكفي...

– ثمّة من ينعتك بالبارد، الذي لا يبالي بالآخرين. هل تعتقد أنّ هناك محور تقدّم لك في علاقتك مع مُعجَبيك؟

تمالك أوستن أعصابه ليبقي على ابتسامته.

«لا يبالي.» آه لو تعلمين كم عانيتُ وكم أعاني من هذه النميمة والقيل والقال. إذا كنّا لا نكشف معاناتنا فهذا لا يعني أنّنا فقدنا كلّ إحساس.

– أنا لا أستمع إلى الشائعات. بل أعمل، وأعمل كثيرًا، وأركّز على الهدف الذي أصبو إليه.

ألقى أوستن نظرةً عن يساره إلى وارين، مدرّبه، الجالس على بعد أمتار منه. أغمض وارين عينيه ثمّ أعاد فتحهما، دليلًا على موافقته.

عاد أوستن إلى حجرة الملابس، يتبعه وارين واثنان أو ثلاثة من المصوّرين.

كلّما تلقّى أوستن هذا النوع من الانتقادات الجارحة، كلّما ذُكّرَ بعدم حبّ الجمهور له، استيقظ فيه شعور يتغلغل في كلّ أنحائه، شعور محدّد، مألوف، ظهر أوّل مرّة في طفولته، عندما قرأ في وجه أبيه أمارات الاحتقار تجاهه. كما لو أنّ خيوطًا غير مرئيّة تعيد ربطه بذلك الماضي الأليم الذي يحاول جاهدًا أن يطرده، لكنّه لا ينفكّ يثور مجدّدًا حالما تصادفه ملاحظات غادرة وتعليقات خبيثة. فيقتحم ماضيه حاضره، من دون استئذان.

رفض أن يلتقط المصوّرون صورًا له. وانغلقت أبواب الحجرة خلفه.

عندذاك، غزت كيانه تلك الطاقة الفيّاضة، ذلك الغضب الشرس، تلك الحاجة الماسّة إلى المحاربة والانتصار.

– متى نبدأ؟ سأل.

– بعد أربع دقائق، أجابه وارين.
– ممتاز، قال أوستن.
سيكافح حتّى آخر ذرّة قوّة وطاقة، وسينتزع بطولة الدورة. ومتى سجّل الرقم القياسيّ، سيراه العالم بمنظار آخر. لا محالة.

* * *

بيغ سور.
تلال خضراء. معزوفة الريح بين الدغل. أشجار سيكويا شاهقة بجذوعها الحمراء، وإبرها الداكنة، أريج صنوبريّات. لمحات سريعة من البحر...
مضى أكثر من ساعة وجوناثان يمشي. عندما غادر المؤسسة، أحسّ بنداء الطبيعة. لم يقوَ على الرجوع إلى المنزل كأنّ شيئًا لم يكن. يجب عليه أن يمشي، وحيدًا، أن يستجمع أفكاره.
عندما نمشي يتباطأ الوقت. ثقافة العجلة والسرعة وردّ الفعل الأسرع التي تُغرقنا، تجعلنا غير حاضرين في شيء وغير آبهين بشيء. عندما نمشي نعاود الغوص في زمن الطبيعة، وفق عقارب الكون وساعة فضائه. زمن الحياة. نعيد التواصل مع ذواتنا.
كان الجوّ عذبًا أواخر عصر ذلك اليوم الجميل. وأحسّ جوناثان بنفسه خفيفًا مرتاحًا. فقد استعاد شعور الامتنان، الذي ذاق طعمه في نزهاته السابقة. امتنان للحياة، لجمال العالم، لعطر النسيم، وللنور الخلّاب حين تهبط الشمس رويدًا رويدًا، تمهيدًا للانحناءة الأخيرة.
بدت همومه السابقة بعيدة جدًّا، تمامًا كما بعُدت رغباته العتيقة التي لم تُشبَع بعد، وإحساسه بالنقص، وإحباطاته. فاليوم، لا أهمّية إلّا للحسّ بالحياة، بعيش الحياة. لكن حتّى متى؟ لا يدري، لكنّه ما زال حيًّا يُرزَق، الأمر الذي يشعره بامتنان وشكران لا حدّ لهما.

ظهر في السماء نسرٌ فتتبّع جوناثان مطوّلًا طيرانه الصامت، إلى أن اختفى وراء التلال.

«وإنّما البشر مربوطون الواحد بالآخر.»

راح الاكتشاف هذا يدور ويدور في ذهنه بلا انقطاع. نحن مختلفون كما قالت عاملة المختبر، ومع ذلك، ثمّة ما يربط الواحد بالآخر. خيط خفيّ إنّما موجود وحاضر متى استدعيناه، متى فعلناه...

بعد انتهاء الاختبار، كان جوناثان قد آثر البقاء لتبادل الحديث معها. وقد أسرّت إليه بأنّ النساء ربّما يختبرنَ شكلًا آخر من الظواهر الفيزيولوجيّة يُجسّد هذا الرابط الذي يجمع بيننا. عندما يعشنَ معًا، ضمن جماعة معيّنة مثلًا، يشهد جميعهنّ، بعد أشهر معدودة، تَطابُقًا في دورة الحيض الشهريّة: تأتي دورتهنّ الشهريّة في موعد واحد موحّد.

عاود النسر الظهور فوق فرجة جبليّة، وانساب محلّقًا في اتّجاه المحيط.

«وإنّما البشر مربوطون الواحد بالآخر.»

حتّى اللحظة، كان جوناثان يرى نفسه وحيدًا في العالم، يجالد ويجاهد في زاويته للخروج من مآزقه. يُجالد... يكافح ويناضل في استمرار.

أمّا الاختبار الذي عاشه فقد جعله يُدرك أمرًا عظيمًا، وجوهريًّا، يُعيد طرح كلّ شيء على بساط البحث من جديد: منافسته مايكلَ، الازدواجيّة في علاقاته مع الزبائن الذين كان يغدق عليهم خدمات عديمة الجدوى، علاقاته الصراعيّة مع أنجيلا... كلُّ نظام حياته وعيشه قد ارتكز حتّى اليوم على خطإ، على رؤية خاطئة للحياة. بدأ وعيه يصرخ الآن، قارعًا أصداءه في عمق أعماق نفسه: بما أنّنا جميعًا مربوطون الواحد بالآخر، ففي نضالنا ضدّ الآخرين، إنّما نناضل ضدّ أنفسنا.

14

دخل مايكل المبنى، وضغط جرس الفيديوفون، باسمًا حتى بانت نواجذه في الشاشة.

اهتزّ اللسان الكهربائيّ في صرير حادّ. دفع الباب، اجتاز البهو ودخل المصعد.

بلغ الطابق الأخير.

بقي الجرس صامتًا عندما ضغطه، فطرق بضع طرقات قصيرة. وما هي إلّا لحظات حتّى انفتح الباب، وبان وجه سامنتا.

– كيف حالكِ؟ سألها مع ابتسامة عريضة.

رمته المرأة الشابّة بنظرة جامدة، ثمّ ألقت نظرة سريعة حوله، وأفسحت له المجال بعدما استدارت عائدةً إلى الداخل.

دفع مايكل الباب، ودخل الردهة. تبِع سامنتا إلى الصالون، قاعة واسعة يغمرها ضوء أبيض. من خلال النوافذ الزجاجيّة العريضة، بدت مباني سان فرانسيسكو تطفو وسط الضباب، ضباب على أهبة الاستعداد لابتلاعها.

جلست الشابّة على مسند ذراع الكنبة، شابكةً ساقًا بساق. كانت ترتدي تنّورة قصيرة وبلوزة بيضاء. «مزرّرة حتّى الياقة، للأسف.»

– أحتاج إلى خدماتك، قال مايكل.

حدّقت في عينَيه، من دون أن تنطق بكلمة.

– عشاء في المدينة مع زبون محتمل. «وما بعد العشاء أيضًا» في حال انجذب الواحد إلى الآخر.

نظرت في عينيه، من دون أيّ تعبير.

– مَن هو؟

– تريدين معرفة كلّ شيء على الدوام. وماذا سيتغيّر في الأمر؟

– أريد أن أعرف مَن هو.

خطا مايكل بضع خطوات على امتداد النافذة العريضة.

– رئيس تجمُّع من صغار التجّار. بالنسبة إليّ، هو صيد ثمين.

– متزوّج؟

هزّ مايكل رأسه.

– أم إنّه هو نفسه قد نسي إذا كان متزوّجًا، قال ضاحكًا.

اقترب من ورائها ليُداعبها.

دفعته عنها بحركة فظّة.

احتجّ قائلًا:

– لا ضير في ذلك.

– لستُ مقهًى ولا مطعمًا للخدمة الذاتيّة.

– يمكنني الحصول على بعض الامتيازات، من حين إلى آخر... أولستُ زبونًا جيّدًا؟

– بالضبط. تعرف الأسعار.

– كما أقول دائمًا لشريكيّ: الزبون جدير بالاحترام.

– وكذلك المُزوِّد بالخدمات.

– أنا سخيّ مع زبائني. وأعتني بهم...

– لكلٍّ سياسته في التجارة.

أفلتت من مايكل قهقهة صادقة.

– وما هو البرنامج؟ سألَت في ارتياب.

– قلتُ لكِ، عشاء، ثمّ الباقي حيثما تشائين.

– ما من خديعة، لا؟
– بالطبع لا...
– كأن أرتدي زيّ فتاة لَعوب لأؤدّي دور حاضنة أطفال، فتُفاجئني ربّة المنزل التي تُصاب بسكتة...
ابتسم مايكل، ووضع يده على كتفها.
– وعد شرف. والآن، أريني محاسنكِ...

15

– ما أجمل مرجتكِ، رائعة!

– حقًّا؟!

اجتاز جوناثان ومارجي حديقة المنزل، ومشيا نزولًا صوب البحر.

كان الهواء مُنعشًا، مع أنّ الشمس اعتلت قبّة السماء. وكان الجوّ عابقًا بعطور زهر العسل وأريج العشب المجزوز حديثًا.

– أمّا حديقتي فقد غزاها النفل. حاولتُ بشتى الوسائل. لا جدوى. لذا، أقتلعه كلّ مرّة بيدي. ومع ذلك، يعاود الغزو. أليس لديك من نصيحة في هذا الخصوص؟

استرسلت مارجي في الضحك.

– أنت تُضحكُني حقًّا.

توقّف جوناثان.

– لن أدعَ النفل يجتاح حديقتي، وأنا أتفرّج مكتوف اليدين.

تابعت مارجي المشي باسمةً.

– لماذا؟

لحق بها جوناثان، قائلًا:

– لماذا؟ لكن... ذلك أمر بدهي، لا؟

– لا.

كانت مارجي تهوى التلاعب بالأحكام المسبقة، حتى أنّها مستعدّةٌ لتأدية دور المغفّلة فحسب لكي تستمتع برؤية مُخاطبيها يعيدون النظر في أفكارهم.

– مظهره بشع، ويُسيء إلى جماليّة المرجة وتناغمها. الجميع يعرف ذلك.

– الجميع؟ ولكن أنتَ، كيف تعرف ذلك؟

– كيف أعرف ذلك؟ كيف أعرف أنّ النفل بشع؟ أعرف ذلك وحسب. هذا موضوع غير قابل للنقاش، إنّه ذوقي.

ابتسمت مارجي ابتسامة لا تخلو من الشقاوة.

– هل أنتَ واثق؟

بُهِتَ جوناثان، ولم يَفُه بكلمة. وبِمَ يُجيب؟

تابعت مارجي مشيها تلازمها الابتسامة، تاركةً ناظريها يسرحان في أنحاء حديقتها الرائعة.

– هذا يذكّرني بقصّة، قالت. قصّة حقيقيّة كان روبير، أحد أصدقائي في سانتا كروز، يرويها في استمرار: ذات يوم، تساءل لماذا تقطع زوجته طرف ديك حبش عيد الشكر، قبل أن تضعه في الفرن. كانت تقتطع جزءًا من مؤخّرته، الأمر الذي كان روبير يستغربه. «هكذا يُحضّر»، جاءت إجابتها. «مفهوم، لكن لماذا؟»، كان روبير حائرًا في أمره، وأراد معرفة المزيد. «هكذا يُصنَع الحبش. في أيّ حال، لطالما رأيتُ ماما تُحضّر الحبش هكذا». ألحّ زوجها إلى أن قرّرَت الاتّصال بأمّها. رفعت سمّاعة الهاتف. «ماما، لماذا تقطعين مؤخّرة ديك الحبش الذي نقدّمه في عيد الشكر؟»، فأجابتها الأمّ من دون تردّد: «تلك هي وصفة تحضيره». لكنّ ابنتها ألحّت أيضًا، من دون أن تحصل على جواب شافٍ. فقد تحجّجت أمّها، «تلك هي طريقة التحضير. طالما لقّنتني أمّي إيّاها هكذا».

عندذاك، قرّرت الابنة أن تتّصل بجدّتها لتطرح عليها السؤال نفسه: «لماذا يجب قطع مؤخّرة ديك الحبش اللعين ذاك، قبل إدخاله الفرن؟». وجاءها جواب الجدّة: «هكذا اعتدتُ تحضيره». «لماذا؟»، «تبًا! لأنّ فرني كان ضيّقًا لا يتّسع للديك كاملًا!».

قهقه جوناثان عاليًا.

– قديمًا، تابعت مارجي، كان النفل يشكّل جزءًا من أبهى المرجات. وهذا صحيح في بلدان العالم كافّة. بالفعل، عندما كنّا نشتري أكياس عشب المرجة لنزرعه، كانت تحوي على الدوام بذور نفل. لم يكن من الممكن تصوُّر حديقة من دون نفل! فبفضل النفل كانت المرجة تبقى خضراء في فترات الجفاف. فالنفل يمتصّ أزوت الهواء لينقله إلى التربة، وهو يزوّد المرجة سمادًا طبيعيًا. وماذا نطلب أكثر؟ ثمّ في الخمسينيّات، طوّرَت المصانع الكيميائيّة العالميّة مبيدات، وذلك لإبادة الأعشاب الضارّة التي تنمو وسط المرجة. والمشكلة أنّ مبيدها هذا أباد أيضًا النفل الذي كان الناس يحبّونه. بالتالي، لم يَلْقَ مبيدهم القذر رواجًا. عندذاك، عمدوا إلى الترويج له بالقوّة، فوظّفوا ملايين الدولارات في عمليّات الدعاية ليزرعوا في أذهان الناس أنّ النفل عشبة ضارّة...

– هل تمزحين؟

– من كثرة الإعلانات والدعاية، وصلت الرسالة إلى عقول الناس، وتقبّلوا الفكرة. صاروا ينظرون إلى النفل بمنظار مختلف، ثمّ أرادوا التخلّص منه. وهكذا، حقّقت المصانع الكيميائيّة ضربة مضاعفة: من جهة، استطاعت بيع مبيدها القذر، ومن جهة أخرى، اضطرّ الناس إلى شراء السماد الكيميائيّ، بما أنّ مرجاتهم باتت تفتقر إلى الأزوت...

هزّ جوناثان رأسه، مغتاظًا.

ابتسمت مارجي، وفي عينيها بريق ساخر.

– النفل جميل، قالت. إنّه يُبَرعم في الربيع، فتطلّ منه زهور صغيرة بيضاء.

خفضت صوتها كَمن يبوح بسرّ:

– هكذا هي الحياة: لا نفكّر ولو لحظة في أنّ ما نحسبه مشكلة، قد يكون أحيانًا هو... الحلّ!

في تمهّل، واصلا النزول بين شُجيرات الورود وأسيجة ياسمين البرّ العابقة بالأريج المُذهل. في الأسفل، برزت جذوع أشجار الصنوبر الهرمة المُلتوية، تتنافس وإشراقة زرقة المحيط. ليس في الجوّ نسمة نَفَس، حتّى ليخال المرء أنّ النباتات اغتنمت الفرصة لتُطلِق روائحها الذكيّة واثقةً في أنّ الريح لن تحملها بعيدًا.

– وكما كنّا نقول البارحة، أضافت مارجي، لا جدوى من النضال؛ جميعنا مربوطون الواحد بالآخر.

– أو... بعد إذنكِ، كنّا نتحدّث عن البشر لا عن النبات!

– النبات من الكائنات الحيّة.

– نعم، ولكن... حسنًا، ثمّة حدود. لن تقنعيني بأنّني مربوط أيضًا بنفل مرجتي!

ارتسمت ابتسامة هادئة على وجه مارجي.

– مَن يعلم؟ سمعتَ بلا شكّ بما حدث لظباء الكودو في نهاية الثمانينيات، في أفريقيا الجنوبيّة؟

– بصراحة، كلّا! أجاب جوناثان ضاحكًا.

– حدث ذلك في سهول ترانسفال. كنتُ هناك، منذ ثلاثين سنة تقريبًا...

استراحَت مارجي هنيهةً، قبل أن تستأنف في تمهُّل وتباطؤ كما لو أنّها تهتدي إلى الكلمات، تلقّنها ذاكرتها إيّاها مع كلّ ذكرى من ذكرياتها.

– ما زلتُ أذكر شمس الفجر الحمراء عند السهول الشاسعة، ونَفَس الريح الساخن مُحمّلًا بروائح الحيوانات الضارية. كانت السهول فيها

الكثير من المحميّات حيث تعيش ظباء الكودو ذات القرون الطويلة المجدولة. عادةً ما كانت تقتات بأوراق الأكاسيا. أمّا هذه الأخيرة فتدعها تفعل في كلّ طيب خاطر...

بدأ جوناثان يضحك.

– لم يكن لديها خيار آخر!

توجّهت مارجي إليه بابتسامة غامضة.

– ذات يوم، أخذت الظباء تنفق الواحدة تلو الأخرى، في المحميّات، من دون أن يُعرَف السبب. لم تهاجمها الضواري، ولا آثار جروح. كان علينا أن ننتظر، نحن فريق البيولوجيّين، سنتين كاملتين لنكتشف السبب. وما عرفناه في النهاية غيّر الكثير من نظرتي إلى العالم...

عقد جوناثان حاجبيه.

– حتّى ذلك الحين، تركت أشجار الأكاسيا الظبيان على سجيّتها، إذ كانت تعرف جيّدًا أنّها لن تلتهم سوى بضع أوراق وترحل. أمّا في ذلك الصيف، فقد تضاعف عدد الظبيان في المحميّات، وراحت تلتهم المزيد من الأوراق. عندذاك، انتفضت الأشجار وأخذت تفرز المزيد من التانين، لزيادة مرارة مذاقها، وبالتالي، ردع الظبيان.

نظر إليها جوناثان في ارتياب وتشكيك.

تابعت مارجي تقول، من دون أن تُبدي أيّ ردّ فعل:

– لكنّ الظبيان المتضوّرة جوعًا، واصلت التهام الأوراق، حتّى باتت الأشجار مهدّدةً بالانقراض.

سكتت لحظةً، ثمّ أردفت:

– عندذاك، أخذت الأشجار تفرز في نسغها نوعًا من السمّ. وأوراقها الصالحة للأكل عادةً، غدَت قاتلة.

نظر جوناثان إلى عمّته وقد استبدّ به الشحوب.

– وليس هذا الأغرب في الأمر، قالت مارجي. فقد تناقلت الأكاسيا كلمة السرّ من شجرة إلى شجرة، حيث إنّها أبلغت الأشجار أمثالها بالخطر المحدق الذي يتهدّدها، إن هي تركت الظباء تأكل أوراقها كالعادة. نعم، سمعتني جيّدًا: تواصلت الأشجار في ما بينها، فأخذت كلّ شجرة تفرز ذلك السمّ.

بقي جوناثان صامتًا بضع لحظات، قبل أن يُجيب:

– وما الذي يُثبِت صحّة ذلك؟ لعلّه من الصواب أيضًا أن تكون كلّ شجرة قد أفرزت وحدها ذلك السمّ، فكان ردّ الفعل واحدًا عندها جميعًا.

هزّت مارجي رأسها على مهَل، وهي تضيّق عينيها.

– كلّ الأكاسيا الموجودة في تلك المنطقة أخذت تُنتِج أوراقًا سامّة... بما في ذلك الأشجار خارج المحميّات، أي التي ليست في اتّصال بالظباء. لم يكن ثمّة سبب يبرّر سلوكها هذا... إلّا أن تكون قد تلقّت المعلومة من الأشجار الأخرى.

أحسّ جوناثان بالقشعريرة تسري في ظهره. أن تتخاطب الأشجار في ما بينها، فتلك فكرة من أفكار الخرافات العلميّة. وأمّا أن تكون ثمّة حقيقة كامنة في ذلك فمدعاة للقلق والاضطراب.

– وهل نعرف كيف تفعل الأشجار ذلك؟

– لدينا بعض الفرضيّات، لكن لا إثباتات. نعلَم أنّها تتبادل معلومات كيميائيّة من طريق جذورها، وعَبرَ التربة. لكنّ البحوث تثبت أنّ الأمر لا يقف عند هذا الحدّ.

– تابعي أرجوك.

– كلّ نبتة تستطيع أن تتعرّف إلى جارتها في التربة المحيطة بها. إن كانت من سلالتها، تُبطِئ نموّ جذورها الخاصّة، تاركةً لها مُتّسعًا من التربة، لكي تنمو هي الأخرى. وعلى العكس، إذا كانت جارتها من صنف غريب عنها، تسرّع نموّ جذورها لكي تحتلّ كامل الميدان. لذا، عمدنا

إلى إجراء الاختبار الآتي: وضعنا علبة فارغة، غير شفّافة ومُغلقة في إحكام، على تربة مزروعة ببذور الفلفل الحارّ، وقسنا نموّ الجذور. بعد ذلك، عمدنا إلى تكرار الاختبار، ولكن هذه المرّة وضعنا في العلبة غرسة شمّار. يجب أن تعرف أنّ الشمّار معروف بعدائه للتوابل الحارّة – يبثّ في التربة وفي الهواء إشارات كيميائيّة تعوّق نموها – لذا، وضعنا الشمّار في العلبة غير الشفّافة والمُحكمة الإغلاق: لا مجال لتلك النباتات لأن تتواصل في ما بينها عبر تبادلات كيميائيّة. مع ذلك، لاحظنا أنّ نباتات الفلفل الحارّ أخذت تنمّي جذورها سريعًا، سلوك نموذجيّ للنبتة التي ترصد وجود نبتة غريبة ضمن نطاق تربتها. إذًا، عرفت نبتة الفلفل الحارّ بوجود الشمّار، ولكن كيف؟ هذا هو اللّغز.

– أمر غريب عجيب.

تركَ جوناثان نظرَه يتنقّل بين شجيرات زهر العسل العطِرة، وشجيرات الورد، والياسمين البرّي، والشجيرات البرّيّة الصغيرة، وبين أشجار الصنوبر الشامخة الجامدة. لن يراها بالطريقة نفسها، بعد الآن.

– تجده عجيبًا، لأنّكَ لم تسمع بمثل هذه الأحداث من قبل، لكنّ أحدًا لا يستغرب أمورًا تحدث كلّ يوم حولنا...

قطّب جوناثان حاجبيه.

– بِمَ تفكّرين؟

– هل تساءلتَ مثلًا كيف تفعل الطيور لتطير ضمن جماعة في سربٍ واحد؟

– وما المدهش في ذلك؟

– هل تدري أنّ الطيور قادرة على تغيير اتّجاهها بغتةً، جميعها معًا وفي آنٍ واحد، من دون أن يلمس أحدها الآخر، ولو كانت متقاربة، وتكاد تكون متلاصقة؟

– أعتقد أنّها تتبع الطائر الذي يتقدّمها ويكون على رأس السرب. ولا بدّ أنّها يتبع بعضها بعضًا عن كثب مع الإبقاء على التيقّظ والتركيز،

والتفاعل...

هزّت مارجي رأسها، باسمةً.

– هذا لا يفسّر الظاهرة. قاس علماء الوقت الذي تستغرقه طيور السرب في تغيير اتّجاهها بعد أن يغيّر طائر المقدّمة وجهة سيره. وهو وقت أقصر من ذلك اللازم للسائل العصبيّ لكي ينتقل من العين إلى الدماغ، ومنه إلى الجناحين.

نظر إليها جوناثان في صمت، وقد اعتراه الفضول.

– إنّه اللغز نفسه المتعلّق بالأسماك التي تسبح أفواجًا، أضافت مارجي. لقد أثبتت البحوث أمورًا مثيرة: عندما نغطّي عيون الأسماك بزجاج غير مصقول وذلك لحجب الرؤية عنها أثناء الاختبار، تحافظ على أماكنها في الفوج، وتظلّ تتحرّك بطريقة متناسقة تمامًا.

– لا بدّ من أنّ تحرّكها يُحدِث تموّجات في الماء، تيّارات تشعر بها جميع الأسماك...

– هذا ما كنّا نعتقده في البداية. لذا، اقتطع الباحثون أعصاب الخطّ الجانبيّ عند مستوى الجهاز السمعيّ، وظلّت سباحتها متزامنة ومنسجمة تمامًا الواحدة مع الأخرى.

– إنّه لأمر مُربِك بالفعل.

– كذلك، لا يمكننا أن نفسّر كيف تتصرّف أسراب الحمام الزاجل لتهتدي إلى أعشاشها، في حين تُطلَق في مسافة مئات الكيلومترات منها، في مكان مجهول تمامًا، الأمر الذي يجعلها تتبع مسارًا لم تسلكه من قبل.

– ولا الطيور المهاجرة...

– بالضبط. كنّا نعتقد أنّ مسار رحلتها من الأمور التي تعلّمها الطيور الكبرى للصغرى منها. بالتالي، فصل الباحثون الصغار عن أمّاتها منذ الولادة. وعندما بلغت الطيور الصغيرة العمر الذي يمكّنها من الطيران، أُخلِيَ سبيلُها. فانطلقت في السماء، واجتازت تلقائيًا نصف

الكرة الأرضية، لتصل تحديدًا إلى حيث أمّاتها، والتي انطلقت قبلها في أسابيع عدّة...

بقي جوناثان صامتًا هنيهات، مطرِقًا يفكّر. في البعيد، كانت مجموعة من المراكب ذات الأشرعة الحمراء تُبحِر معًا. مدرسة تعليم الملاحة الشراعيّة، بلا شكّ. غير أنّ سكون الرياح تركها شبه جامدة، يؤرجحها الموج المتراقص برفق، بين الفينة والأخرى.

– إلى أين تريدين الوصول؟ سألها جوناثان أخيرًا.

– طرَح روبرت شيلدرايك، أحد أشهر علماء البيولوجيا في جامعة كامبريدج، الفرضيّة الآتية: ثمّة ما يربط الكائنات الحيّة، وليس البشر فحسب. رابط أسماه «حقل شكليّ افتراضيّ».

بادرها جوناثان بتكشيرة.

– يُحكى عن حقول مغنطيسيّة، وعن حقول جاذبيّة... لكنّني لم أسمع يومًا بحقول شكليّة افتراضيّة.

– يبدو أنّها نوع من المصفوفة غير المرئيّة، شبيهة بمساحة تشمل الكائنات الحيّة المترابطة في ما بينها، فتخوّلها الحفاظ على شكل من التواصل الدائم. رابط لا يحول ولا يزول، لا يتأثّر بزمن ولا بمسافة.

– ولا بمسافة؟

– نعم.

– يبدو هذا جنونيًا بعض الشيء. قد أتصوّر أن نبثّ موجات أو غيرها يلتقطها الآخر أو يميّزها، ما يسمح بإبقائنا في تواصل مع الآخرين، لكن إذا سافرتُ إلى الجهة الأخرى من كوكب الأرض، فلا أدري كيف يمكن أن يبقى الاتّصال قائمًا.

هزّت مارجي رأسها.

– أوّلًا ليست موجات. ولا حقلًا كهربائيًا أو مغنطيسيًا قابلًا للزوال بفعل المسافة. وهذا هو المثير والمدهش: هو رابط من نوع آخر، في مستوى آخر، كما لو أنّنا متّصلون في ما بيننا في بُعدٍ آخر، بُعد مستقلّ

عن الزمان والمكان. وإذ نتّصل بين الفينة والأخرى في هذا البُعد، نستطيع وعلى الفور بلوغ المعلومات التي يتضمّنها، والتي تصل أحدنا بالآخر.

– اكتشاف مَهول، يكاد يكون مُرعِبًا.

– مجدّدًا، أكرّر لكَ أنّه ما من إثبات علميّ بعد، وإنّما مجرّد فرضيّات حثيثة، مع خيوط أدلّة أوّليّة واختبارات مُذهلة قد أجراها علماء أمثال شلدرايك، ما يُتيح تفسير الظواهر التي أتينا على ذكرها، وغيرها أيضًا.

– مثل ماذا؟

– هل حدث لكَ مرّة أن فكّرتَ فجأةً في شخص لم تسمع عنه منذ فترة طويلة، يقيم في مكان بعيد، ربّما في بلد آخر، وإذ به يتّصل بكَ بعد لحظات معدودة؟ أو أن تحزر بأنّه مَن يتّصل بكَ عندما يرنّ الهاتف؟

أحسّ جوناثان بقشعريرة. هذه الظاهرة مألوفة. حدثت له غير مرّة. وقد عزاها إلى الصدفة وحدها.

– وجود حقل شكليّ افتراضيّ قد يفسّر أيضًا لِمَا يستطيع بعض الناس أن يشعروا بأنظار الآخرين مصوّبة إليهم فيما هم معصوبو العيون ويديرون لهم ظهورهم.

– صحيح؟

– في المؤسّسة، أجرينا اختبارًا على أكثر من تسعمئة شخص. وأتت النتائج واضحة: الأشخاص الذين يتمتّعون بهذه القدرة، يستطيعون الإحساس بنظرة الآخرين متى صُوّبت نحوهم، في نسبة 73 في المئة.

– مذهل...

– هناك أيضًا، الحيوانات الأليفة التي تعرف مقدّمًا وقت عودة صاحبها إلى المنزل، فتستعدّ لاستقباله عند الباب قبل دقائق فحسب

من مجيئه. أجرى شلدرايك الكثير من البحوث حول هذه الظاهرة. وقد بيّن أنّ هذا السلوك لدى الكلاب والقطط قبيل عودة أصحابها، لا يمكن شرحه بمواقيت عودة هؤلاء، والتي باتت مألوفة – عمد الباحث إلى تغيير موعد العودة عشوائيًا – ولا بتمييز الحيوان صوت السيّارة أو الباص – فقد غيّر أيضًا وسيلة النقل – ولا بحاسّة الشمّ المتطوّرة عند الحيوانات تلك، فقد جعل صاحبها يتنقّل في عربة غير قابلة لنفاذ الروائح.

وافق جوناثان عمّته في تمهّل. كان قد سمع أصدقاءه يروون هذا النوع من الوقائع، لكنّه لم يأخذها مرّة على محمل الجدّ.

– هذا يتيح لنا كذلك الأمر أن نفهم سبب هرب كثير من الحيوانات قبل التسونامي الشهير، الذي أطاح شواطئ آسيا الجنوبيّة في العام 2004 كافّة، في حين أنّه لم يكن هناك من إشارات أو علامات قد تستشعرها تلك الحيوانات بأيٍّ من حواسها الخمس. وتلك أيضًا حال فِيَلة سريلانكا على وجه التحديد. فقد قفلت عائدة إلى قلب الأراضي وأعالي الجبال، قبل أن يضرب المدّ الجامح المدمّر بحوالى ساعة. وفي تايلاند، في مخيّم يتنزّه فيه السيّاح على ظهور الفِيَلة، أخذت هذه الأخيرة تنهم منذ الصباح الباكر على نحو عجيب، ورفضت الانصياع لاحقًا لأوامر أصحابها، ثمّ ما لبثت أن قطعت السلاسل التي تقيّدها، وانطلقت تعدو صوب التلال. أمّا مجموعة الرجال الذين لحقوا بها، فقد نجوا من الكارثة. وكثير من الحيوانات الأخرى تصرّفت بالمثل. كما في متنزّه يالا الوطنيّ، في سريلانكا، حيث أبادت الأمواج كلّ ما وقف في طريقها متوغّلةً ثلاثة كيلومترات داخل الأراضي، فيما لم يُعثر على جيفة حيوان واحد، بين جثث الضحايا من الناس.

– إذًا، كيف تفسّرين أنّ البشر وقعوا في الفخّ، ما دمنا موصولين بذلك الحقل الذي تتحدّثين عنه؟

تنهّدت مارجي.

– إنّ ظهور التكنولوجيا في حياة البشر، فصلنا عن بعض مزايانا وقدراتنا، وإن كانت مساهمات التكنولوجيا رائعة وممتازة. لا بدّ من أنّنا لاحظنا جميعًا أنّ ذاكرتنا تراجعَت، مُذ بدأنا نتّكل على المفكّرات الإلكترونيّة، لكي تتولّى تذكيرنا بما علينا فعله.

– هذا واضح...

– أو أنّنا بدأنا نفقد تدرّجًا حسّ التوجُّه والاتّجاه، مُذ تركنا أنظمة تحديد المواقع تقودنا.

– ربّما. لكنّني أفضّل هذا بدل أن أمضي وقتي تائهًا أبحثُ عن طريقي.

– كنّا نتحدّث عن تسونامي العام 2004. آنذاك، استشعرَت بعض القبائل التي تُنعَت بالبدائيّة، الخطر المُحدق الوشيك، فانكفأت هي الأخرى إلى الجبال والمرتفعات قبل وصول التسونامي، في حين أنّ الشعب المعروف بالمتطوّر قد قضى قبل أن يُدرك ما يحصل حتّى.

– لم أكن أعلم بذلك.

– تلك أيضًا حال السكّان الأصليّين في جزيرتَي أندامان ونيكوبار الواقعتَين قرب مركز الزلزال، حيث بلغ عدد الضحايا سبعة آلاف قتيل: أمّا قبائل سنتينيل والأونج وكبار الأندامان والشومبين، فقد نَجَوا بأعجوبة. وفي جزيرة جيركاتانغ، انكفأ أبناء قبيلة جاراوا القديمة، وعددهم حوالى 250 شخصًا، إلى عمق الداخل، قبل وقت طويل من وصول الأمواج، واقتاتوا مدّة عشرة أيّام بجوز الهند فحسب. كذلك الأمر، جنوب جزيرة سورين، فقد وجدت قبيلة موكن كاملةً بأفرادها المئتين، باستثناء صبيّ مُقعَد، ملجأً لها قبل وقوع الكارثة. عندما سُئلوا كيف عرفوا أنّ الكارثة وشيكة، استغربوا السؤال، كأنّ الجواب بدهيّ. «أصغينا فحسب إلى الطبيعة»، قالوا.

ابتسم جوناثان.

– كما يقول فيكتور هوغو: «الطبيعة تُكلّمنا، لكنّنا لا نُجيد الإصغاء إليها».

وافقته مارجي.

– ثمّ إنّ هذه الشعوب البدائية قادرة على أمور مدهشة. واضح أنّ لديها صلة بمصدر معلومات غامض، غريب عنّا.

– ماذا تقصدين؟

– هنود الأمازون قادرون على إيجاد الشجرة أو النبتة التي تشفي مريضًا. ومع ذلك، تشتمل غابة الأمازون على أصناف أشجار وأنواع مختلفة هائلة في الهكتار الواحد، ما يفوق عدد الأنواع الموجودة في أوروبا قاطبةً. هذا إن ذكرنا الشجر فحسب، أمّا في ما يتعلّق بالنباتات، فثمّة أكثر من ثمانين ألف صنف وصنف. وعندما نسألهم كيف يُحدّدون نوع النبتة التي تشفي مريضًا، يُجيبون أنّ النبتات هي نفسها التي تُسرّ إليهم بذلك.

كتمَ جوناثان ابتسامة.

– يدخل عرّافوهم في نوع من الغيبوبة المغنطيسيّة، وفي هذه الحالة من الوعي المُتحوّل، يقولون أنّهم يدخلون في علاقة مع روح النبات. كما لو أنّ تلك الحالة تسهّل عليهم الاتّصال بـ...

– بالحقل الشكليّ الافتراضيّ.

– بالضبط. وهاكَ مثلًا إضافيًا، مذهلًا هو الآخر: لقد صنعوا منذ أجيالٍ وأجيال تركيبات من مختلف السموم؛ سموم يستخدمونها في الصيد، إذ تشلّ فورًا قدرة أيّ طريدة. انكبّ عدد من الباحثين الغربيّين على دراسة هذه السموم المختلفة، فوجدوا تركيبات فيها متطوّرة جدًّا، تفعّل عناصر مشتقّة من نباتات شديدة الاختلاف، وكلّ عنصر منها يؤدّي دورًا أساسيًا في التركيبة. وإذا نقص عنصر واحد منها، أو تغيّرت جرعة واحدة منها، فقد السمّ فاعليّته. كيف نجحوا في العثور على

التركيبة؟ ليست لديهم كتب، ولا مختبرات، ولا معدّات. ومن جهة أخرى، هم أمّيّون.

– ربما جرّبوا مرارًا وتكرارًا وعرفوا الصواب من الخطإ.

– كلّا، قد تصحّ تلك الفرضيّة إن كنتَ تبحث عن تركيبة عنصرين أو ثلاثة عناصر في الأكثر، وذلك من بين بضع العشرات أو المئات. أمّا تركيبة سبعة أو ثمانية عناصر من بين ثمانين ألفًا فتطرح ملايين الاحتمالات. ولا أحد يقوى على ملايين التجارب.

ترك جوناثان نظره يغوص في الحديقة بين مئات الأشجار الباسقة، والشجيرات، والدغل، والنباتات، والأعشاب. لأمر طريف أن نتصوّر رابطًا خفيًا يصلنا بها.

قال لها:

– هل تعلمين أنّك تدوسين مئات البراعم من دون شفقة ولا رحمة، حين تتمشّين على مرجتكِ؟

ضحكت مارجي من صميم قلبها.

– صحيح أنّ احتمال وجود رابط ما يجعلنا نعيد النظر في علاقاتنا مع الحياة التي تُحيط بنا، قالت، وهي تنقّل نظرها في إعجاب بين نبات حديقتها. الثابت المؤكّد هو أنّنا خُلقنا لنعيش معًا. ثمّ إنّ دراسات كثيرة أظهرَت حقائق صارخة.

– مثلًا؟

– أثبت عدد من الباحثين أنّ مجرّد المشي في الغابة يعزّز جهاز المناعة لدينا.

تذكّر جوناثان نزهاته الطويلة في براري بيغ سور. كم كان يشعر بالارتياح والسلام في تلك اللحظات...

أردفت مارجي:

– فيما تُثبِتُ دراسات أخرى أنّ وجود النباتات في المكاتب يقلّل أوجاع الرأس 30 في المئة، والتعب 20 في المئة، وآلام الحنجرة 20

في المئة أيضًا. ونلاحظ نتائج مماثلة في ما يتعلّق بوجود الحيوانات الأليفة حولنا. هكذا بتنا نعرف أنّ شخصًا أصيب بذبحة قلبيّة أو سكتة دماغيّة، لديه احتمال من 23 في المئة في أن يبقى في قيد الحياة للسنة التالية إن كان معه كلب في المنزل.

– ستخلقين لديّ عقدة ذنب: لطالما طالبتني ابنتي كلويه باقتناء حيوان أليف. وقد وافقت أنجيلا على ذلك. لكنّني لم أنفكّ أعارض على الدوام.

ابتسمت مارجي.

– الكائن البشريّ كائن علاقات. علاقات مع الناس، مع الحيوانات، مع النباتات. فالعلاقات هي التي تجعلنا نعيش. وفي أيّ حال، قد ثبتت صحّة ذلك منذ الاختبار الذي أجراه فريدريك الثاني من الإمبراطوريّة الرومانيّة المقدّسة، في القرن الثالث عشر.

– لم أسمع باسمه قطّ.

– كان يتكلّم ستّ لغات أو سبعًا في طلاقة، وكان يتساءل: ما هي «لغة الله؟»، تلك اللغة التي كنّا سنتكلّمها بالفطرة لو لم نُلقّن أيّ لغة أخرى. عليه، أجرى اختبارًا لحسن الحظّ أنّنا لن نسمح لأنفسنا بتكراره اليوم.

– وماذا فعل؟

– عزل مجموعة من المواليد الجدد، وأوكل أمرهم إلى مربّيات مختصّات. كانت مهمّتهنّ تقضي بتقديم الغذاء للرُضّع هؤلاء، من طعام وشراب وما إلى ذلك، وتبديل حفّاظاتهم حفاظًا على نظافتهم، أي، تلبية حاجاتهم الفيزيولوجيّة كلّها. لكن، لم يكن يحقّ لهنّ مداعبتهم أو ملاعبتهم، ولا التحدّث إليهم على وجه التحديد.

– إذًا، أيّ لغة تطوّرت لديهم؟

– لم نعرف حتّى اليوم.

– لماذا؟

– لأنّهم ماتوا جميعًا. مع أنّ كلّ حاجاتهم الفيزيولوجيّة كانت تُلبّى على أفضل نحو. كانوا محرومين من العلاقات.

هزّ جوناثان رأسه في نفور وقرف.

– يا للفظاعة.

– العلاقات هي جوهر حياتنا يا جوناثان.

كأنّ كلمات مارجي الأخيرة بقيت معلّقة في الهواء. كانت الشمس قد ازدادت حدّة، وأدرك جوناثان أنّ عمّته لن تلبث أن تدخل المنزل.

ناحية المحيط، هبّ نسيم عليل، فواصلت المراكب الشراعيّة الصغيرة مسارها، كلّها في آنٍ واحد.

«العلاقات هي جوهر حياتنا.» علاقات جوناثان الأساسيّة هي تلك التي يُقيمها مع زبائنه. لكن، هل يجوز أن نتكلّم عن علاقات حين تكون العلاقة مبنية على مصالح شخصيّة بين طرفين؟ وحين نخفي عن الطرف الآخر جزءًا من الحقيقة بغية الاستحصال على توقيعه؟ هذا لا يُحسَب...

– يخال بعض الناس أنّهم قادرون على العيش من دون اتّكال على أحد. هؤلاء يعتقدون أنّ سعادتهم وقف عليهم وحدهم. وهذا أسوأ من وهم.

مالت مارجي على جوناثان، وعلى وجهها ابتسامتها الشقيّة تلك.

– في جسمك، يعيش خمسمئة نوع من الكائنات الحيّة المجهريّة.

– وأنا الذي ظننتني وحيدًا.

– مئة ألف مليار من البكتيريا تعيش في أمعائك.

– كفى... هذا مُقرِف.

– وهذه البكتيريا التي تعيش داخلك يفوق عددها عدد خلايا جسمك مئة مرّة.

– اصمتي، أنتِ بذلك تدفعينني إلى اتّباع علاج بالمضادّات الحيويّة.

ابتسمت مارجي.

– أحيانًا نحن بحاجة إلى من نظنّهم أعداءنا.

– بِمَ ستفاجئينني بعد؟

– تلك البكتيريا تحميك من الجراثيم الخبيثة والسامّة والقادرة على إسقامك بشكل بالغ. أن تقتلها بمضادّات حيويّة قد يجعلك سريع العطب. ثمّ...

– ثمّ ماذا؟

– هناك أمر آخر، أجابت بلهجة غامضة.

عقد جوناثان حاجبَيه.

– البكتيريا التي تعيش في أمعائك هي المسؤولة عن تنظيم نسبة السيروتونين في جسمك. من دونها قد تعاني نقصًا في هذه الأخيرة.

– وما هي السيروتونين أوّلًا؟

نظرَت إليه مارجي هنيهات، وأطالَت النظر، لتُطيل التشويق، ثمّ قالت:

– هرمون السعادة.

16

طرف أوستن فيشر بعينيه، ثمّ هزّ رأسه في هدوء، مُحاولًا طرد ذكريات الماضي. يجب أن يركّز على اللحظة الحاضرة. لقد ولّى الماضي، ولا جدوى من اجتراره دومًا أبدًا. أمسك كُرة تنس ودعكها بين أصابعه، مركّزًا على الإحساس اللذيذ الذي تمنحه إيّاه. الإحساس، إنّما هو اللحظة الحاضرة، والحاضرة فقط. مع ذلك، ما هي إلّا لحظات حتّى عاودته صورة اللاعب الدانماركيّ؛ سمع صوته الأخَنّ، واستذكر لهجته البغيضة أثناء المقابلة على قناة «سي. أن. أن».

«أوستن فيشر مجرّد آلة، ماكينة مبرمجة للفوز.»

حسد وغيرة. هذا ما دفع ذلك الرياضيّ الفاشل إلى التفوّه بمثل تلك الفظاعات.

استعد تركيزكَ، فأنت لاعب محترف.

خلال مسيرته المهنيّة، غالبًا ما سمع أوصافًا مقيتة من أفواه المعلّقين. هذا جزء من اللعبة، وقد نجح في تحصين نفسه إزاء النقد الجارح. في طبيعة الحال، كان يشعر بين الفينة والأخرى بالانزعاج والضيق، وأحيانًا بالغضب، أمّا الآن فالأمر مختلف. لم يسبق أن أثّر فيه ذلك كما الآن. فلماذا الآن؟ لماذا؟ لماذا أثناء البطولة الحاسمة التي ستخلّد اسمه في سجلّات الرياضة؟

«ماكينة مبرمجة للفوز، مُجرَّدة من المشاعر، وهذا تمامًا ما يشكّل قوّته.»

كيف يمكن المرء أن يكون مفتريًا وجائرًا في كلامه إلى هذا الحدّ؟ أن يُنكِرَ الجهد العظيم الذي بذله، وكلّ تلك السنوات التي كرّسها للتدرُّب، وكلّ العمل الدؤوب الجادّ من دون هوادة ولا راحة ولا أوقات فراغ ولا متعة. وأن تُمحى كلّ تلك الجهود بضربة واحدة...

في تلك اللحظة تحديدًا، دخل وارين القاعة المشعّة بالنور. كان صالون الفيلّا، المستأجرة طوال فترة البطولة، يطِلّ بنوافذه الزجاجيّة العريضة على المسبح. سرعان ما اختفت ابتسامة وارين العريضة عندما لمح اللاعب.

– ما الخطب؟

– لا شيء، لا شيء. ما من مشكلة، أجاب أوستن في هدوء ورباطة جأش.

رمق وارين أوستن هنيهةً، ثمّ جلس على مسند ذراع إحدى الكنبات، قبالةَ اللاعب.

– اللاعب الدانماركيّ أليس كذلك؟

بقي أوستن جامدًا مكانه بضع لحظات، ليومئ أخيرًا برأسه موافقًا، وقد لوت شفتيه تكشيرة. من المستحسن أن يعترف لوارين بضعفه. إذا بدأ إخفاء أمورٍ عن مدرّبه فتلك ستكون بداية النهاية.

– مهما حاولتُ طرد صورته وكلماته من ذهني فهي لا تنفكّ تعود لمطاردتي.

ضيّق وارين عينيه.

– وماذا يحدُث لك بسبب ذلك؟

تريّث أوستن لحظةً ليتبيّن ما يدور داخله.

– أحسُّ بالظلم، وهذا ما يحزنني ويشغل بالي. في اختصار: يشتّتني.

– كان هذا سيُغضبك عادةً، أجابه وارين وقد بدا عليه الهمّ.

– عادةً، هذا النوع من الكلام يخرج من فم صحافيّ، ما يُثير غضبي؛ أمّا الآن فَمَن يتفوّه به فهو لاعب، مثلي أنا، وهذا ما يحزنني ويجرحني، ولا أعرف لماذا.

التزم وارين الصمت بضع لحظات، ثمّ انتصب واقفًا.

– بعد دقيقتين، ستضحك من ذلك كلّه. لطالما تعاملتُ مع هذا النوع من المشاكل، في عالم الشركات والأعمال. صحيح أنّ الإطار يختلف، لكنّ المشهد يبقى هو عينه: هناك، كان الأفراد يجترّون مرارًا وتكرارًا توبيخات ربّ العمل غير المُبرّرة، أو الملاحظات الخبيثة الآتية من زملاء يتأكّلهم الطمع والحسد.

تناول ابريق ماء زجاجيًا موضوعًا على طاولة خفيضة.

– كوب ماء؟

وافق أوستن، وصبّ وارين الماء لكليهما، مقدّمًا كوبًا إلى اللاعب.

– كنتَ تقول أنّ صورته وكلماته تطاردك في استمرار. ولكن، بأيّ شكل؟ أخبرني المزيد.

– بأيّ شكل؟ أوه... كيف أقولها... أرى رأسه أمامي، كما ظهر في شاشة التلفزيون...

– ومن أيّ مسافة؟

– كيف؟ صوّرته في ذهني، لا من مسافة...

– نعم، لكن إذا شئت أن تحدّد موقع تلك الصورة في الفضاء، كما تراها أنت، فأين تكون بالضبط؟

ركّز أوستن أكثر. ليس من السهل تحديد موقع ذكرى تخطر لنا...

– ربّما... من بُعد ثلاثة أمتار.

– وهذه الصورة، ما قياسها؟

أطرق أوستن هنيهةً يفكّر، محاولًا استعادة الصورة.

– ربّما مربّع من متر واحد تقريبًا.

– بالألوان أم بالأبيض والأسود؟ بدرجات متفاوتة أم موحّدة؟
– بالألوان وبدرجات متفاوتة. سحنة سكّير صارخة.
– هل هي صورة ثابتة أم متحرّكة؟
– شريط فيلم. والواقع أنّني أستعيد ذهنيًا شريط المقابلة التي أجريت معه.
– حسنًا. والصوت؟ صِف لي صوته كما تسمعه.
– صوت قويّ، على الرغم من الخنّة. لا أنفكّ أستعيد أحكامه الاعتباطيّة تلك، أستعيدها وأستعيدها...
– حسنًا. والآن، خذ تلك الصورة وأبعِدها منك... فلنقُل مسافة أربعة أو خمسة أمتار.
– لماذا؟
– بتعديل الطريقة التي ترى فيها أنت تلك الذكرى، سنغيّر ما تشعُر به حيالها. والآن، أبعد المشهد مسافة أربعة أو خمسة أمتار إضافيّة.
نظر أوستن إلى صورة اللاعب المتحرّكة، ثمّ تخيّلها، وهي تبتعد قليلًا. أومأ برأسه إيجابًا.
– جيّد جدًا. والآن، قلّص حجمها ببطء. حتّى النصف.
– حسنًا.
– والآن، انزع منها بعض الألوان، اجعلها باهتة، أكثر شحوبًا، بالأبيض والأسود تقريبًا.
ابتسم أوستن، وهو يُجري هذه التغييرات.
– جيّد. هل تغيّر إحساسك حيال الصورة؟
– بتّ أشعر بنوع من عدم المبالاة.
– عظيم. والآن، سنتلاعب بصوته. اتركه يتابع كلامه، ولكن بصوت ناعس، أبطأ فأبطأ، صوت متكاسل وخفيض، لزج كالغراء، لكنّه يتفوّه بالكلمات عينها.
ركّز أوستن بضع لحظات، ثمّ بدأ يقهقه ساخرًا.

– والآن، ستضيف لحنًا بسيطًا خلفيّة صوتيّة، موسيقى تواكب حديثه. هل ما زلت تسمع ما يقول؟

– نعم.

– أضف موسيقى أخرى... موسيقى السيرك! موسيقى سيرك كتلك التي نسمعها أحيانًا، هزليّة تهريجيّة ومبتذلة. وأنت تسمعها تعلو صوت الرجل الذي يواصل كلامه، بصوته البليد اللزج كحلوى المارشميلو الذائبة.

استرسل أوستن في الضحك وهو يمرِّر في ذهنه الشريط الخياليّ الصغير: ظهر اللاعب في مظهر «ساذج الضيعة» والسكّير.

«أووووسسسستن فيييييششششر اااالة.»

مع الموسيقى الخلفيّة، بدا كلامه ضربًا من البلاهة.

– والآن، أعِد الكرّة، مرِّر الشريط مُجدّدًا، مرّة إلى الأمام ومرّة إلى الوراء.

– إلى الوراء؟

– نعم، كما لو أنّ مشغّل فيلم في صالة سينما عتيقة يعيد لفّ الشريط. فتظهر المشاهد في اتّجاه معكوس.

ركّز أوستن من جديد. لم يكن ذلك سهلًا.

– مرِّر الشريط إلى الأمام، مصحوبًا بموسيقى السيرك والأجواء الصاخبة.

استرخى أوستن. لم يعُد لمشهد اللاعب الدانماركيّ أيّ تأثير سلبيّ فيه. راح يسمع كلامه، وهو يضحك في هدوء.

– من الآن فصاعدًا، كلّما عادت إليك صورة ذلك اللاعب، رافقتها كلّ هذه الملحقات المهرجانيّة.

ابتسم أوستن. وقال في سرّه أنّه سيطبّق هذه التقنيّة على توبيخات والده الماضية، التي لطالما صمّت أذنَيه وذهنه وهو ولد، والتي إذ تنبعث فجأةً من العدم لا تنفك أصداؤها تطنّ في أذنَيه.

ولكن، ليس الآن. على الإطلاق. بل لاحقًا. بعد أن يفوز في بطولة الدورة.

17

صوت رنين الكؤوس!

قُرِعت الكؤوس في رنين جَذِل. كان ترّاس المقهى غارقًا تحت ضياء الشمس.

– نخبكما! هتف جوناثان، وهو يشعّ ابتسامًا.

– نخبكَ، تمتم كلّ من مايكل وأنجيلا.

كانت ملامح مايكل منقبضة، مُذ أعلن جوناثان أنّ عودته إلى سان فرانسيسكو لا تعني في الوقت الحاليّ أنّه سيستعيد عمله.

– وجهُكَ مُشرق، قالت أنجيلا في لهجة يشوبها بعض الحسد. نسيتُ أيّ مغفّل قال: «في العمل صحّة».

منذ يومين وجوناثان يطفو في عالم آخر. لقد شحنَته حواراته الطويلة مع مارجي حيويّة وحماسة، وردّت له لذّة العيش. بات يرى العالم على نحوٍ مختلف. ومنحته الحياة الانطباع بأنّه يُساهِم في مغامرة غامضة، فريدة واستثنائيّة. صحيح أنّه لا يعرف كَم سيدوم الشعور هذا، لكنّه بالتأكيد يتذوّق حلاوة كلّ لحظة. ما إن تلتقي عيناه عينَي شخص آخر، أو ما إن تقع على زهرة أو نبتة أو طائر، حتّى يرغب في الابتسام.

– لكنّك تبدو أفضل حالًا، قال مايكل بلهجةٍ لا تخلو من الملامة.

– نعم، أنا بخير.

جرع مايكل جرعةً.
– هبطت أعمال الشركة على نحو خطير مُذ غادرتنا.
راقب جوناثان شريكَيه وهو يبتسم. نقَّل نظره بينهما. قسمات الوجه، التعابير، العيون، أدنى حركة كانت تشي بمعلومة عنهما، عن حياتيهما، عن مخاوفهما وآمالهما. من خلال هذه الملامح، استشفّ جوناثان الطفلين اللذين كانا، طفلين عاشا وكبُرا ونضجا، وتطوّرا ليصبحا راشدَين، لكنّهما بقيا طفلين في حيّز ما من كيانيهما. هذه الرؤية أسبغت على شريكيه مسحةً مؤثّرة.
أدرك جوناثان أنّه نادرًا ما كان يراهما حقيقةً «كما هُما»، هكذا. غالبًا ما تنزلق أنظارُنا إلى الناس من دون أن نراهم بالتفصيل، ومن دون أن نبالي بهم.
– يسرّني أن أراكما، قال في حبور.
رمقاه بنظرة مواربة. وساد صمت. كان مايكل أوّل من قطعه:
– متى تنوي أن تعود إلى العمل؟
بيد أنّ جوناثان بقي سابحًا في عالمِه، محمولًا على جناح فرحه.
– الحياة...
رمقه مايكل وأنجيلا بطَرَف العين، ينتظران كيف سيكمل جملته.
– ... جميلة. الحياة جميلة.
قضمت أنجيلا حبّة فجل.
– هل لديك أفكار عميقة أخرى من هذا النوع؟
– الحياة جميلة، لكنّنا لا ندرك ذلك. انظري حبّة الفجل التي تأكلينها، أليست رائعة؟ ولكن... انظري إليها فعلًا... هي تستحقّ أن نتأمّل جمالها قبل أن نلتهمها، وأن... نشكرها لأنّها تقدّم لنا ذاتها.
راحا يحدجانه بنظرات غريبة. تنفّس جوناثان نفَسًا عميقًا، وهزّ كتفيه عاجزًا عن وصف ما يُخالجه.

– أرى فقط ... أنّ الحياة خلّابة، وأنّنا نعيش زمنًا رائعًا مهما قلنا، ومهما كان من أزمات.

– تقول ذلك لأنّك في إجازة، ردّت أنجيلا.

– لا، إنّما لاحظنا، عندما ننظر إلى الأمور من بُعد. مجرّد أن نستطيع الجلوس، كما نفعل الآن، أينما نريد، وساعةَ نريد، وأن نستطيع اختيار ما نريد أن نأكل من طعام، لهو شيء مُذهل، أليس كذلك؟

– ماذا حدث لك؟ ماذا دهاك؟

– أبدًا، ولكن... إن وضعنا أنفسنا في مستوى التاريخ البشريّ، أن نعيش في سلام في بلد آمن، نتنقّل فيه في حرّيّة، نأكل ما نشاء، ونطلبه بكل سهولة، بفرقعة إصبعين، لهو استثنائيّ! قد يبدو الأمر عاديًّا أو تافهًا لنا، لكنّه في الحقيقة، ترف فائق!

توقّف مايكل وأنجيلا عن المضغ. نظرا إلى جوناثان في قلق بالغ.

تابع جوناثان، قائلًا:

– بينما كنتُ أستحمّ هذا الصباح، فكّرتُ في أنّه يكفي أن أفتح الصنبور حتّى يتدفّق الماء. هل تدركان؟ وهذا أيضًا أمر عظيم! أفتحُ الصنبور، فأحصل على الماء. أريد الماء باردًا؟ خرج باردًا. أريده ساخنًا؟ انسابَ عليّ ساخنًا، هكذا، هل تعيان ذلك؟ ثمّ عندما يشتدّ الظلام، أضغط زرًّا واحدًا، فيشعّ النور!

– إنّما يُستحسَن أن تجفّف يديك أوّلًا، قال مايكل.

– ولكن، هل تدركان؟ حركة خاطفة من إصبعك وتحصل على الضوء! يجب أن نفرح بذلك، في كلّ مرّة! هل أشعر بالبرد؟ أضغط زرًّا آخر، فيدفأ منزلي. أوليس أمرًا مُذهلًا، إن فكّرنا فيه مليًّا؟

كان شريكاه يحملقان فيه، مايكل مُرتابًا، مقطّب الحاجبين، وأنجيلا مبهوتةً، جاحظة العينين.

– ماذا دخّنت؟ سأله مايكل.

– كم أودّ أن أعرف! أردفَت أنجيلا، في لهجة حسود.

ابتسم جوناثان. عبّ بضع جرعات، ثمّ راح يأكل لقمًا صغيرة في صمت.

– انظرا هنا! صاح فجأةً.

انحنى مايكل وأنجيلا على صحن المقبّلات: خضار نيئة مع صلصة بالجبن. قال جوناثان وهو يُمسك رأس حبّة بروكولي.

– اقترِبا، انظُرا من كثب.

– ماذا؟ سألته أنجيلا، هل ثمّة دودة؟

– انظُرا هذه الأعجوبة. كلّ رأس تتفرّع منه رؤوس أصغر، لها البنية نفسها. وعندما نتفحّص كُلًّا منها، نجدها تتفرّع منها هي الأخرى رؤوس أصغر فأصغر، محتفظةً بالشكل نفسه. ثمّة بُعد كسريّ أو قسميّ في البروكولي. في كلّ جزء، نجد الكلّ. تمامًا كما لو كان كلّ فرد منّا على صورة البشريّة جمعاء، أو كما لو أنّ الكون كلّه موجود في حفنةٍ من التراب.

– أمر خارق، علّقت أنجيلا بنبرة ضجرة.

– عندما نأكل، هي الحياة تغتذي من الحياة. وفي النهاية، في رحم الحياة نجد الحياة.

عقد مايكل حاجبَيه، وعمضت أنجيلا عينيها.

تابع جوناثان:

– ثمّ إنّي تعلّمتُ أمرًا لا يُصدَّق. ثمّة مليارات من البكتيريا تعيش في أمعائنا، و...

– أي نحن جورة متنقّلة للصرف الصحّي، قاطعه مايكل.

كشّرت أنجيلا.

– وهل تعلَمان أمرًا أيضًا؟ هذه البكتيريا هي التي تزوّدنا السيروتونين، وهي هرمون السعادة. هذا جنونيّ، أليس كذلك؟ وبفضل هذه البكيتريا، نشعر بالارتياح!

تنهّدت أنجيلا.

- ما الرسالة التي تودّ إيصالها؟ أنّ الذين يزعجوننا هم مصدر سعادتنا؟

غمست حبّة فجل في الصلصة، قبل أن تضيف:

- ربّما كان عليّ أن أدعو حماتي لتأتي وتقيم معنا، في النهاية...

18

«بعد تجاوز مرحلة معيّنة، يمكن القول أنّنا قد نصل إلى نقطة اللاعودَة، وأنّ الاحتباس الحراريّ قد يُفضي إلى نتائج خارجة عن السيطرة.

– مثل ماذا؟»

تنحنح العالِم بعصبيّة ظاهرة، فقد انتابته على الأرجح رهبة الجمهور. ابتسم ريان. هذا الرجل يسمح لنفسه بإعطاء الناس دروسًا، في حين أنّه غير قادر على الكلام أمام جمهور التلفزيون.

«ارتفاع الحرارة يؤدّي إلى ذوبان الجليد في القطبين. أثناء ذوبانه، قد يطلق الجليد غاز الميثان. وهذا الغاز المحبوس حاليًا في كتل الجليد، هو في حدّ ذاته، غاز مسبّب الاحتباس الحراريّ...

– هل تقصد أنّ التداعيات ستتسارع من سيّئ إلى أسوإ؟»

أومأ الضيف إيجابًا.

«وإلى أين بعد؟»

أطفأ ريان التلفزيون، فقد سئم سماع هذه الترّهات.

توجّه إلى غرفته ووقف أمام النافذة. لا أحد في صفّ الحدائق. كان قد صوّر منذ الصباح الباكر، الحلقة الرابعة عشرة من سلسلة «غاري وهزّ الكتفين»، سلسلة باتت جمهرة مُخلِصة تنتظرها في فارغ الصبر.

عاد إلى الصالون، وألقى نظرة عبر ستائره السوداء. كان مايكل وأنجيلا جالسَيْن إلى إحدى الطاولات.

شغّل المايكروفون، وأدار الكاميرا.

– عجبًا كم تغيّر جوناثان منذ انفصالكما. لقد غدا مرتاحًا وهادئًا وإيجابيًا...

– شكرًا لك. كلام يسرّ، ردّت أنجيلا، ممتعِضةً.

– حسنًا، ومجنونًا بعض الشيء، بالطبع...

أخذ مايكل حبّة فجل، وجعلها في مستوى عينيه.

– يا أيّتها الفجلة، يا بديعةً من بدائع الطبيعة! شكرًا لكِ لأنّك تهبينني نفْسَكِ. وتدَعينني آكلكِ، ولأنّك تضحّين بحياتك من أجلي. الحياة تتغذى بالحياة، والإنسان بالفجل!

قضمها بملامح مُستنيرة، ثمّ طحنها بأضراسه مغمضًا عينيه، ماضغًا بوقار وإجلال. قهقهت أنجيلا.

– هذا كلّه ظريف جدًا، ولكن، عليه أن يقرّر العودة إلى العمل. لم تعُد أرقام الشركة تحتمل هذا الركود.

وافقها مايكل، وقد اعتراه القلق فجأة.

– حسنًا إذًا، متى تبيعينني حصّتكِ، كي لا تعودي تعانين الأمرّين كلّما رأيتِ زوجك السابق مُشرقًا جذلًا؟

– لا تأمل بذلك، أبدًا.

– ستغيّرين رأيكِ.

– ثمن حصّتي لن يكفيني للتفكير حتى في إطلاق أيّ عمل آخر.

فجأةً، تجمّد وجه مايكل الثائر والمتململ عادةً. فكّر ريان في أنّ هذا الكاسر الجشِع قد رصد على الأرجح نقطة ضعفٍ لدى محاورته. قرّب اللقطة بعض الشيء.

– إذا أردتِ رأسمال إضافيًا لتطلقي تجارة أخرى، فهناك حلّ.

رفعت أنجيلا رأسها تنظر إليه.

– وما هو؟

– بدل أن تطلبي من جوناثان نفقة شهريّة، اطلبي منه رأسمال، مبلغًا محترَمًا دفعةً واحدة.

هزّت أنجيلا كتفَيها.

– وبعد ذلك، لا أعود أتقاضى شيئًا؟ هذا جنون مطبق. ما زالت كلويه في السابعة...

– على العكس، هذا أكثر احتراسًا وحرصًا: بات جوناثان غريب الأطوار في الآونة الأخيرة، ومن الأفضل أن تحصلي منه على أيّ شيء اليوم، بدل أن تركضي لاهثةً خلفه غدًا. «عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة.»

أطرقت أنجيلا كأنّها تفكّر في كلامه هذا. استمرّت تمضغ طعامها في صمت مطبق، عاقدة الحاجبَين.

– في أيّ حال، قالت بعد هنيهة، سيرفض لا محالة. ليست لديه مدّخرات. يستحيل عليه ذلك.

سلّط ريان العدسة على وجه مايكل. بدا أنّه يكتم ابتسامة النصر.

– سيتدبّر أمره، أجاب بلهجةٍ غامضة. عندما نريد الحصول على المال، غالبًا ما نجد وسيلة.

ارتسمَت تكشيرة على وجه ريان، فيما جال بصره على باقي أنحاء التزاس. رصد طاولة أخرى: فتاتان في خضمّ نقاش حادّ. وجّه العدسة نحوهما.

– مُضحك جدًّا، قالت شابّة سمراء ذات شعر متوسّط الطول ونظّارة قديمة الطراز. ماذا؟ هل أنتِ على علم بشأن الأصهب، موظّف المحاسبة؟ لقد صُرِف. هذا مؤسف، كان لطيفًا للغاية، هذا الشابّ.

– مَن؟

– ولكن تعرفين، الفتى الذي يتولّى تدقيق حسابات الزبائن. نراه من حين إلى آخر، في كافيتيريا الشركة، وغالبًا ما يجلس قرب النافذة.

– آه... عرفته.

– لطيف جدًا.

– كلّا، إنّه مجرّد مغفّل.

– بلى، بلى... أوكّد لكِ أنّه رائع.

– كلّا، دخلتُ مكتبه يومًا، من أجل زبون لم يقبض ماله بعد. لم يشأ أن يُخرِج ملفّه إلّا بعد أن أحضرتُ له رقم تسجيل الزبون. فكان عليّ أن أعود إلى مكتبي... فهمتِ من أيّ نوع هو؟

– آه... هكذا إذًا؟

– نعم، نعم، وذات مرّة، كنتُ بحاجة إليه. دخلتُ مكتبه، وكان يتكلّم بالهاتف. كنتُ أريد أن أستعلِمَ عن أمر بسيط فقط، فجعلني أنتظر حتى أنهى مكالمته. هل قطع المكالمة لحظةً ليسألني عمّا أريد؟ كلّا، إنّه نذل تافه...

تجهّمت السمراء هنيهة، ثمّ قالت:

– صحيح. أنت على حقّ. إنّه نذل تافه.

انفجر ريان ضاحكًا وأوقف التصوير.

هيّا... 12/20، وإلى النشر.

ذكّره المشهد باختبار أجراه علماء نفس: حشدوا عددًا من الممثلين في غرفة واحدة، وقد كانوا جميعًا على علم مسبق بالمجريات، ثمّ أدخلوا متطوّعًا، من النوع المعوز، الذي يقبل أن يتحوّل فأر تجارب لتقاضي بعض المال ريثما تأتي نهاية الشهر. كانوا أقنعوه بأنّ الممثلين هم مثله، عيّنة اختبار؛ راحوا جميعًا يتجاذبون أطراف الحديث، في انتظار بدء الاختبار، فقد قيل لهم أنّ الباحثين سيتأخّرون في الوصول. في الواقع، كان المتطوّع يجهل أنّ الاختبار بدأ فعلًا.

وفي لحظة، طرح أحد الممثّلين فكرة عجيبة، منافية كلّ منطق. وفي طبيعة الحال، راح المتطوّع يرفضها ويناقضها. لا بدّ من الإشارة

إلى أنّها كانت مجرّد حماقة فظيعة، إضافةً إلى أنّها كانت تتناقض مع قيم ذاك الرجل ومبادئه كما بدا.

غير أنّ الممثلين الباقين أخذوا يعبّرون تباعًا عن آرائهم فيها، وكلٌّ منهم يؤيّد وفي حماسة الفكرة التي طرحها الممثل الأوّل. جميعهم دعموا الفكرة عينها، مؤكّدين أنّ تلك هي الحقيقة.

وبعد مرور بعض الوقت، بدا واضحًا أنّ المتطوّع غيّر رأيه. بدايةً، أخذ يشكّ في صحّة موقفه، وظهر تردّده جليًا، ثمّ راح يؤيّد الفكرة تدرّجًا. في نهاية الأمر، كان قد اقتنع تمامًا بالفكرة.

19

كادت كلويه تطير من شدّة الفرح. أمّا رؤيتها مغتبطة هكذا فقد أسرّت والدها إلى أقصى حدّ. وأخيرًا، وفى جوناثان بوعده واصطحبها إلى متحف التاريخ الطبيعيّ.

ركنَ الشيفروليه البيضاء التي أصلحها للتوّ، ومشى الاثنان معًا حتّى مدخل المتحف. كم كان جميلًا أن يشعر بيدها الصغيرة تمسك يده.

كانت السماء زرقاء صافية. لا أثر لضباب الصباح. بل هواء ما زال عليلًا، حاملًا بعضًا من أريج الشجيرات المُزهرة، على امتداد جانبي الدرب المؤدّية إلى المتحف. وفي الأرجاء أصداء كلمات من شتّى اللغات، تَصدح من السيّاح الوافدين مجموعة صغيرة تلو أخرى.

في الداخل، كان المعرض الخاصّ بغابة الأمازون مذهِلًا. في دفيئة عملاقة، أُعيد تشكيل جزءٍ من الغابة الاستوائية، بأشجارها التي ترتفع خمسة عشر مترًا، تتدلّى منها هنا وهناك، نبتات متعرّشة متشابكة، تختلط بمختلف أنواع الشجيرات الغضّة الكثيفة، والنبتات الظليلة المنتشرة. كانت الأضواء خافتة، تُعيد رسم ظلال مطابقة لظلال الغابة الأصليّة. جميعها في أجواء رطبة للغاية، حيث الهواء الساخن الدبق مُشبَع بعطور النبتات الغريبة النفّاذة.

وتشرح لافتات وألواح روعة تنوُّع الثروة النباتيّة في غابة الأمازون، كاشفةً أنّ أغلبيّة شركات صناعة الأدوية والعقاقير في العالم تأتي إلى هذه الغابة تحديدًا، لتدرس النبتات التي ستستخدم في أدوية الغد، مستعينةً في بعض الأحيان، سرًّا وخِفيَةً، بعرّافي الغابة، لتستلهم معرفتهم وخبراتهم. كانت اللافتات تُذكّر بطوق التهديد الذي يفرضه المقاولون على الغابة، والوتيرة السريعة المقلقة التي يدمّرونها بها. لم يستطِع جوناثان تجنُّب حسرة مفاجئة اعتصرت قلبه.

بعد المعرض، انتقل الاثنان إلى بهو تاريخ تطوُّر البشريّة الكبير. ما إن دخلاه حتّى صرخت كلويه عاليًا.

انتصب أمامها هيكل عظميّ عملاق، هيكل ديناصور: كان خطمه الفاغر يكشف عن فكّ مُفرط الحجم مزوّد أنيابًا رهيبة. كان فكّه وحده يبلغ ضعفَي قامة كلويه!

دارا حول العملاق العظميّ، لكنّ فكر جوناثان بقي مشغولًا بغابة الأمازون والأخطار التي تتهدّدها.

فالإنسان المتحضِّر قد أفسد التوازن البيولوجيّ في براريها: في غضون عقود قليلة، حوّلت الزراعات المكثّفة بسلسلة مبيداتها اللامتناهية، هذه الأماكن التي لطالما عجّت في الماضي بآلاف أجناس الحشرات والحيوانات، مساحة جدباء، ميتة، حيث تمتدّ إلى ما لا نهاية، وعلى مئات آلاف الهكتارات، زراعة واحدة لنوع واحد من الحبوب الغلاليّة. مساحة استؤصلت منها كلّ أشكال الحياة الأخرى. خواء، عدم سحيق.

تدمير غابة الأمازون، كما شعر جوناثان، هو الجريمة التي لا يجدر اقترافها، ولا الاستمرار فيها. إنه الخطأ الأخير الذي قد يطيح كلّ شيء.

كان نظر كلويه لا يزال مسمّرًا على الهيكل العظميّ العملاق. مرّ في محاذاتهما وفد من الزوّار تقوده أستاذة مُحاضِرة تتحدّث بلكنة

بريطانيّة محض.

كانت تقول: «قبل انقراضها، كانت الديناصورات قد أصبحت من أكثر الكائنات السائدة على كوكب الأرض، بل وتهيمِن على أنظمته البيئيّة كلّها. لم يعد هناك من حيوان مفترس تخشاه. كانت هي سيّدة البرّ والبحر والجوّ، بلا منازع. باتت الحيوانات كلّها تحت رحمتها، وكذلك النباتات والأشجار: فقد اكتسبت الديناصورات القدرة على تدمير كلّ الكائنات الحيّة الأخرى، واستخدمت تلك القدرة من دون هوادة...»

تبسّم جوناثان عندما تذكّر كلام مارجي: «في تاريخ البشريّة، كلّ الذين سعوا إلى الهيمنة، انتهوا إلى زوال.»

وتابعت المُحاضِرة البريطانيّة: «راحت الديناصورات، في نهاية عصرها تزداد ضخامةً وبدانةً أكثر فأكثر. لم يكن ثمّة ما ينبئ بنهايتها واندثارها المفاجئ، الحدث الذي ما زال حتّى اليوم يشكّل لغزًا كاملًا، على الرغم من الفرضيّات المطروحة.»

– بابا، أنا جائعة!

– أهي الديناصورات التي جعلتكِ تشعرين بالجوع، يا عزيزتي؟

– لم أعد أُطيق الانتظار. أتضوّر جوعًا!

اتّجها إلى المخرج، ودخلا مطعم الوجبات السريعة المجاور للمتحف. اشترى جوناثان سندويشًا كبيرًا من نقانق الـ«هوت دوغ» لابنته، وهامبرغر له، فالتهماهما وهما يمشيان في الحديقة.

– هل كان لذيذًا؟

– لذيذ جدًّا! أجابت كلويه. والصلصة لذيذة، الأفضل في العالم!

كان منظر كلويه تفتح فمها الصغير لتقضم سندويشها العملاق، مقارنةً بحجمها المنمنم، لا يقاوم. في السابعة من العمر، ما زالت تحتفظ بشيء من ملامح الطفلة التي كانت في الماضي: وجنتين جميلتين مكتنزتين، تُزيّنهما غمّازتان عندما تبتسم. أن يكون معها،

برفقتها، وأن يراها تتلذّذ هكذا، هو مصدر سعادة خالصة بالنسبة إليه. كم يندم على السنوات المنصرمة التي كرّسها للعمل الطويل، وذلك على حساب أسرته. كم كانت أنجيلا محقّة في ملامتها له. لم يشأ يومًا الاعتراف بذلك، بل لطالما تحجّج بأنّه يستثمر وقته وجهوده في العمل، من أجلها ومن أجل ابنتهما. من أجل مستقبلهما. كان ذلك صحيحًا، لكنّنا لا نستطيع عيش اللحظة الحاضرة مرّة ثانية. أمّا اللحظات الضائعة فقد ضاعت إلى الأبد. لحسن الحظّ أنّه أدرك ذلك الآن. ما زالت كلويه طفلة، وهو عازم على التمتّع بكلّ لحظة من لحظات علاقتهما، ولو مرّة كلّ نهاية أسبوعين. من الآن فصاعدًا، سيترك هاتفه ورسائله الإلكترونيّة والنصّيّة، وغيرها من تطبيقات الأخبار في المنزل.

– هل الهامبرغر لذيذ؟

– لا بأس به، و...

على بُعد بضعة أمتار، جلس رجل على المقعد الطويل، رجل وجهه مألوف. كان جوناثان رآه من قبل، لكن أين؟ مستحيل أن يتذكّر اسمه... تقاطعت نظراتهما من دون أن يصدر ردّ فعل من الأخير.

ولكن... بلى، بالتأكيد!

– شاهدتك في التلفزيون ذلك اليوم، قال له جوناثان وهو يدنو منه. في تحقيق حول معرض غابة الأمازون.

وافق الرجل مبتسمًا. كان ذلك الهنديّ الذي تحدّث عن الغابة. طريف أن ترى وجهًا لوجه شخصًا مجهولًا لمحته قبل أيّام في الشاشة الصغيرة.

– خلّف حديثك تأثيرًا عميقًا في نفسي. إبادة تلك الغابة أمر مريع. وذلك كلّه من أجل المال.

أومأ الهنديّ موافقًا بصمت.

– على البلدان الأخرى، أردف جوناثان، أن تمارس ضغطًا على البرازيليّين لكي يكفّوا عن هذا التدمير.

رمقه الهنديّ بضع لحظات بنظرة عميقة، فاحصة.

– يمكنك أن تقول ذلك، قال أخيرًا بلهجة غامضة، شبه متفهّمة.

عقد جوناثان حاجبَيه، فيما بقي الآخر يحدّق فيه، في هدوء تامّ، بعينيه المتعاطفتين.

– ما... ماذا تقصد، بالضبط؟

تكلّم الهنديّ بصوت رقيق، لا تشوبه أيّ مرارة ظاهرة، مع أنّ الحديث يطاول المأساة التي تضرب أرض أجداده.

– البرازيليّون يقطعون أشجار الغابة ليحوّلوها إلى حقول لزراعة الصويا وتأمين العلف للأبقار.

– نعم، أعرف ذلك.

نظر طويلًا في وجه جوناثان، نظرة طيّبة سموح إلى حدّ استحال الصمتُ مُحرِجًا. أخيرًا، أضاف الهنديّ، بالنبرة الهادئة عينها والطيبة نفسها:

– هل تعرف لمن تُخصّص هذه الأبقار؟

استغرق جوناثان بعض الوقت لكي يفهم. ومن ثمّ جمد مكانه، وبلع ريقَه. أمّا يده التي كانت تحمل الهامبرغر، فقد استحالت رطبة دبقة. أحسّ بأنّه يحمرّ خجلًا.

بقي في هذه الحال. لحظات مرّت عليه كالدهر، قبالة هذا الرجل النبيل ويا للمفارقة الرحيم والمتعاطِف، الذي كان يحدجه بعينين ملؤهما الطيبة.

20

العالم هو محصّلة أفعالنا الفرديّة.

أن نغيّر ما في أنفسنا هو السبيل الوحيد نحو عالَم أفضل.

عالم أفضل حيث يحلو العيش.

هذه الفكرة ما انفكّت تدور في ذهن جوناثان. كان يتململ في فراشه ولم يغمض له جفن.

العار الذي شعر به أمام ذاك الهنديّ، مرفق بشعور عارم بالذنب، جعله يستوعب ما بات بالنسبة إليه يقينًا.

فغاندي بدأ تغيير ما في نفسه أوّلًا حتّى استطاع قلب تاريخ الهند رأسًا على عقب، ومن دون أن يشارك يومًا في أيّ حكومة. لطالما صوّروه متسلّحًا بثقة هادئة، لابسًا ثوبه القطنيّ الأبيض المتواضع، رافضًا كلّ لقب فخريّ. وتجدر الإشارة أنّه في فترة صباه، كان يعاني خجلًا مَرَضيًا، يخفيه تحت بدلة أنيقة من قطع ثلاث، على أمل أن يلفت الإنكليز. وكان تطوّره الذاتيّ، وتحوّله إنسانًا هادئًا، طيّبًا، عادلًا، مفرغًا من كلّ أنانيّة، هو ما جعله أقوى وأعظم من الإمبراطوريّة البريطانيّة برمّتها، في جيشها ومؤسّساتها.

كذلك الأمر، عندما عاش مانديلا التحوّل الحقيقيّ داخله، استطاع أن يقلب تاريخ أفريقيا الجنوبيّة، من غياهب زنزانته حيث كان سجينًا. وغالبًا ما ننسى أنّ مانديلا في الأساس، كان يدعو إلى الكفاح المسلّح؛

وهذا سبب زجّه في السجن. لكنّه في زنزانته عاش تطوّرًا ذاتيًا استثنائيًا. فهو لم يصبح مسالمًا يرفض العنف فحسب، بل بات قادرًا على الصفح عن أعدائه وجلّاديه الذين أبقوه سجينًا طوال سبع وعشرين سنة، ظلمًا وعدوانًا. ولأنّه استطاع أن يصفح ويعفو تحديدًا، استطاعت بلاده بأسرها أن تعيش في سلام هذا الانقلاب المهول.

أخيرًا، تمكّن جوناثان من إغماض جفنه تلك الليلة، ليراوده حلم عجيب...

كان يطير وسط الغيوم، ثمّ ارتفع فوقها يطفو على بحرٍ من القطن الأبيض، في سماء شديدة الزرقة.

حلّق فوق روسيا، فرأى لينين وبعض الثوّار يتجمّعون في الشوارع. كانوا يردّدون بحماسة شديدة:

«نريد بلادًا عادلة تسودها المساواة.»

عبرت غيوم أخرى، سوداء؛ وعندما انقشعت أخيرًا، لمح جوناثان ملايين الموتى، مكدّسين في كلّ مكان. ثمّ عبرت غيوم أخرى، ومن ثمّ تقدّم الليل، بسرعة فائقة. شعر جوناثان بأنّه تحرّر من قوّة الجاذبيّة. ها هو يدور في بطء حول نفسه في السماء. الغيوم تعبُر سريعًا تحته. فوقه، السماء السوداء. ثمّ النور مجدّدًا عند الأفق، خجولًا، أبيض. في الأسفل، كنائس سان-بيترسبرغ المذهّبة تُصوّب أبراج أجراسها نحو جوناثان. ما حولها، أبنية وعمارات حديثة. وفي الشوارع، سيّارات.

كان لينين جالسًا على قمّة ناطحة سحاب. هزّ كتفيه. ها هو يتكلّم، لكنّ جوناثان يُدرك جيّدًا أنّه صوت مارجي.

«كلّ ذلك لنصل إلى البلد الأقلّ عدلًا ومساواةً في العالم، بلد هو اليوم مسرح الرأسماليّة الجامحة.»

رياح عاتية. عَجِز جوناثان عن الصمود، فدفعته الرياح في سرعة البرق نحو الشرق، تجرجره جرجرةً بين الغيوم. ها هو الآن يحلّق فوق

الصين، وتحته في البعيد، ماو، يعلن سياسته الاقتصاديّة الجديدة، وعلى شفتيه شبه ابتسامة:

«ستُتيح لنا القفزة العظيمة للأمام زيادةً مهولة في إنتاجنا الزراعيّ.»

تكدّست الغيوم من جديد، شديدة السواد. انبثق صوتُ مارجي من العدم:

«في السنوات الثلاث التي تلَت، مات ثلاثون مليون شخص جوعًا في الصين.»

برق يخترق الأجواء طاعنًا ظلمة الليل في الصميم. ثمّ تنقشع الغيوم.

ها هو جوناثان يطير فوق فرنسا، رصد بورغندي التي لطالَما أحبّها في طفولته. محاريث مربوطة إلى ثيران وأبقار في مروج تتخلّلها التلال. وخلف إحدى الغابات تظهر باريس - عربات بسطح متحرّك تجرّها جياد، وعربات الأجرة، وصياح سائقي العربات في أزقّة ضيّقة، موحِلة، نتنة. استحالت الشمس أفقيّة، تغمر السطوح بتموّجاتها البرونزيّة. روبسبير يلقي خطابًا في نادي اليعاقبة. صريحًا، حالمًا، مثاليًا.

«إلغاء امتيازات الطبقة الحاكمة...»

ثمّ المقصلة. رؤوس تتدحرج. رائحة الدماء اللاذعة. شوارع تفيض بمادّة حمراء لزجة، تتدفّق في الجادّات. باريس استحالت حمراء. في ساحة كونكورد يقف روبسبير، شاهدًا على الدماء المُراقة. تمرّ أمامه سيّارة تتقدّمها درّاجات ناريّة. ينشقّ بحر الدماء أمام الدرّاجات الضخمة. يصفّق روبسبير. داخل السيّارة، رجل يردّد بلا انقطاع، وبلهجة صادقة:

«أنا في خدمة المواطنين.»

ها هي الدرّاجات الناريّة تتبعها السيّارة، تعاود صعود شارع رويّال.

«أنا في خدمة المواطنين.»

ينعطف الموكب يسارًا، ويدخل ضاحية سانت-أونوريه.

«أنا في خدمة المواطنين.»

يمرّ تحت مدخل قصر الإليزيه المسقوف. يترجّل الرجل من السيّارة.

«أنا في خدمة المواطنين.»

السجّاد الأحمر في انتظاره. يقف الحرس الجمهوريّ بالزيّ الأسود والذهبيّ، والقبّعات ذات الريشة الحمراء، سياج شرف. يمشي الرجل على امتداد السجّاد الأحمر، يدخل القصر، يجتاز قاعاته الواسعة المزدانة بزخارف الخشب المذهّب والأنسجة المطرّزة الحريريّة، ويقترب من السلالم.

يتأهّب الخدّام على الفور. ينحني أمامه رئيس الخدم، بقفّازيه الأبيضين، مقدّمًا له أفخر أنواع المشروب.

كبير الطُهاة ينحني إجلالًا، ويعرض أمامه طبقًا كبيرًا من الفضّة مليئًا بأجود المأكولات وأشهاها.

يصعد الرجل السلالم.

فوق، تتوالى تحيّات الانحناء، يؤدّيها أعضاء مجلس المستشارين.

ممثّلة حسناء تتعرّى أمام كرشه البارز، تحاول إغواءه.

يفتح الخدم الأبواب أمامه، وينحنون عند مروره.

ها هو يتوقّف عند مدخل مكتبه. ينعكس النور تموّجات أخّاذة على الزخارف المذهبة الكثيرة. يلتفت الرجل، يقيس بنظره خدمه، ومستشاريه، وحرسه، وطُهاته جميعًا، ويُعلِن:

«المواطنون في خدمتي.»

في تلك اللحظة بالذات، يبدأ رأسه الانتفاخ، ينتفخ، وينتفخ... يمتلئ بالهواء، ينتفخ كقِربَةٍ من جِلد، يتغيّر شكله، يتشوّه، يحتلّ نصف مساحة المكتب الواسع. بعد ذلك، تنفرج شفتاه المتورّمتان، ثمّ

تنطبقان، تنفتحان ثمّ تنطبقان إلى ما لا نهاية، كفكّ سمكة بدينة، ومن ثمّ يبدأ نفث الريح، الريح، ومزيد من الريح.

يهرع صحافيّ ويضع أمام الرأس الرئاسيّ الفارغ كجوف طبل ميكروفونًا من البلاستيك الزهريّ، يتّسع متفرّعًا عند قاعدته إلى دائرة، دائرة مغطّسة في الماء والصابون، وعندئذٍ تنبعث الفقّاعات، فقّاعات، وفقّاعات إلى ما لا نهاية.

غير أنّ الرجل يواصل الانتفاخ، إلى أن ينفلت منه فجأةً الغاز كلّه في صفير متواصل. عندئذٍ، يبدأ التنفيس، كبالونة هشّة، مثقوبة. وإذ يندفع الغاز منه في صخب شديد، يرمي به إلى الأعلى، ليطير مرتطمًا بجدران الغرفة كلّها، قبل أن يُقذف عبر النافذة المفتوحة. يطير في دوائر، فوق بلاط الإليزيه، ثمّ يمرّ فوق السجّاد الأحمر الذي يطأه في الوقت نفسه رجل آخر يردّد بلا انقطاع:

«أنا في خدمة المواطنين.»

وفي تلك اللحظة تحديدًا، عند ضفّة نهر السين المقابلة، يبدأ عشرات النوّاب ذوي الرؤوس المنتفخة التنفيس أيضًا، مرّةً واحدة، لينقذفوا وسط الصفير عينه عبر نوافذ مجلس النوّاب. في ضجيج وضوضاء، يطيرون في الجوّ، محلّقين فوق محلّة سان جيرمان صعودًا إلى حدائق لوكسمبورغ. عندئذٍ، تسفطهم نوافذ مجلس الشيوخ، ليعاودوا السقوط في ارتخاء وخمول، مترهّلين مُسطّحين كدمى مطّاطيّة متحرّكة أُفرغت من هوائها، على مقاعد فخمة من المخمل الأرجوانيّ، حيث يغفون على الفور، راقدين وسط أزيز يذكّر بأمعاء أخرجت حثالة غازاتها.

21

مرّر غاري أصابعه في لحيته. عجيب أنّها ما زالت سوداء، على الرغم من المتاعب التي يُراكمها منذ وفاة زوجته.

من كوّة المطبخ، صاح للأولاد الذين كانوا يضجّون في الفناء:

– اهدأوا يا أولاد! أنتم تزعجون الجميع!

لم يعد يحتمل جلبة الأولاد. صيف كامل يمضونه في هذا الفناء، وتحديدًا في هذا الجزء الضيّق من الحديقة، الذي يكاد يقلّ حجمًا عن فوطة مطبخ. أمر لا يُطاق. لماذا تُعطي المدارس كلّ هذه العطل الطويلة؟ طبعًا، لمضايقة الأهل! حبّذا لو يبلغون السنّ التي تخوّلهم العمل أثناء عطلة الصيف لكي ينشغلوا قليلًا. لكنّ الأمر ما زال بعيدًا بعض الشيء...

في أيّ حال، لو لم يكن مسؤولًا عن تأمين قوت الأولاد، لأقفل مخبزه منذ زمن. لَوَجَدَ عملًا آخر. وظيفة سهلة وأكثر هدوءًا، وخصوصًا لا تنطوي على التعاطي مع الزبائن. فالزبائن هم بمثابة الجحيم. مجرّد حفنة من الناس لا تعرف ما تريد، غير مهذّبة وغير لطيفة، وغير راضية على الدوام. آه لا، هذه مفرطة النضوج، وتلك صغيرة جدًا، وأخرى كثيرة الحلاوة، أو ساخنة جدًا، أو لم تنضج جيدًا أو كبيرة جدًا، باردة، غير ساخنة بما فيه الكفاية، كثيرة الدسم، قليلة الحلاوة، باهظة الثمن... ثمّ هناك مَن هم دومًا على عجل، يبثّون التوتّر

في الأرجاء إلى حدّ إفساد اختمار العجين. أو على العكس تمامًا، يريدون أن يقصّوا عليك سير حيواتهم بالتفاصيل المملّة، في حين أنّ اللافتة لا تقول أنّها عيادة طبيب نفسانيّ أو مقرّ إرشاد روحيّ.

في الخارج، بلغ صياح الأولاد ذروته. لم يكن والد غاري ليسمح بذلك قطّ. ولو كان حاضرًا الآن، لصبّ عليهم جامَ غضبه، وأدّبهم تأديبًا. تناول مغرفة الفطائر، وطرق بها طرقات متتالية على زجاج الكوّة. فعادت الأجواء هادئة في الخارج.

أما الناس فليسوا من النوع الخَدوم. ذلك اليوم، لم يتمكّن من لفّ ستارته التي كادت تقتلعها ريح قويّة. وقف وحده هناك، يصارع تلك اللعينة التي ما انفكّت تُفلت من يده. كان ثمّة مارّة على الرصيف المحاذي. فهل تحرّك أحدٌ منهم ليعرض عليه المساعدة؟ مطلقًا. كلٌّ يسعى خلف رزقه، وليذهب الآخر إلى الجحيم.

انفتح الباب على صبيّة حسناء، متأنّقة، من النوع الذي قد يقول: «كثيرة الدسم».

– صباح الخير. اعذرني. ألديك فكّة عشرين دولارًا؟ أحتاج إليها لعدّاد الوقوف...

نظر إليها غاري، ثمّ هزّ رأسه، نافيًا.

– لا فكّة لديّ.

لم أعلّق على باب المخبز لافتة تقول: صرّاف. يجب التصرّف بصرامة منذ البداية، وإلّا فسيستغلّ الناس الوضع، ويتوافدون طوال النهار، وفي النهاية تجد نفسك كالأبله أمام صندوق مليء بالأوراق النقديّة وخالٍ من الفكّة.

أخرج غاري من الفرن صينيّة ملأى بالمافين الساخن والذكيّ الرائحة.

– لو تركتُ الصينيّة عشر ثوانٍ إضافيّة، تمتم متأفّفًا، كِدتُ أحرقها بأكملها.

دخل المخبز رجل في الثلاثين من العمر تقريبًا. كان يبتسم. مُريب إذًا. عقد غاري حاجبَيه.

– صباح الخير، بادره الرجل بلهجة مرحة، كأنّه يخاطب أصدقاء له في حفلة سمَر.

أومأ غاري برأسه، وانتظر.

– جاك مورفي، قال الرجل وهو يمدّ له بطاقته.

ألقى غاري نظرةً مواربة على البطاقة، ولم يأخذها.

«جاك مورفي، مندوب مصنع دياموند للشوكولاته.»

– ماذا تريد منّي؟

تجمّدت ابتسامته، في إشارة إلى نوايا مشكوك في أمرها.

– لا شيء، لا شيء، قال مُبرِّرًا، باذلًا جهدًا مُريبًا هو الآخر للإبقاء على ابتسامته. أتيتُ لأتكلّم معك، ليس إلّا.

حدّق فيه غاري، ما يكفي من الوقت لتظهر ملامح صادقة على وجهه.

– ربّما لستُ في المزاج المناسب لذلك.

تنحنح الآخر، مُحاولًا الضحك عنوةً، وقد فقد رباطة جأشه.

يجب أن تهزّ أبدان الناس، لتعرف ما يخفون دواخلهم. هيّا، فلتقل ما لديك.

– الشركة التي أعمل لديها، تصنّع تشكيلة من حُبيبات الشوكولاته وتعرضها في أسعار تشجيعيّة جدًا على أصحاب المهن المختصّين. وكنت أتساءل عمّا إذا...

– عندي كلّ ما يلزمني.

– ولكن...

– كلّا. لا أحتاج شيئًا.

– ألا تريد أن أطلعكَ على النسب التي قد توفّرها في نفقاتك؟

تنهّد غاري. لا، لم يكن يريد. نظر في عينَي الرجل، ولم يعد ينبس ببنت شفة. استمرّ يحملق فيه، هكذا، من دون أن يتفوّه بكلمة. تكتيكه المفضّل، الصمت. إن اعترضتَ أو احتججتَ، فقد يُخرج أمثاله ردًّا جاهزًا، على كلّ شيء وأيّ شيء، ردًّا محضّرًا مسبقًا ومحفوظًا عن ظهر قلب. فالأفضل إذًا هو الحفاظ على الصمت. ليس هناك من حجج بارزة يتمسّك بها لئلّا يزلّ لسانه. وعندما لا يكون هناك من نتوءات، يسهل الانزلاق.

تنحنح الرجل مرّةً أخرى، ثمّ نظر إلى ساعته.

– حسنًا إذًا... أعتقد أنّني سأنصرف الآن.

«وهو كذلك. هيّا انصرف.»

– إلى اللقاء.

ردّ غاري بحركة خاطفة من رأسه.

في الخارج، عاد الأولاد يزعقون.

ما إن انغلق الباب، حتّى انفتح مجدّدًا، ودخل زبون. من النوع الذي قد يقول: «ناضجة أكثر من اللزوم». تبِعه زبون آخر مباشرةً. وجه مألوف. موظّف شركة التأمين، الذي يأتي من حين إلى آخر، لتناول فطور الصباح.

كان حاول قبل بضعة أشهُر أن يبيعه بوالص تأمين. «للبقاء في مأمنٍ من المشاكل»، قال له. كأنّما ذلك ممكن. فإمّا يعتقدني مغفّلًا، أو إنّه هو مَن لم يفهم الموضوع برمّته.

فالمشاكل عندما تُلازمكَ على الدوام، لا تعود تُسمّى مشاكل، بل تسمّى أسلوب حياة. وعندما تكون الأمور على أحسن ما يرام، عليك التيقّظ. والحالة هذه، يومض ضوء صغير أحمر في رأسك، فتقول في قرارة نفسكَ: ثمّة مشكلة.

22

6 -3؛ 6 -2؛ 5 -3.

أوستن يستعدّ لإرسال الكرة إلى خصمه السويديّ الأشقر. شوط واحد ويفوز في المباراة، ويضمن مكانه في الدور ثمن النهائي من البطولة. ضرب الكرة ثلاثًا في الأرض أمامه، نظر إلى الملعب قبالته، ومن ثمّ ضربها ثلاثًا أخرى. بعد ذلك قذفها عاليًا في الهواء، وجهّز ذراعه بحركة واسعة و... أحسّ بألم شديد في الكتف.

تركَ الكرة تسقط أرضًا، من دون أن يمسّها. قلِقًا، تلمّس كتفه بيده اليسرى وتحسّسها في محاولة لاكتشاف مصدر الألم، لكنّ الأخير كان قد زال. حرّك كتفه ببطء في كلّ الاتجاهات ثمّ دلكّها برفق. لا، لا شيء. حركة خاطئة، لا أكثر.

أخذ كرة جديدة. ضربها على الأرض ثلاثًا، ألقى نظرة على الملعب قبالته. ثمّ ثلاثًا أخرى. انطلقت الكرة، جهّز ذراعه، وسدّد ضربة قويّة.

أحسّ بكتفه تتمزّق من شدّة الألم.

تسمّر مكانه، تاركًا الكُرة ترتدّ إليه، من دون القيام بأيّ حركة.

أعلن الحكَم: 15 -0.

صفّق الجمهور.

لا بأس إن خسر هذا الشوط. فالأهم هو صون الكتف ثمّ استشارة الطبيب، قبل خوض الشوط الثاني.

سدّد الكرة التالية بضربة مفاجئة من تحت ذراعه، على نحو ما كان مايكل تشانج يسمح لنفسه في عصره الذهبيّ.

فوجئ الخصم إلى حدّ أنّه لم يتمكّن من تلقّف الكرة إلّا في اللحظة الأخيرة، بعدما ركض حتّى الشبكة تقريبًا. سدّد أوستن ضربة «لوب» وسجّل نقطة.

أعلن الحَكَم: 15 للجميع.

لكنّ الضربات التالية، والتي أتت كلّها من تحت الذراع، لم تعد تفاجئ الخصم السويديّ، الذي لم يحتج إلى أكثر من خمس دقائق ليفوز في الشوط.

بينما كان أوستن يعود إلى مقعده، ذكّرته عاصفة التصفيق بأنّه لم يكن مُحبّبًا إلى قلوب الجمهور حتّى على أرض ملعبه. لِكثرة ما نعته المعلّقون بالبارد وعديم الإحساس، انتهى الأمر بأن فصلوه عن جمهوره.

هرع الطبيب إليه وفحصه. وسرعان ما أتى التشخيص: التهاب وتر حادّ في عضلة فوق الشوكة. على الفور، أخرج من جعبته عبوّةً مبرِّدة، ورشّ رذاذها على الكتف الموجِعَة. أحسّ أوستن بصقيع الغاز ينتشر على كتفه التي سرعان ما غطّتها تبلّرات بيضاء صغيرة.

– افتح ذراعكَ واطوها من جديد، قال الطبيب. بِمَ تشعر؟

– لا شيء يُذكر.

أوشكت استراحة الدقائق الثلاث على الانتهاء. يجب مواصلة المباراة. ولكن، لماذا يواصلها أساسًا؟ لم يكن أوستن ليستوعب أو يتقبّل حتّى ما يحصل. فهو لن يدَع حلمَه يتحطّم أمامه، هكذا، ببساطة. بطولة حياته، الرقم القياسيّ، دخول التاريخ... ذلك كلّه يذهب هباءً بسبب التهاب بسيط في الوتر... كلّا، هذا غير معقول. لعلّه كابوس عابر؛ إنّه الليل ولا بدّ أنّه يحلم الآن. قولوا لي أنّني أحلم...

«انتهى وقت الاستراحة.»

عليه أن يستجمع قواه، أن يكافح حتى النهاية، كما كان يفعل على الدوام. يجب ألّا يذعن. يجب أن يتشبّث. ولطالما أتقن ذلك.

مشى حتّى آخر الملعب. كان اللاعب السويديّ يتأهّب لضربة الإرسال. لمح تغيّرًا بسيطًا في وضعيّته، تغيّرًا لم تتنبّه له عيون المتفرّجين، بيد أنّ أوستن تبيّنه في عينَيْ خصمه وفي وقفته. شيء دقيق ولكن جوهريّ: بدأ السويديّ يؤمن بفوزه. لقد استطاع أوستن إدراك ذلك، ورؤيته حتّى. وقد عرف تمامًا معناه. كان اللاعبون في معظمهم، وما لم يعانوا القلق الشديد، يعانون الضعف والوهن لمجرّد فكرة مواجهة البطل الذي فاز في كلّ مبارياته، على مدى أحد عشر شهرًا متتاليًا. متى وقف لاعب قبالته على أرض الملعب، كان أوستن يلمح في عينيه أنّه غير واثق في كسب المباراة، في حين أنّ أوستن نفسه ما كان ليشكّ ولو لحظة في أنّه سيفوز.

رمى الفتى الواقف في الجهة المقابلة كرتين إلى خصمه. أوّل مرّة، ومنذ سنين كثيرة، قد تختلّ المعادلة تلك وربّما تنقلب رأسًا على عقب. كان أوستن يخشى أن يعود الألم ويعيق آداءه. كانت تلك الخشية، والشكّ الطفيف الذي تولّده في ذهنه، في حدّ ذاتهما مشكلة. فأوستن يعي تمامًا وعن خبرة، أنّ ثقة لاعب إذا ما اقترنت بشكّ اللاعب الآخر وتردّده قد تجعل المباراة بلا جدوى، إذ تصبح النتيجة معروفة سلفًا.

في تلك اللحظة، بادر أحد المتفرّجين بمحاولة فاشلة لإطلاق صرخة حماسيّة، انتهت مخنوقة بحشرجة خشنة أثارت بضع ضحكات بين صفوف المتفرّجين، فالتفتَ أوستن التفاتةً خاطفة صوب المدرّجات، الأمر الذي لا يحدث عادةً لشدّة تركيزه على اللعب. في التفاتته هذه، وقع بصرُه وبشكل غير متوقّع، على الصحافيّة التي أجرت معه مقابلة أخيرًا، واصفة إيّاه بالبارد وعديم الإحساس تجاه الآخرين. وما لمحه في عينيها جرحه في الصميم: فهي كانت تبتسم.

تبتسم أمام وضعه الحرج. تلك التي اتّهمته بأنّه عديم الإحساس، تستمتع الآن بالألم... الذي يحسّ به هو.

هذا الموقف المجحِف في حقّه صدمه، ملهبًا ثورة داخله. اجتاحه غضب عارم. غضب مكبوت، شرّير وشديد سَرى في أنحاء جسمه، وملأ رئتيه بنَفَسِ الانتقام. أحسّ بعضلات ذراعه تتمدّد، وقوّته تتضاعف وتستولي عليه كلّه، فترفعه معها.

رمق عينَي خصمه، ورأى فيهما أنّ الأخير قد لاحظ التغيير. رصده وبات يعلَم.

يعلم أنّه لم يعُد لديه أيّ أمل بالفوز.

23

«مرحبًا جوناثان،
هذه رسالة إلكترونيّة مختصَرَة لأقول لك أنّني فكّرتُ مليًا بعد لقائنا الأخير على تراس المقهى. تعرف صراحتي ولن أتبِع أساليب ملتويَة: يبدو لي بدهيًا أنّك تفضّل عدم العودة إلى العمل.

لقد وجدتُك في أحسن حال، إيجابيًا، بشوشًا، وأفضل بكثير ممّا كنت عليه يوم كنت تداوم في المكتب. لعلّ هذه المهنة لا تناسبك، في النهاية، وبالتالي يُستحسن أن تغيّرها.

علاوةً على ذلك، قد تكون تلك الوسيلة الأنجع لحلّ مشكلتك مع أنجيلا. عليك الاعتراف، ليس بالأمر الحسَن ولا المفيد أن تستمرّ في مقابلتها كلّ يوم.

إذا وافقتني، فمن الأفضل قوننة الوضع، بدلًا من ترك الأمور تتفاقم، وليس فيها مصلحة لأحدٍ منّا.

عليه، كنتُ ذكرتُ فكرة شراء حصّتك. كانت مجرّد فكرة مطروحة، هكذا، إنّما يبدو لي الآن أنّه من الأفضل أن أكتبها، وخصوصًا، أن أكون واضحًا ودقيقًا في الشروط التي أقترحها عليك.

لقد استعلمتُ عن الأمر: مع أخذ مجموع مبيعات الشركة في الاعتبار، ونسبة المخصّصات، والأرباح والعائدات وأيضًا وضعيّة الشركة التي ما

زالت هشة، فإنّ قيمتها لا تزيد عن 450 ألف دولار. أنت تملك ثلث الأسهم. وبالتالي، أنا مستعدّ لأدفع لك 150 ألف دولار، أي مبلغًا لا بأس به. وهو ما لا يُقدّم على طبق من فضّة كلّ يوم.

هذا يبدو لي الحلّ الأمثل لنا جميعًا، خصوصًا لكَ ولأنجيلا.

حسنًا إذًا، فكّر في هذا الاقتراح، وابعث لي بردّك سريعًا. فقد يحتاج المحامي إلى بعض الوقت لإنجاز المعاملات.

إلى اللقاء يا صاح،

مايكل.»

أطفأ جوناثان هاتفه ووضعه في جيبه. صحيح أنّ مايكل اقترح ذلك من قبل، لكن، أن يرى الاقتراح مكتوبًا، ومرفقًا بأرقام، أثار فيه شعورًا غريبًا. كأنّ الاقتراح بات رسميًا، بالتالي أقرب إلى الأمر الواقع. أحسّ جوناثان بانقباض في صدره. نعم، كانت هناك أمور صغيرة تزعجه في مهنته، لكنّ هذا العرض الباتّ والحاسم، جعله يعي أنّه غير جاهز للتخلّي عن كلّ ما بناه. لا، ليس بعد. هذا المكتب، لقد أسّسه، تفصيلًا تلو آخر، في تعاون مع شريكَيه. فهو بمثابة وليده. نعم، هو وأنجيلا انفصلا، ونعم في ذلك مشكلة، لكنّ أنجيلا احتفظت بولدهما الأوّل، والحقيقيّ، وأمّا هو فلن يتخلّى عن الثاني.

دفع جوناثان باب مخبز غاري، فاستقبلته رائحة البنّ المطحون الطازج، تخالطها رائحة الدونات الساخنة.

– صباح الخير!

ردّ غاري بتمتمة غير مفهومة.

– من فضلك، قطعة مافين عاديّة، وأخرى بالزبيب.

– هل ستتناولها هنا؟

– سآخذها معي.

– دولاران و35 سنتًا. قال غاري وهو يلفّ المافين في كيسين صغيرين من الورق الأبيض.

ناوله جوناثان ورقة من فئة عشرة دولارات. في اللحظة نفسها، رنّ جرس الهاتف، فرفع غاري السمّاعة، وهو يُعيد الفكّة إلى جوناثان.

– ماذا الآن؟ ها، ماذا؟ قال بنبرة مستاءة، تلك النبرة العكرة التي يحتفظ بها للأيّام السيّئة.

ثمّ وضع على المنضدة سبعة عشر دولارًا و65 سنتًا.

– لستُ بحاجة إلى شيء، أجاب متأفّفًا، كلّا، أبدًا.

أقفل الخطّ، وهو يزمجر بصوتٍ خافت. أخذ جوناثان النقود، وهو يحاول كبت ابتسامة راضية.

إنها المرّة الأولى التي يُرتكب خطأ لمصلحته وليس على حسابه. هذا يوم سعده.

– طاب يومك. قالها وهو يهمّ بالمغادرة.

– ويومك...

مشى جوناثان نحو الباب، بيد أنّ الرضا الذي بدأ يحسّ به، خالطه فجأةً شعور غريب. شعور لم يعهده من قبل، جديد كليًا بالنسبة إليه. توقّف، ومن دون أن يأخذ وقتًا للتفكير، عاد أدراجه تلقائيًا، مُذعنًا لنوع من الغريزة.

– هل من مشكلة؟ بادره غاري مقطّبًا حاجبَيه.

– أرجعت لي عشرة دولارات زائدة.

وضع جوناثان الورقة النقديّة على المنضدة. أخذها الآخر، من دون التفوّه بكلمة، ووضعها في الصندوق.

خرج جوناثان من المقهى مجدّدًا إلى الشارع. استنشق الهواء المُنعش ملء رئتيه. فجأةً شعر بأنّه في أفضل حال، خفيفًا، فخورًا بنفسه. شعور بسيط ولكن رائع. أن يُدرك الطيبة الكامنة في نفسه. شعور مبهج بعمق.

بدت له السماء أكثر زرقة، والشمس أكثر إشراقًا. ابتسمت له امرأة وهي تمرّ قربه.

مشى حتى ترّاس المقهى، وجلس بين عدد من الزبائن. كان بعضهم ممن اعتادوا ارتياد المقهى، مألوفي الوجوه، وآخرون عابري سبيل وسيّاح. في الطرف الآخر من الترّاس، جلست سيّدة وحيدةً، تحدّق أمامها بعين كئيبة ضجرة.

طلب كوبًا كبيرًا من القهوة.

إلى جانبه، جلس شباب يتمازحون ضاحكين. وعلى بعد بضع خطوات، كانت المرأة الجالسة وحدها، في كآبة وإحباط. كان التناقض بين مزاجه ومزاج تلك المرأة المجهولة صارخًا، إلى حدّ الإزعاج.

أشاح بنظره عنها، محوّلًا انتباهه إلى ضحكات الشباب القريبين منه. لامبالاتهم الفرحة، تبعث البهجة في النفس. كان كلّ منهم يشي بشيء من الإيجابيّة والخفّة والحماسة المَرِحة.

قُدّمت قهوته ساخنة، يتصاعد منها البُخار. راح يقضم قطعة مافين، في انتظار أن تبرد قليلًا. لذيذة بحقّ. كيف يمكن شخصًا مُنفّرًا مثل غاري أن يصنع حلويات لذيذةً كهذه؟

في محاذاته، واصل الشباب أحاديثهم الفرحة، وشعر جوناثان بالبهجة والارتياح لرؤية مزاجهم المَرِح.

لكن، بعد هنيهات، لم يستطِع الامتناع عن النظر مجدّدًا إلى المرأة الوحيدة. حاول تجاهل وجودها، لكنّه لم يوفّق. كانت لا تزال تحملق أمامها بملامحها الكئيبة.

راقبها جوناثان مطوّلًا، ثمّ خطرت له فكرة، فأومأ إلى النادلة. اقتربت منه، منتعلة حذاءها الرياضيّ الأبيض ذي الرباط الأحمر؛ حذاء غريب يرتفع حتى كاحلها أو أكثر. كلّمها بصوت خافت إلى حدّ جعلها تنحني لتسمع ما يقول.

– هل ترين المرأة الجالسة هناك في زاوية الترّاس؟

– مَن؟ السمراء ذات الشعر المتوسّط الطول؟ أجابته بلكنة تكساس الصارخة.

– نعم، تقدّمين لها فنجان قهوة، وتقولين أنّه تقدمة من شخص يفضّل أن يبقى مجهولًا. وأدرجيه على فاتورتي.

– أوه! لا أعرف ما إذا كان يحقّ لي أن أفعل...

– يحقّ لكلّ الناس أن يصنعوا الخير، أجابها جوناثان في لهجة حازمة.

أذعنت النادلة، وراح جوناثان يتساءل عمّا إذا كانت كلماته هي التي أقنعتها، أم ثقته في نفسه. بعد دقائق معدودة رآها تتّجه صوب السيّدة السمراء وتضع فنجان قهوة على الطاولة أمامها. هزّت المرأة رأسها وتبادلت الاثنتان بضع كلمات. وخلال لحظة، نظرت المرأة حولها، فانهمك جوناثان بالتهام المافين وهو ينظر إلى قهوته. في مرمى نظره، بان الحذاء الأبيض والأحمر يعود أدراجه، ثمّ يمرّ قربه.

انتظر لحظة، ثمّ ارتشف رشفة، ليستطيع رفع رأسه ويسدّد نظرة في الاتّجاه المنشود.

عادت المرأة إلى وضعيّتها الأولى، لكن، هذه المرّة، لاح على شفتيها طيفُ ابتسامة خفيفة، والتمع في عينيها وميض جميل، وإن طفيف.

استعاد جوناثان الشعور العميق، ذاك الذي انتابه وهو يخرج من مخبز غاري، شعورًا مبهجًا إلى درجة كان مستعدًّا لفعل المستحيل، كي يبقى فحسب في هذه الحالة.

فقد تذكّر الآن أنّه كان يحسّ بالشعور إيّاه وفي صورة شبه منتظمة منذ سنوات خلت. كان ذلك في بداية مهنته، عندما استهلّ عمله كوكيلَ تأمين. كان يقدّم للناس ما يقيهم غدر الزمن والمحن التي قد تُصيبهم، وما يبقيهم في مأمن، وبالتالي، يمكّنهم من العيش في طمأنينة. راح يتذكّر الفرح الذي كان يجلبه له دوره هذا. كان ذلك في

البداية. في البداية فقط. بعد ذلك، أخذ الفرح يتراجع شيئًا فشيئًا، حتّى امّحى وزال تمامًا، إذ كرّت سبحة الضغوط والمتطلّبات المهنيّة والمنافسة الشديدة مع مايكل وحاجاته الشخصيّة المتزايدة، فدفعته إلى إزاحة نقطة التركيز لتميل نحو خانة مصالحه الشخصيّة ليس إلّا.

تدرّجًا، ومن دون أن يعي ذلك حتّى، ترك تلك الأمور تفسد روحه الطيّبة، حتّى أنّه بات يعمل من أجل النتيجة، لا من أجل الرسالة التي حملته أساسًا في اتّجاه النهج الذي اختاره. أمور أخذت تستأثر باهتمامه وانتباهه، فباتت هي مصدر تحفيزه. تمامًا مثل سيّارة مجهّزة بمحرّك إضافيّ، يحلّ شيئًا فشيئًا محلّ المحرّك الأصليّ، فيقود السيّارة المذكورة إلى أقرب كاراج تصليح.

بسلوكه هذا، تاه في النهاية، مبتعدًا من المشاعر الصادقة والصافية، الصادرة من فرح العمل بحسب القيم الأخلاقيّة والاستماع إلى ما يُمليه القلب.

– هل تحتاج إلى شيء آخر؟ سألته النادلة، وهي تضع الفاتورة الثانية على الطاولة.

رفع جوناثان ناظريه إليها، وابتسم.

– لا شيء. شكرًا.

رآها تبتعد، متأبّطةً لائحة الطعام.

أدرك جوناثان في تلك اللحظة كيف يريد تمضية الوقت المتبقّي له في الحياة... ويدرك جيّدًا أيّ شعور يريد أن يشعر به، وكيف سيستحصل عليه.

24

دفع ريمون باب مطعم ستيلّا وجلس إلى البار. قُدِّم له مشروبه من دون أن يتكبّد عناء طلبه. وهذا امتياز يقدّره كلّ مرّة، ويعتزّ به. بشعره الأشقر الذي يخالطه الرمادي المشعّث، تثبّته كاسكيت حمراء، فتزيد سحنته المائلة إلى الأحمر في الأساس حمرةً. كان ريمون من أقدم المصوّرين المعتمدين في فلاشنغ ميدوز. إحدى وأربعون سنة في الخدمة. حسنًا ليس تمامًا، فقد بدأ العمل مساعدَ مصوّر. لكنّ الأمور كانت تسير على هذا النحو آنذاك: ثلاث سنوات يمضيها مُساعدًا، وذلك لفهم خيوط المهنة، ومراقبة المصوِّر، ومعاينة طريقته في العمل، وكيف يتصرّف لينسى الجمهور وجوده، حين يرتبك الشخص الذي تُجرى معه المقابلة أو يتأثّر وما إلى هنالك. ثمّ إنّ ذلك التدريب كان كفيلًا بتقوية عضلات الذراعين وصقلها. قد نخال أنّ الإمساك بعصا الميكروفون مهمّة سهلة: والحقّ أن تلك العصا ليست ثقيلة، لكن حين تُمسك هكذا بذراعين ممدودتين على مداهما، مدّة ربع ساعة، من دون أيّ حركة، فهي تسخّر العضلات وتقوّيها أكثر من أيّ آلة من آلات النوادي الرياضيّة التي يستعملها الشبّان لنفخ عضلات صدورهم وصقلها، وهم يحلمون في أن يضاهوا نجوم الراب صلابة. بالفعل، كانت المهنة تتطلّب ذراعين قوّيتين، فالكاميرات آنذاك، كانت أثقل من برميل من المشروب.

– مرحبًا راي، كيف حالك؟

– لا بأس.

مرّ روجيه فيديرير، يحيط به مدرّبه واثنان من الملحقين الإعلاميّين.

ما كان أمر ليُسعِد ريمون أكثر من أن يناديه أحد اللاعبين بشهرته. فذلك اعتراف صريح بدوره وخبرته الطويلة. فقد كان يبذل قصارى جهده من أجل اللاعبين: يصوّرهم في أبهى حلّة، يلتقط لهم أفضل اللقطات، يزيل منها كلّ عيب أو شائبة، ينتقي أفضل إنارة ويلتقط الملامح والتعابير التي تُبرز جمالهم وإنسانيّتهم وصلابتهم في آن واحد. هذا فنّ قائم في ذاته، وكان اللاعبون في معظمهم يعترفون له بذلك ممتنّين، وإن لم يعوا تمامًا ما يفعل من أجلهم وما يبذل.

لم يكن كأولئك المصوّرين الجدد، المتخرّجين حديثًا في المعاهد. فالأساتذة يحشون رؤوس هؤلاء بالنظريّات الحذقة الرائعة، لكنّهم لا يلقّنونهم أسرار المهنة. والنتيجة: لم يمسّوا كاميرا يومًا، ومع ذلك، يحسبون أنفسهم ستانلي كوبريك.

نزع ريمون قبّعته ليهرش فروة رأسه، ثمّ أعادها. قبّعته الحمراء فخر له، يعتزّ بها كثيرًا. يعتمرها منذ إحدى وثلاثين سنة. لم يتركها يومًا واحدًا. والسبب، لا أحد يتخلّى عن قبّعة قدّمها له جيمي كونورز «بذاته». نعم، جيمي كونورز بذاته. كان فاز في مباراة، وكان ريمون يصوّر المقابلة التي أعقبت ذلك. كان كونورز مغتبطًا فرحًا يردّ على الأسئلة ممازحًا، وفجأةً خلع قبّعته ليثبّتها على رأس ريمون، هكذا، وبلا سابق إنذار. ثمّ غادر إلى حجرة الملابس. في ذلك اليوم، كاد ريمون يبكي من شدّة الفرح.

عبّ جرعةً من كأسه. كلّ اللحظات الرائعة التي شارك فيها في كواليس المباريات... لم ولن يتمنّى يومًا مهنة أخرى، مقابل أيّ شيء. كان يهوى مهنته تمامًا كما يحبّ اللاعبين والصحافيّين وفريق العمل،

وحتّى الفتيان الذين يلتقطون الكرات التي تسقط بتأثرٍ واضح، إذ يقفون قبالة نجوم الملاعب.

فجأةً، دخل وارين، مدرّب أوستن فيشر. بإيماءة خاطفة من رأسه ألقى التحيّة على مدرّب فيديرير السابق، ثمّ توجّه إلى البار، حيث طلب فنجان قهوة من دون أن يجلس.

كان من النوع البارد، وارين ذاك؛ يناهز الخمسين من العمر، غامض بعض الشيء، عيناه داكنتان تمامًا كشعره المقصوص في دقّة، ولم يكن ريمون يكنّ له المودّة. لا بأس، فلكلٍّ شخصيّته.

كان الـ«ستيلّا» نقطة تلاقي اللاعبين وفريق العمل والصحافيّين، والمكان الأنسب حيث يمكن للجميع الاسترخاء، إذ لا يُسجّل فيه حديث ولا يُصوّر فيه شريط. هكذا، جرت العادة. لا كاميرا ولا جهاز تسجيل. ليس مكانًا مفتوحًا للجمهور، بل للمحترفين فقط.

دخل تشاك فينز، وهو مراسل إحدى القنوات المنافسة، ترافقه مساعدته، حسناء شقراء، لها فم مكتنز في شكل قلب صغير. لم يكد يخطو ثلاث خطوات حتّى أومأ له وارين بيده. اقترب تشاك.

بادره وارين بلهجة جامدة كالصقيع:

– أوستن مستاء جدًّا من مقابلتك الأخيرة. وأنا أيضًا. لقد تجاوزت حدودكَ حقًّا. ففي إمكانك، أن تمنحه المزيد من القيمة والاحترام. هو أوّل لاعب عالميّ يا تشاك. فلتبذل جهدك إذًا.

ردّ تشاك فينز بابتسامة صفراء وتابع طريقه مرفوع الرأس، من دون أن يُجيب بكلمة.

لم يصدّق ريمون عينيه. كيف يمكن مدرّبًا محترفًا أن يسيء التعامل مع صحافيّ في هذه الطريقة؟ أن يوجّه إليه لومًا على هذا النحو الفاضح هو بمثابة عمل انتحاريّ.

نظر ريمون بضع ثوانٍ إلى المدرّب الذي واصل ارتشاف قهوته، كأنّ شيئًا لم يكن. هو لا يعي خطورة الأمر، كما يبدو. لا يدرك. يجب أن

ينتبه أحد ما، لئلّا يسترسل في الخطإ. ذلك لأنّ أوستن هو الذي سيدفع الثمن في نهاية الأمر. هذا مؤكّد. لا يُحِبّ الصحافيّون أن يُملى عليهم ما يجب قوله. وتشاك هذا سيثأر لا محالة في المقابلة المقبلة: ستكون «أكثر قسوة» من السابقة. بالتأكيد. مسكين أوستن... هو الذي يعاني في الأساس علاقات سيئة مع الصحافة.

لا بدّ من مساعدته.

انتظر ريمون اللحظة المناسبة، فاغتنم فرصة التفات وارين ناحيته. حينذاك، بادره بالحديث من دون تردُّد.

– ربّما الأمر لا يعنيني، لكنّ ما قلتَه للصحافيّ خير وسيلة ليتربّص بك. حقًّا. فمعشر الصحافيّين هؤلاء، متمسّكون بحرّيّتهم كما أنا بكاميرتي. وإذا كنت تعتقد أنّك ستنجح في إخضاعهم، هذا لا يعنيني، لكنّك لن تحصل إلّا على نتائج عكسيّة. في كلّ حال، أقول ذلك من أجلك، ومن أجل أوستن خصوصًا...

استمع إليه وارين من دون أن يبدو عليه أيّ تأثر.

– أنتَ مُحِقّ، الأمر لا يعنيك مطلقًا.

25

استطلع جوناثان قائمة الأطعمة. مضى حينٌ من الوقت لم يتناول الغداء مع شريكَيه. كان مايكل يرمقه بين الفينة والأخرى بنظرة غير مألوفة. لعلّه كان يراقب ويترصّد ليكتشف موقفه. لا ريب يرقب ردّ فعله على الرسالة الإلكترونيّة.

– هل لديكم أطباق طبيعيّة عضويّة؟ سأل جوناثان النادل.

– كلّا، متأسّف.

– لا بأس. إذًا... سآخذ طبق الخضار المشكّلة.

– فيليه سمك البانغا، قالت أنجيلا.

– قطعة ستيك، أردف مايكل.

– كيف تريدها سيّدي؟

– نصف ناضجة.

انصرف النادل.

– لن تقول لي الآن أنّك تبنّيت موضة الأطعمة العضويّة! قال مايكل.

– بلى.

– كلّ يوم؟

هزّ جوناثان رأسه إيجابًا.

– صحيح؟ قال مايكل وهو يكاد يختنق من كثرة الضحك. لكن، أرأيت أسعارها؟ إنّه احتيال العصر!

– حتّى لو لجأتُ إلى جمعيّة من صغار المزارعين المحلّيين، ممّن يبيعون نتاجهم مباشرةً، فالكلفة تبقى ذاتها تقريبًا. وبما أنّ البيع يحصل محليًا، فليست هناك وسائط نقل، بالتالي هذا أقلّ تلويثًا للبيئة.

رفع مايكل عينيه إلى السماء.

– ولماذا؟ قُل لي، لماذا تريد أن تأكل أطعمة عضويّة؟

تردّد جوناثان. وهل هناك جدوى من الإجابة؟ يُستحسن عدم التصارع مع الأحكام المُسبقة...

في أيّ حال، كان مايكل قد استرسل في حديثه من دون انتظار الجواب.

– المزارعون المحلّيون الصغار، هذا ظريف. لكنّك لن تحصل على كلّ شيء. لن يبيعوك سوى الخضار والفاكهة، وفي موسمها فحسب. ولن تحصل على اللحم: هل تظنّ أنّهم سيأتون إلى جمعيّتك هذه بعجولهم وأغنامهم، هكذا في كلّ بساطة؟ ثمّة قوانين ترعى كلّ ذلك وتنظّمه. ثمّة مسالخ مسجّلة، ومراقبة من الأطبّاء البيطريّين، وشبكات توزيع.

– في أيّ حال، لقد توقّفتُ عن تناول لحم العجل والغنم.

صمتَ في ذهول.

– ولِمَ؟

– قرّرتُ ألّا آكل الأولاد بعد اليوم.

كادت أنجيلا تختنق بمشروبها. أمّا مايكل فاستغرق في الضحك.

– وماذا عن لحم البقر؟

– قرّرتُ أيضًا أن أقلّل من تناول لحم البقر إنقاذًا لغابات الأمازون. وهذا في حدّ ذاته يعوّض سعر المأكولات العضويّة المرتفع في الأسواق التجاريّة.

– لكن، ما بالك؟ ما الذي دهاك؟

عبّ جوناثان جرعةً.

– لنقُل أنّني تذكّرتُ أقوال بوسوييه.

– بوسوييه؟

– كاتِب من مقاطعة بورغندي عاش في القرن السابع عشر. تعرف أنّني أمضيتُ طفولتي في تلك المنطقة...

– وماذا يقول ذاك الكاتب؟

– «إنّ الله يهزأ من قومٍ يستنكرون عواقب أسباب هُم يعتزّون بها.»

– اللعنة، ما أعمق هذا الكلام.

– واقع الأمر... أنّني قرّرتُ ألّا أتذمّر من آفات المجتمع وعيوبه، بل أن أكتفي بتولّي حصّتي من المسؤوليّة. أدركتُ أنّ الأهمّ بالنسبة إليّ هو أن أكون منسجمًا مع ذاتي، بدلًا من أن أُلقي دروسًا على الآخرين.

– هكذا إذًا، ستتبنّى الحمية الغذائيّة العضويّة...

– نعم، تحديدًا... لن أستمرّ في إغماض عينيّ والتغافل عن الواقع. ربّما كان شيء عاديّ أن نأكل الحيوانات، ولكن أريد أن تكون لهذه الأخيرة حياة قبل أن نأكلها؛ حياة حقيقيّة في أحضان الطبيعة، مع الحدّ الأدنى من الحريّة. ثمّ إنّي سئمتُ التهام الهرمونات، والمضادّات الحيويّة، والمبيدات، والمزروعات المعدّلة جينيًا... أريد أن أتغذّى بموادّ غذائيّة لا بموادّ كيميائيّة.

منذ بضع دقائق، وشريكاه يتأمّلانه مبهوتين، كأنّه أعلن لهما أنّه من المتحوّلين جنسيًا، وأنّ اسمه الحقيقيّ هو باميلا أو روزانا.

– أريد أن أموت ميتةً لائقةً طبيعيّة، وليس بسبب القاذارات التي تُفرَض عليّ فرضًا، واصل جوناثان.

كان كلاهما يحدجه بنظرات ذهول.

– أوَتظنّ أنّك ستعمّر أطول، إن امتنعتَ عن... كلّ هذه الأشياء التي كنتَ تحبّها من قبل؟ سألته أنجيلا.

ردّ مايكل:

– لا أدري ما إذا كان سيعمّر أطول. لكنّ الثابت والأكيد هو أنّ الحياة ستبدو له أطول بكثير!

وما لبث أن استرسل في ضحكة طويلة، لامتناهية.

– ولكن ملاحظة، قالت أنجيلا، لعلّه ليس على خطإ في النهاية.

رفع جوناثان عينيه إليها. تلك هي المرّة الأولى منذ انفصالهما التي تؤيّد فيها أحد أقواله.

فجأةً، تذكّر كلام مارجي. كلّما قابل عمّته، كانت توصيه بأن يتحدّث إلى أنجيلا. ولكن، هل لديه الجرأة الكافية؟

قُدّم الطعام، فانقضّ مايكل على طبقه سريعًا.

بيد أنّ جوناثان تريّث هنيهة.

– قرّرتُ أن أعودَ إلى العمل، قال فجأةً.

كان مايكل يستعدّ والشوكة في يده لالتهام قضمة من اللحم. علّق حركته، فاغر الفمّ.

ربّما غيّر رأيه بشأن لحم البقر؟

26

– سيّد جوناثان كول!

– صباح الخير سيّد تشاترجي. كيف حالك؟

– بخير، بخير. لم أرَك منذ زمنٍ طويل. يا للمفاجأة.

كان السيّد تشاترجي صاحب محلّ خردوات في وسط المدينة. مساحة ظريفة في حيّز غريب، في الطابق الأرضيّ من عمارة عتيقة لا تكاد تستوفي الشروط الصحّيّة للعيش. سلع من كلّ صنف ولون، مخزَّنة عشوائيًا من دون أيّ ترتيب منطقيّ. سلع وبضائع ملقاة هنا وهناك كيفما اتّفق، ترتفع إلى الأعلى أو تتدلّى منه، معلّقة على الجدران، أو مكوّمة في حاملات خشبيّة مكتظّة الواحدة فوق الأخرى، تكاد تطاول السقف، وتشكّل نوعًا من المتاهة يجب أن تتلوّى وتلتفّ على نفسك لعبور ممرّاتها الضيّقة. كان الجوّ استبقى نسمة من عطر بخور غريب. المؤشّر الوحيد إلى أصول صاحب المحلّ الباكستانيّة.

– استعدتُ عقودَك كلّها وراجعتها.

– دعني أحزر: لديك عقد إضافيّ تبيعني إيّاه.

ضحك جوناثان.

– بل العكس تمامًا. انتبهتُ إلى أنّ بعض عقودك تغطّي الخطر عينه أكثر من مرّة. أي بالمختصر، أنت تدفع مرّات عدّة لتشتري خدمة

التأمين ذاتها. لذا، صفّيت العقود المكرّرة. وستوفّر أنت بذلك تسعة وثمانين دولارًا في الشهر.

– يا لهذا الخبر السارّ!

– نعم، فكّرتُ في أنّ هذا سيسرّك.

– و... هل ثمّة أمر آخر بعد؟

– كيف؟ ماذا تعني؟

– هل لديك شيء أو عرض آخر لتبيعني؟

– كلّا.

– لكنّك لم تأتِ لتقول لي هذا فحسب.

– أوه... بلى. قلت لك أنّني دقّقتُ العقود. والآن، غدت كلّها قانونيّة وصحيحة.

حدجه السيّد تشاترجي واجمًا مذهولًا.

– حسنًا... هل أقدّم لك كوبًا من شاي «ماسالا»؟

مضت بقيّة الأسبوع على أفضل نحو. استعاد جوناثان لذّة العمل التي كان يشعر بها في بدايات مهنته. كان يزور الزبائن المتعاملين معه؛ ويعدّل نصوص عقودهم وفقًا لحاجاتهم الحقيقيّة؛ وينصحهم ببوالص تأمين جديدة عند اللزوم. كان يشعر بدفع جديد وبطاقة متجدّدة. بات لعمله معنًى من جديد. رسالته هذه ودوره هذا جعلاه سعيدًا.

في حلول يوم الجمعة، وجَدَ نفسَه على تراس المقهى وحده مع أنجيلا. قرب المكان، وعلى الرصيف نفسه، كان عازف ساكسفون مسنّ ينفث نوتات ألحان جاز معروفة بقلّة حماسة رهيبة، وقد وضع قبّعته مقلوبةً أمامه على الأرض.

– لن يستطيع مايكل المجيء، قالت أنجيلا. لقد طرأ عليه أمر يسوّيه لأحد الزبائن. بعث لي توًّا برسالة نصّيّة.

طلبا القهوة. كان جوناثان يشعر بشيء من الخجل لوجوده وحده معها. لم يعد معتادًا ذلك. وكان يحسّ بمزيج من المشاعر المتناقضة، تتراوح بين الانزعاج وشكل من الفرح المرتبك. أمّا هي فقد بدت أقلّ اضطرابًا منه. إلّا إذا كانت تُتقن فنّ التمويه.

ما انفكّ صوتُ مارجي يلازمه، يحثّه ويحرّضه على التحدّث إلى أنجيلا، والإفصاح لها عمّا يختلج في قلبه. «أفصح لها عن حقيقة مشاعرك.» لكن، كلّما استمع إلى نصائحها، ازداد تمسّكًا بضبط النفس توخّيًا للسلامة.

أصدر عازف الساكسفون زعقة حادّة وواصل نشازه من دون توقُّف.

كانت أنجيلا تثرثر من دون انقطاع، لكنّ جوناثان شعر بأنّها تتجنّب نظراته. راحت تسرد أخبار المكتب، وكلّ المستجدّات أثناء فترة غيابه. وعندما استُنفِد الموضوع، انتقلت إلى التعليق على أخبار الساعة، من منظورها الدقيق تشوبه روح دعابتها الجارحة، ذلك الأسلوب الذي كان جوناثان يعشقه. خلال هنيهات، راح يسمعها من دون أن يركّز على ما تقول، مقدّرًا الحديث في حدّ ذاته، مستمتعًا باستعادة شيء من العلاقة التي كانت بينهما، مستسلمًا طوعًا للوهم.

وفي لحظة، بدا له أنّ الوضع انقلب رأسًا على عقب، كأنّما لمح متعة متبادلة عند أنجيلا، وكأنّها هي الأخرى تقدّر لحظات المشاركة هذه. كانت مجرّد لمحة، ومیض طفيف يلتمع في عينيها، وطيف ابتسامة يلوح على شفتيها. عندذاك، علا صوتُ مارجي أكثر فأكثر، ضاغطًا مُلحًا حتّى بات لا يُقاوَم. إمّا الآن أو أبدًا!

تسمّرت عيناه فيها، وشعر بموجة من الثقة الجديدة تتصاعد داخله، جرأة كان يفتقدها حتّى اللحظة. استمرّت أنجيلا تتكلّم، وابتسامة حقيقيّة تزيّن شفتيها. لم يكن واهمًا: كانت تبتسم حقًّا. وراحت عيناها ترمقانه أكثر فأكثر.

– أنجيلا...

لم تسمعه. واصلت كلامها، مع تلك البسمة الحلوة التي كان يعشقها. راح الساكسفون يصدر نغمات تشارلي باركر الجميلة ببحّة جميلة، وكأنّه اهتدى أخيرًا إلى الإيقاع الذي يناسبه.

– أنجيلا...

رفعت عينيها، سكتت وأخذت تنظر إليه. نظرة رقيقة مُترقِّبة. نظرة كانت تشجّعه على الكلام. كان يودّ لو يطيل هذه اللحظة، ويصون عمقها، ويحتفظ بنظرة أنجيلا، كما تراها عيناه إلى الأبد.

– أنجيلا... كنتُ أريد أن أقول لكِ... أنّك كنتِ محقّة... في السابق... عندما كنتِ تأخذين عليّ أنّني لا أكرّس الوقت الكافي للأسرة والمنزل... ولتربية كلويه... ذلك كلّه... لقد فهمتُه أخيرًا... و... كنتُ أريد أن أقوله لكِ...

لم تُجب، وظلّت تحدّق فيه في صمت.

تابع:

– أدركتُ أيضًا أنّني كنتُ آنذاك أعجز من أن أبرهن لكِ، أو... أقول لكِ... أنّني أحبّكِ. هذا سخيف، لكنّني كنتُ أتصوّر أنّك تعرفين ذلك، ولا تحتاجين إلى سماعه.

لم يصدر منها أيّ ردّ فعل، بل ظلّت تستمع إليه من دون أن تقول شيئًا.

– أودّ أيضًا... أن تعلمي أنّ مشاعري نحوكِ ما زالت... على حالها. و... قد قلتُ في نفسي، لا يمكن أن نترك سوء تفاهم يدمّر علاقة... علاقة لم تزل قيّمة جدًّا في نظري...

وسَكَت. لم تُشح بنظرها عنه، لكنّ ابتسامتها اختفت، وغَدَتْ نظرتها جامدة، باردة، فيما تجهّم وجهها. حدّقت فيه صامتةً على هذا النحو هنيهة من دون أن تقول شيئًا، ومن دون أن تقوم بأيّ ردّ فعل. ثمّ تنحنحت لكي يصفو صوتُها.

– يجب أن أذهب.

وقفت، وضعت هاتفها في حقيبة يدها التي علّقتها في كتفها، ثمّ توارَت بين جموع المارّة الذين كانوا في طريقهم إلى العمل.

تملّك جوناثان الذهول، وترك نظره يتوه بين حشد العابرين المجهولين الذين كانوا يحثّون الخطى في ثبات صوب واجباتهم اليوميّة.

فجأةً أحسّ بأنّه فارغ، فارغ من طاقته، فارغ من أفكاره. بل فارغ من الأمل. كان صوت الساكسفون الخالي من الروح يدوّي في رأسه. وكانت جموع العابرين المتواصلة تحرّك ناظريه، من دون أن تنجح في لفت انتباهه، تمامًا كماء يسيل على أوراق الشجر من دون أن يبلّلها.

مضَت فترة وجوناثان على هذه الحالة. لم يفق من خدره إلّا عندما وضعت النادلة فاتورته على الطاولة.

أخرج محفظة النقود من جيبه تلقائيًا وسدّد الحساب.

من ثمّ تناول هاتفه. طلب الرقم وانتظر على إيقاع تناوب رنّات جرس الهاتف مع نغمات الساكسفون.

– مايكل، هذا أنا، جوناثان.

تنفّس نفَسًا عميقًا، قبل أن يتابع.

– فكّرتُ مليًا. في النهاية، أقبل عرضكَ. بلّغ المحامي بأن يشرَع بالمعاملات اللازمة. وكلّما كان أبكر، كان أفضل.

27

«وها أوستن فيشر يضمن وعن جدارة مكانه في نصف النهائيّ بفوزه على خصمه الأستراليّ غاي هاريسون. لم تعُد إصابته سوى ذكرى عابرة كما يبدو، وإن لم تزل كتفه مضمَّدة. أذكّركم بنتيجة المباراة: 6 -4؛ 7 -5؛ 6 -4. يبدو الجمهور خائبًا بعض الشيء، جمهور قد نجح الأستراليّ اللطيف في استمالته و...»

أطفأ مايكل التلفاز، وهو يشعر بالرضا. إنّه سبب آخر للاحتفال! فالقرار الذي اتّخذه جوناثان جعله يطير من الفرح. فور إتمام شراء الحصص، يستحصل هو على ثلثي الشركة، ثلثين يعاود بيعهما فورًا للشاري لقاء الثروة الصغيرة التي يعرضها. وتنطلي الحيلة؛ وينعم هو بعطلة طويلة، وبأوقات ممتعة، ويسترخي بخمول تحت الشمس، ويستمتع بالنساء الفاتنات...

خطرت له فكرة. رفع سمّاعة الهاتف.

– سامنتا؟ أنا مايكل، أريد أن ألتقيك هذا المساء.

– ولماذا؟ أنا اليوم مشغولة.

– لكي نحتفل، طبعًا! بمَ أنت مشغولة؟

صمت.

– احزر.

– لا يهمّ. الغي موعدَكِ!

– أنا ألتزم مواعيدي، وهذه مسألة سمعة وصيت. زبائني متطلّبون.

قهقه مايكل.

– سأدفع لك الضعفين.

* * *

ألقى جوناثان نظرة من نافذة الحمّام المفتوحة بينما كان يحلق ذقنه. من الحديقة المقابلة، كان يسمع أولاد غاري يصيحون وهم يلهون. وما هي إلّا هنيهات حتّى خرج والدهم.

– ما هذه الحماقات الآن؟ صرخ فيهم.

– لكن بابا... ليست حماقات، نحن نلعب! تعال وانظر ما صنعنا!

– هل جننتم؟ أتظنّون أنّ لا عمل آخر لديّ؟ ومن الأفضل لكم أن تلعبوا في هدوء! لا أريد أن أسمع صياحكم. مفهوم؟

وافق الأولاد في ملامح مغبونة. توارى غاري من دون أن يلتفت إلى وجوههم الحزينة. لا بدّ من أنّ وفاة والدتهم كانت صدمة كافية لهم. ومع ذهنيّة والدهم هذه، لن يتمتّعوا ولو بالقليل من الحنان...

فكّر في كلويه، ثمّ في أنجيلا.

كان مايكل على حقّ منذ البداية. لن ينفع التعايش. كان عليه أن يطوي الصفحة منذ زمن، وأن ينتقل إلى شيء آخر. كان يمكن أن يساعده هذا في نسيان أنجيلا، ويتيح له أن يؤسّس عملًا آخر.

لكنّه كان يعرف أنّه لا ينفع أن نندم على خيارات ماضية. هكذا هي الحياة، مزروعة بالأخطاء، ولا شكّ في أنّ هذه الأخطاء لها ما يبرّرها. ولا بدّ من أنّها تفيدنا بشيء ما. «القبول.» لقد رجحت كفّة فلسفة مارجي في النهاية... فالقبول هو أحد فنون العيش.

في طبيعة الحال، لمؤسف أن يتوقّف عن العمل الآن وقد استعاد معناه الجميل في نظره، لكنّه مع ذلك، أراد أن يبقى متفائلًا وواثقًا.

الحياة قصيرة جدًا لنمضيها في الشكوى والتذمّر من خيباتنا. كان يعي ذلك الأمر أكثر من أيّ شخص آخر. الوجود عبارة عن حركة دائمة، حيث كلّ شيء يتغيّر في كلّ لحظة. والوقوف في وجه هذا التغيّر لا يفضي إلّا إلى البلاء. الثقة في الحياة هي ما يسمح بالتقدّم ومعاودة الوقوف والانطلاق، واستحسان ما يحدث في النهاية. لم يكن يعرف بعد ما سيفعل لاحقًا، لكن، ما زال أمامه متّسع من الوقت. سيستهلك إنجاز الأوراق والمعاملات أسابيع طويلة، وقد قرّر مواصلة رسالته حتّى آخر يوم من عمله في الشركة، محافظًا قدر الإمكان على الحماسة التي كانت باتت تحفّزه منذ فترة، وممارسًا مهنته كما يريد من الآن فصاعدًا.

عرج على مخبز غاري لشراء قطعتَي مافين، ثمّ ذهب إلى ترّاس المقهى حيث جلس يتلذّذ بهما مع كوب شاي كبير.

على الشاشة المعلّقة على الجدار داخل المقهى، والتي كان جوناثان يراها من الجانب، كانت عالمة نفس تشرح أنّ الناس يشكون أحيانًا نقصًا في التعبير العاطفيّ توارثوه عن أجدادهم وأسلافهم الذين لم يعرفوهم حتّى. عندما يعاني ولدٌ ما من نقص مهمّ في العاطفة، ويشعر بأنّه غير محبوب، فقد يحدث أن ينفصل عن مشاعره الخاصّة، في نوع من حماية الذات عن غير وعي.

لم يستطِع جوناثان أن يمتنع عن التفكير في غاري.

وأضافت العالمة، عندما يصبح راشدًا، قد يصبح الولد هذا باردًا جدًّا عاطفيًا تجاه أولاده. وهكذا، قد تتكرّر المعاناة هذه على مدى أجيال عدّة...

صاح زبون كان يقف خلف البار:

– لقد سئمنا هذه التفاهات! أليس لديك قناة أخرى؟

غيّر النادل القناة فظهر وجه أوستن فيشر ملء الشاشة. ابتسم جوناثان لرؤية بطله القديم، والذي كان يذكّره بمنافسته الماضية مع

مايكل. لن يكون تاجرًا ناجحًا مثله، فالمسألة باتت محسومةً الآن؛ ولا بأس بذلك، إذ بات يُدرك الآن أنّ تلك ليست رسالته.

بعد دقائق معدودة، لمح على التزاس عجوزًا قصير القامة يشي مظهره بالإحباط واليأس. تأمّله بضع لحظات، ثمّ أشار إلى النادلة بحركة خفيّة.

28

وضع ريمون كاميرته على الكرسيّ، ثمّ حرّك ببطءٍ الكتف التي كانت تحملها، وذلك ليريحها ويسترخي. كان قد أنهى تصوير أوستن فيشر عند دخوله حجرة الملابس، قبل بدء مباريات الربع النهائيّ. يا له من رجل فيشر هذا. فحتّى لو كان مُصابًا يستمرّ في الفوز، في حين أنّ الخبر سرى كالنار في الهشيم بأنّه يتألّم كثيرًا. وفي هذا القيظ أيضًا...

كان المصوّرون يتدافعون في الصالة المعتمة والسيّئة التهوئة، التي تعبرها كابلات متشابكة من كلّ حدب وصوب.

فتح ريمون قنّينة، مسح جبينه بكُمّ قميصه، وأفرغ نصف محتوى المشروب بجرعة واحدة. شاهد وارين يمرّ، فأشاح بنظره عنه. لا رغبة له في إلقاء التحيّة على شخص بربريّ، وجاحدٍ أيضًا.

– انتظر لحظة!

كانت شابّة باسمة وبشوشًا لا يعرفها تنادي وارين، وهو يهمّ باجتياز عتبة حجرة الملابس. لا شك كانت قد انضمّت حديثًا إلى مجموعة محبّيه. استدار المدرّب حين سمع صوتها.

– كلارا سبنسر من الـ«سي. أن. أن»، قالت بصوتٍ لعوب. وأعلن نفسي رئيسة على نادي هواة أوستن!

رمقها وارين في برود وجفاء، ولم يقُل شيئًا.

– أريد مهما كلّف الأمر أن أجري مقابلة مع أوستن ولو دقيقة واحدة لا أكثر، للاستعلام عن معنويّاته قبل بدء المباراة.

حدجها وارين بنظرة جامدة كالصقيع.

– مستحيل.

– ولكن...

– خصوصًا قبل المباراة، قال وهو يبتعد.

– حسنًا إذًا، ألتقيك بعد انتهاء المباراة مباشرة، و...

– سننظر في الأمر لاحقًا.

ثمّ دخل حجرة الملابس وغاب عن الأنظار.

لم يصدّق ريمون ما رآه بعينه وسمعه بأذنه. كيف يمكن مدرّبًا أن يعامل صحافيّة على هذا النحو، سيّما أنّها من المعجبين بلاعبه؟ أمر لا يُصدّق، خصوصًا أنّ الصحافيّين لا يعاملون أوستن عادةً بمودّة فائقة. وفي المرّة الوحيدة التي تأتي واحدة تريد له الخير... لا، هذا أمر غير طبيعيّ. لا شأن لي به، ولكنّه في سلوكه هذا لا يسدي خدمة لأوستن، وهذا أمر مؤكّد.

* * *

وضع مايكل جانبًا تقرير مكتب المحاسبة عن الحسابات التقديريّة للشهر المنصرم. ألقى ظهره على مقعد مكتبه وقد أعياه الاشمئزاز.

من النافذة نصف المفتوحة، تناهى إلى مسامعه ضجيج حركة السير في الجادّة. هدير المحرّكات، وزعيق أبواق السيّارات، وأزيز المكابح، ورنين الأجهزة المخصّصة لتنبيه المكفوفين.

أبهره انعكاس النور في زجاج نوافذ المبنى المقابل، وقف لكي يُسدِل الستارة، لكنّ المقبض اليدويّ المعدنيّ القديم علق رافضًا الإذعان. اغتاظ، وعاد فارتمى على مقعده، وتنهّد بعمق.

لا يمكن أن يطّلِعَ الشاري الجديد على هذه الحسابات. تلك قد تكون مجازفة خطِرة، ما دامت المعاملة لم تُنجَز بعد رسميًا. لا بأس، وليكن. من الأفضل أن يؤجّل التوقيع شهرين آخرَين ويقدّم حسابات فصليّة، شرط أن تصعد الأرباح مجدّدًا وفي سرعة. وليس بشكل خفيف. رفع سمّاعة هاتفه.

– جوناثان، هذا أنا.

– مرحبًا مايكل، كيف حالك؟

– سيّئة جدًا. قرأت توًّا التقرير وحسابات الشهر. الأرقام في هبوط مريع. هبوط غير طفيف، بل كارثيّ. وهل تعرف ماذا؟ المحاسب واضح جدًّا وعلى يقين: أنتَ سبب الهبوط هذا، عنَيتُ زبائنك.

صمتٌ عند الطرف الآخر من الخطّ.

تنهّد مايكل، ثمّ انفجر غاضبًا.

– ولكن ماذا يحصل، اللعنة؟

صمت، من جديد.

– لستُ متأكّدًا، أنا...

– لكنّ المسألة خطيرة، هل تُدرك ذلك؟ لقد عدتَ إلى العمل منذ سبعة أسابيع، ومنذ ذلك الوقت والأعمال تتراجع. ماذا فعلتَ؟ حتّى أثناء غيابك، كانت الأرقام أعلى بكثير! لكن، ماذا فعلتَ؟

– اسمع... صحيح أنّني أعمل الآن على نحوٍ مختلف، و... حسنًا... ربّما لذلك تأثير سلبيّ في الأرقام و...

– لا، هل تسخر منّي؟ منذ شهر وأنا أهيّئ المعاملات لشراء حصّتك، وحضرتُكَ في تلك الأثناء تمارس تجاربك الخرقاء. هل تريد أن تُفلِس الشركة؟ ما هذا الجنون؟

– آسف يا مايكل، أنا...

– وماذا تعتقد؟ أنّني سأشتري حصّة باتت لا تساوي شيئًا؟

صمتٌ.

– مايكل... أشعر بالارتباك، أنا...

– اسمع، لا أدري ما تفعل، ولا أدري أسلوبك الآن، ولا أريد أن أعرف. ما أريده هو أن تعود وتعمل كما كنتَ تفعل سابقًا، إلى أن أشتري حصّتك. وتدبّر أمركَ لمضاعفة الأرباح لكي نعوّض ما خسرناه. الأمر أكثر من طارئ.

صمت، من جديد.

– هل تسمعني؟

– اسمع يا مايكل... لن يكون ذلك ممكنًا.

– ماذا تقول؟ وكيف ذلك؟

– لا أريد أن أعمل كما كنتُ أعمل سابقًا... ولكنّني أسمع ما تقوله، وأتفهّم وضعك، وأفهم أن ذلك يشكّل مشكلةً لكَ، ولـ...

– هذا أقلّ ما يمكن أن يُقال!

– أفهم ذلك كلّه، ولكن... لا أريد أن أساوم على... قِيَمي. أنا...

– ماذا تثرثر؟ ما هذه الترّهات الآن؟

– اسمع... مجدّدًا، أعرف أنّ في ذلك مشكلة لكَ، و... إذا كان شراء حصّتي قد فقد أهميّته بالنسبة إليكَ، فلا مانع من سحب اقتراحي...

لبث مايكل صامتًا، واجمًا.

– إن أردتَ، نلغي كلّ الاتّفاق، قال جوناثان.

أقفل مايكل الخطّ. استحال وجهه بنفسجيًا من شدّة القرف والسخط. جوناثان الأحمق هذا ينوي تخريب كلّ شيء...

* * *

لم يعد في الخزانة لوح شوكولاته واحد. عندما كانت أنجيلا متزوّجة بجوناثان، كان هو مَن يحرص على تأمين مؤونتها منها. أحيانًا، كان يتسلّى بأن يجعلها تعتقد لحظةً بأنّ مخزون الشوكولاته قد نفد لمجرّد

الاستمتاع برؤية هلعها، ثمّ بسحرِ ساحرٍ يعمد إلى إخراج لوح كان أخفاه عن الأنظار، وينفجر ضحكًا عندما يراها تتنفّس الصعداء.

جوناثان... شعرَت بالضيق حين فكّرَت في لقائهما الأخير. لقد فاجأتها كلماته هذه. ولعلّها أساءت التصرّف في هروبها هكذا. صحيح أنّها لم تكن مستعدّةً لسماع ما كان يقول، لكنّه كان قد استجمع الشجاعة الكافية للإقدام على هذه الخطوة. أحسّت بأنّها جاحدة، جائرة!

فتحَت بعصبيّة الخزانة الجانبيّة لعلّها تجد فيها شيئًا.

لا، لا شيء.

تلمّظت.

جابت المطبخ حائرة بعض الوقت، ثمّ فتحَت خزانات أخرى، فأخرى، في تململ متزايد. لا بدّ من وجود ما تتسلّى بمضغه ويُنسيها الشوكولاته. قطعة من السكّر، أيّ شيء...

لا شيء.

حسنًا، لا حاجة إلى التوتّر. في أيّ حال لم تكن قادرة على الصمود في هذا الوضع، وكانت تُدرك ذلك جيّدًا. أطلّت من باب غرفة كلويه، وانتظرت بضع ثوانٍ ريثما يألف بصرُها عتمة الغرفة.

كانت ابنتها تغطّ في نوم عميق، فمها نصف مفتوح، محتضنة لعبتها القطنيّة بين ذراعيها. ما أظرفها!

ردّت أنجيلا الباب في هدوء، تناولت حقيبة اليد والمفاتيح، وخرجت من الشقّة، على رؤوس أصابعها، مع الحرص على إغلاق الباب وراءها في رفق. خمس دقائق كافية؛ تستطيع أن تترك ابنتها خلالها من دون خطر. شرط أن تُسرِع.

في الشارع، كان الليل لطيفًا ودافئًا. حثّت أنجيلا الخطى في اتّجاه الجادّة. كان الليل نشر في الأرجاء عطر الشجر الحلو المنبعث من متنزّه دولوريس المجاور. ولم يعُد هدير السيّارات سوى طنين

بعيد. عند الناصية، كان هناك محلّ للأطعمة الجاهزة يملكه بائع هنديّ، ويبقى مفتوحًا لاستقبال الزبائن حتّى منتصف الليل. مع وصولها إلى عتبة المحلّ، كانت تهمّ بالدخول حين لفَتَت انتباهها سيّارة «بي. أم. دبليو»، توقّفت فجأةً في عرض الطريق، أمام الموظّف المكلّف رَكْن سيّارات زبائن مطعم «فينزي»، على بُعد بضعة أمتار. ترجّلت منها صبيّةٌ حسناء في فستان مفرط القصر، وساقَيْن طويلتين كشجرة النخل، وحذاء عالٍ ودقيق الكعب. ويا للمفاجأة! تعرّفت أنجيلا إلى الحاضنة التي كانت نصف عارية مع جوناثان ذلك اليوم. وقد تحوّل الجينز والحذاء الرياضيّ فستان سهرة أسود اللون.

عاد الألم الذي اعتصر قلب أنجيلا ذلك اليوم شديدًا طاعنًا كما كان، كما لو أنّه سمّ تغلغل في لحظة واحدة في أنحاء جسمها كافّة، وبلغ قلبها ورأسها، وراح يصرعها. ثمّ أتى عنصر المفاجأة والصدمة والحيرة: كيف يمكن أن تقتني حاضنة أطفال سيارة «بي. أم. دبليو»؟

وإذ تسمّرَت أنجيلا مكانها، رأت المرأة ذات الخطوة الثابتة الواثقة تترك مفاتيح سيّارتها في يد الموظّف من دون أن تلتفت إليه، ثمّ تتقدّم نحو رجل كان ينتظرها أمام المطعم، وهو يرمقها بنظرات غريبة. كان له من العمر ثلاثة أضعاف عمرها في الأقلّ.

– سامنتا؟ سألها بنبرة متردّدة.

عوضًا عن الجواب، طبعَت على شفتيه قبلة قصيرة.

تبادَلا بضع كلمات ودخلا المطعم.

أحسّت أنجيلا بقرفٍ شديد وتملّكها غضب عارم. لم يخدعها جوناثان فحسب، بل خدعها أيضًا مع فتاة هوى.

29

شدّ جوناثان على باقة الأزهار الصغيرة، حين رأى الترام مقبلًا من بعيد. كان يشعر بمزيجٍ من الحماسة والذعر. كان جالسًا على مقعدٍ طويل قرب تژاس المقهى. موقع استراتيجي يبعد أمتارًا قليلة من موقف الترام. كان ذلك في أواخر بعد الظهر، وكان قد أنهى عمله. كان جوناثان راضيًا عن نهاره. عقود مُعدّلة، تبادلات واعدة مع زبائن أسرّوا إليه بمشاكلهم، بوالص تأمين جديدة تتوافق مع حاجاتهم الفعليّة. هذا هو العمل كما يحبّ ويتمنّى أن ينجزه من الآن فصاعدًا.

كان أريج الزهور يدغدغ أنفه كأنّ الطبيعة قرّرت أن تزور وسط المدينة في خضمّ ازدحام السير. كانت أشعّة الشمس، التي مالت كثيرًا نحو الأفق، تنعكس تموّجات رقيقة على سيّارات التاكسي الصفراء العابرة.

لاح الترام من بعيد.

استعاد جوناثان سريعًا الخطّة التي رسمها في ذهنه: اختيار الشخص السابع من بين المترجّلين تِباعًا من الترام. الشخص السابع. تساءل كيف سيكون شكله... ماذا لو كان رجلًا لا امرأة؟ ابتسم للفكرة. وهل سيتحلّى بما يكفي من الشجاعة ليقدّم باقة زهر إلى رجل؟ وماذا لو كان السابع رجلًا ضخمًا مفتول العضلات وسدّد لكمةً على أنفه؟ فهقه عاليًا وحده على المقعد، فرمقه أحد المارّة بنظرة مرتابة.

اقترب الترام الأحمر، ثمّ مرّ أمامه في هدير صاخب، تبعه صرير احتكاك المكابح المعدنيّة بالسكّة الحديد، ومن ثمّ رنين الجرس معلنًا توقّف الترام. أحسّ جوناثان بانقباض بسيط في قلبه.

انفتحت الأبواب، وخرج عدد كبير من الركّاب دفعةً واحدةً تقريبًا. راح جوناثان يتأمّلهم من كثب.

فتى مراهق، وفي الوقت نفسه امرأة شابّة، تبعهما موظّف رفيع الشأن. ثلاثة. ثمّ رجل مُسنّ، ففتاة تشبه تلامذة الثانويّة. أربعة وخمسة. ستّة: سيّدة عجوز شعرها أبيض، تتوكأ على عصا سوداء. و... لم يعد هناك من أحد. انتظر جوناثان قليلًا وعيناه مسمّرتان على مخارج الترام. كانت الأبواب تستعدّ للإغلاق حين ترجّلت سيّدة على عجَل. كانت في متوسّط العمر، مظهرها عاديّ جدًّا. تشبه أيّ امرأة أخرى. مشت بخطى سريعة، خطى امرأةٍ تغادر عملها متلهّفة للعودة إلى منزلها. شاردة الذهن، عاقدة الحاجبَين، كانت تبدو أنّها ما زالت منهمكة بمسائل نهارها.

وقف جوناثان وانتظرها لتقترب، ثمّ خطا خطوة جانبيّة ليقف في طريقها، وقدّم لها باقة الأزهار. جفِلَت المرأة، وكادت ترجع إلى الوراء.

– هذه لكِ، قال لها مع ابتسامة عريضة.

ووضع الباقة بين يديها. بقي لحظة كافية ليلمح الذهول على وجهها، ثمّ ما لبث أن توارى بين جموع المارّة الهارعين إلى منازلهم.

* * *

كاد ريان يموت من شدّة الضحك.

الأحمق.

يعاكس امرأة غير جميلة، ويفتح حصّالته ليشتري لها باقة من الأزهار، ومن ثمّ لا ينتظر حتّى ليقطف ثمرة جهوده! ينسحب من دون أن يكلّمها، من دون أن يفصح لها عن اسمه حتّى! منتهى الفشل.

لم يصدّق ريان حظّه الطيّب. جوناثان الأبله ماضٍ في حماقاته، مستمرّ في غبائه الواضح الفاضح. كان شريط الفيديو السابق، حيث يظهر جوناثان وهو يطلب فنجان قهوة لامرأة لا يعرفها من دون أن يجرؤ على التعريف بنفسه، مضحكًا وممتعًا جدًا. فقد لقي نجاحًا منقطع النظير في المدوّنة: 189 أعجبني و27 تعليقًا. رقم قياسيّ. وقد جاء تمامًا في اللحظة المناسبة، في الوقت الذي بدأ مسلسل «غاري وهزّ الكتفين» يفقد رونقه.

نفّذ ريان مونتاجًا سريعًا للشريط الجديد، فاقتطع منه الثواني الأولى التي كانت طويلة من دون جدوى. لكنّه احتفظ بالنهاية ليتبيّن المُشاهد كم تضاعفت دهشة المرأة عندما رأت المُعجَب المجهول يتوارى بعيدًا. تجب لا محالة رؤية ابتسامتها، ووجهها الذي أشرق فجأةً لإبراز ما فوّته جوناثان على نفسه من فرصة عظيمة.

نشر ريان الفيديو في مدوّنته، وأضاف إلى الصفحة بعض أشرطة الإعلانات. إلى جانب تلك العاديّة التي تبيع اختبارات تقييم درجة الذكاء، أضاف أخرى جديدة خاصّة بأندية التعارف، وإعلانًا آخر لبيع الأزهار عبر الإنترنت. وفي حماسة فائقة، راح ينتظر أوّل ردود الفعل... التي سرعان ما تدفّقت.

يا له من مغفّل!!!

لقد كان طالبًا في مدرسة الإغواء، لكنّه لم يفهم منه شيئًا.

ملك الدردشة!

أبله.

الأحمق!

قرّر ريان من الآن فصاعدًا أن يجعل جوناثان بطلَه المفضّل، فتصطاده كاميرته حالما يطلّ برأسه على التزّاس، فيما تبقى الكاميرا الثانية، الموجودة خلف نافذة الغرفة، مركّزة على حديقة منزله

الخلفيّة. لم يكن يريد أن تفوته أيّ مغامرة من مغامراته الساذجة، مغامرات بهلوان الحماقة.

* * *

دفع جوناثان باب مخبز غاري، فاستقبلتهُ على الفور رائحة المافين الساخن. في الناحية الأخرى من المحلّ، وراء منضدة البيع السابحة في نور مائل إلى الأصفر، وقف غاري معكّر الملامح، ملامح اللحظات العصيبة، أي، ملامح كلّ يوم. كان جوناثان يجهل تمامًا ما عاشه غاري ليؤول إلى ما هو عليه اليوم. لعلّه تلقّى الضربات القاسية واحدة تلو الأخرى إلى حدّ أنّه فقد القدرة على الإحساس بأيّ شعور إيجابيّ؟ أو ربّما توالت عليه الإساءات والخيانات حتى بات يُنكر وجود الصدق والشفافيّة؟

– صباح الخير! بادره جوناثان باسمًا، كيف حالكَ اليوم؟

– صباح الخير، تمتم غاري.

– أريد قطعة مافين بالزبيب. وأريد أن آخذها معي.

أخذ غاري قطعة ووضّبها في كيس.

– إنّها لذيذة جدًّا حلوى المافين التي تصنعُها. صراحةً، أُهنّئك. أنت موهوب جدًّا.

قطّب غاري حاجبَيه الأسودَين الكثّين، ومن دون أن يرفع رأسه، حدجه بنظرة ارتياب وشكّ.

– دولار وخمسة وثلاثون سنتًا.

وضع جوناثان النقود على المنضدة من دون أن تفارق الابتسامة وجهه. فأخذها الآخر في صمت.

– إلى اللقاء، أتمنّى لك نهارًا سعيدًا! قال جوناثان في صوتٍ جَذِلٍ لم يلقَ أيّ ردّ فعل.

خرج جوناثان من المخبز. تُرى كم تجربة إيجابيّة على هذا الرجل أن يعيش ليرى العالم من منظار مختلف؟

خطرت له فكرة. ذهب إلى زبونه الباكستانيّ، تاجر الخردوات، واشترى منه شرشفًا من الورق الأبيض. عاد إلى المنزل، رفع سمّاعة هاتفه وطلب رقم غاري.

– صباح الخير، قال وهو يحاول تبديل صوته بعض الشيء. أودّ حجز طلب كامل لو سمحت. خمسين مافين بالزبيب، وأريدها في غضون نصف ساعة.

– خمسين مافين؟ أجاب الآخر بنبرة مبهوتة.

– نعم.

– وستأتي حتمًا لاستلامها. ما من خديعة في الأمر، لا؟ فخمسون مافين لن أستطيع تصريفها ولو عملتُ طوال اليوم.

– بالتأكيد، كُن واثقًا.

صمتٌ وجيز.

– ما اسمك؟

تردّد جوناثان هنيهةً، ثمّ ارتجل:

– روبنز، سآتي بعد نصف الساعة.

نزل جوناثان إلى القبو وفي جيبه مِطواة صغيرة وقلم حبر ملوّن، وفي يده مصباح جيب. وسط العتمة الرطبة العابقة برائحة العفن، أزاح أغراضًا قديمة يعلوها الغبار ليجد أخيرًا ضالّته: زوجًا من المناصب الخشبيّة القديمة. وجد أيضًا لوحًا خشبيًا. حملها وخرج.

انتظر قليلًا في محاذاة مخبز غاري. ثمّ لمح ولدًا يلهو على لوح تزحلُق.

– مرحبًا يا فتى! هل تودّ أن تكسبَ دولارين في ثلاث دقائق؟

ابتسم الولد.

– حسب المطلوب، هل هو معقّد؟

– أبدًا: تدخل مخبز الحلويات، وتقول أنك آتٍ لاستلام طلبيّة السيّد روبنز، وتُعطي البائع هذه الورقة النقديّة. ثمّ تخرج وتسلّمني كيس البضاعة، وهكذا تكون قد كسبتَ الدولارين. سهل وسريع، أليس كذلك؟

هزّ الولد رأسه.

– دولاران، مبلغ قليل...

– هل تمزح؟ دولاران مقابل ثلاث دقائق، يعني أربعين دولارًا في الساعة! هذا راتب مُدير!

– ثلاثة دولارات.

– ولكن... هذا أبسط ما يكون، ليس فيه أدنى تعب!

– إذًا، لِمَ لا تفعله بنفسك؟

– ولكن...

– ثلاثة دولارات.

قهقه جوناثان عاليًا.

– أنا واثق في أنك لن تدع أحدًا يخدعك في الحياة.

بعد دقيقتين، كان جوناثان ينسّق قطع المافين بعدما شطر كلّ واحدة إلى أربعة، على شرشف الورق الأبيض، الذي غطّى به المائدة الصغيرة المُبتكرة على المنصبين الخشبيّين، أمام الجزء المحجوب من واجهة مخبز غاري. كان لواثق في أنّ الأخير لن يراه: فالرجل الفظّ لم يطلّ يومًا برأسه ناحية الرصيف.

أخرج جوناثان من جيبه قلم حبر عريضًا زهريَ اللون، ورسم على الشرشف الأبيض قلبًا كبيرًا، خطّ داخله عبارة جميلة مزخرفة: «تقدمة غاري».

30

أقلّ بحوالى عشرين في المئة.

لم يتوقّع جوناثان الضربة.

ومع ذلك، فالأمر منطقيّ في النهاية. يتغيّر حجم راتبه مع تغيّر رقم مبيعاته مباشرةً: أرباح في تراجع، راتب إلى هبوط. لا يمكن الحصول على كلّ شيء.

فليكُن. لا مجال الآن للعودة إلى مزاولة العمل وفق النمط السابق. لم يعُد لذلك مغزى، كما أنّه الآن راضٍ ومرتاح جدًّا، إذ يشعر بأنّه شخص نزيه وشريف وصادق، ويخدم الآخرين. لفخر عارم أن تكون إنسانًا طيّبًا. لا يمكن أن يعود إلى الوراء الآن، بعدما أضاع سنوات وسنوات من حياته قبل أن يدرك ما يعتبره الآن أمرًا بدهيًا: هناء العيش يأتي من هناء العيش، والراحة من الراحة. الراحة وهناء العيش، تلك هي العبارة المفتاح. أن تعرف ذاتك، ثمّ تكون ذاتك بملئها وفي كلّ لحظة، وترفض أن تكون غير ذلك.

وليذهب المال إلى الجحيم. في أيّ حال، لم يعُد هو الدافع. على غرار ما يحدث لأولئك الذين يلمحون نهاية حياتهم. وحدهم الفراعنة يحملون معهم ثرواتهم إلى الحياة الأخرى. أمّا نحن، والترابيّون في الأساس، فندرك عند دنوّ الأجَل أنّ ما كان يستحوذ على جلّ اهتمامنا

طوالَ حياتنا، قد أصبح فجأةً عديم النفع، لا يصلح لشيء ولا يساعد في شيء.

غير أنّ جوناثان كان يعاني مشكلة تافهة وماديّة في كلّ بساطة: عليه أن يسدّد إيجار المنزل، والفواتير الأخرى. وهذا ما قد يجعل وضعه حرِجًا.

راح ينظر منعمًا في كشف حسابه المصرفيّ وقائمة المبالغ التي تصطفّ طويلة في جدول النفقات. عليه لا محالة، أن يضبط نمط عيشه ولو كان أبعد ما يمكن من الترف والإسراف. وعليه أيضًا أن يمتنع عن تقديم الهدايا خِفيةً. ففناجين القهوة وباقات الأزهار وغيرها من قطع المافين قد تُراكم في نهاية المطاف مبلغًا لا بأس به. يا للأسف! فقد كان ذلك يمتعه ويسعده حقًّا. وحيث إنّنا جميعًا، مربوطون ببعضنا بعضًا، فإذا صنعنا الخير لغيرنا، إنّما نصنعه لأنفسنا أيضًا...

كان عليه أن يجد وسيلة ليستمرّ في صنع الخير، إنّما على نحوٍ آخر، وبشكل آخر، ومن دون أن يضحّي بحسابه المصرفيّ...

* * *

– ما ألذّ وأطيبَ حلوياتك هذه! تهانينا الحارّة!

حملق غاري في الزبون. رجل في الأربعين من العمر تقريبًا، أنيق الملبس. لم يَره قطّ من قبل. في أيّ حال، ليس من روّاد المحلّ.

– أريد ثلاثة، لا بل أربعة منها.

وضع غاري قطع المافين في كيس، وقبض ثمنها بصمت.

– رائع. عمتَ مساءً، وشكرًا مرّة أخرى!

لاحقه غاري بنظراته إلى أن اجتاز عتبة المخبز.

لكن، ما بال الجميع هذا الصباح؟ ماذا دهاهم؟ يتصرّفون في غرابة وبشكل يثير الارتياب. ثمّة شيء ما غير سَوِيّ لديهم. ثمّ لِمَ

عددهم كبير إلى هذا الحدّ؟ لم يرَ يومًا زبائن في هذه الكثرة وفي يوم واحد. حتّى أنّه لم يتوقّف عن الخَبيز وإعادة الخبيز.

انتبه فجأةً إلى زعيق الأولاد في الخارج. حتّى تلك اللحظة، لم يكن يُلقي بالًا من شدّة انهماكه في العمل. كلّ مرّة يرتكبون الحماقات ومزيدًا منها. الأولاد في الباحة كالمافين في الفرن: تغفل عنهم خمس دقائق، فتقع الكارثة.

– هل أنت المدعوّ غاري؟

رفع ناظريه. رأى سيّدة غريبة تتقدّم نحوه بابتسامة أغرب، والحقّ يُقال، بقبّعة ولا أغرب. ترى ماذا تريد هي الأخرى؟

– الحلوى خاصّتك متعة للمذاق!

حدّق غاري فيها لحظة. في صوتها العالي والرفيع، كانت تبدو مثل مغنّية الأوبرا، تمامًا كاللواتي يشاهدهُنّ أحيانًا في التلفزيون، يزعقنَ زعيقًا كما لو أنّ أحدًا يحاول خنقهنّ.

قال لها:

– ليست حلوى، بل مافين...

– أريد قطعتين، من فضلك. إنّها لذيذة جدًا، طريّة وسائغة. أنت أفضل حلوانيّ، منتهى المهارة! منتهى الروعة! آه! أعشق قطع الحلوى هذه!

لم تتوقّف عن الإشادة. أخيرًا، أخذت كيسها وانصرفت وهي تُغدق عبارات الإطراء، مطلقةً صرخات فرح متقطّعة كنجمات الأفلام السينمائيّة. أقول في السينما لأنّ هذا النوع من صراخ الفرح غير موجود في الحياة الواقعيّة.

– ما أطيب هذا الخُبز سيّدي. ما ثمن القطعة؟

كان يوم النماذج العجيبة الغريبة.

– ليس خبزًا بل حلوى المافين. دولار واحد ثمن القطعة العاديّة، ودولار و35 سنتًا ثمن الأصناف الأخرى.

– نعم، أريد واحدة عاديّة. والحقّ ومن دون مزاح، أنت ماهر جدًا. لا بل صدقًا: هذا المافين متعة خالصة.

عقد غاري حاجبيه. فكّر في أولاده. عليه أن يكون أكثر تشدّدًا وحزمًا معهم لئلّا يتحوّلوا أنموذجًا كالواقف أمامه هذا.

– أشكرك ثانيةً، سيّدي! إنّها رائعة هذه الـ... حسنًا هذه القطع.

– مساء الخير. أنا مستعجلة، بادرته زبونة شابّة أخرى. هلّا أعطيتني اثنتين؟ بحُبيبات الشوكولاته. آخذهما معي.

لفّهُما في كيس في صمت.

– لطيف جدًا ما تصنعه. غالبًا ما أمرّ من هنا، لكنّني لا أدخل...

نظر إليها غاري وهي تغادر.

غريب أمرُ هذا اليوم. فالجميع يبتسمون له ويغدقون عليه الإطراءات والشكر. كما لو أنّهم اتّفقوا كلّهم في آن واحد على الاستهزاء به.

مع ذلك، عندما حان موعد نومه ذلك المساء، بعدما هدّه تعب نهار شاقّ من العمل، شقّت ابتسامة طريقها إلى شفتيه بخجل، وذلك من دون أن يعرف السبب. لا بدّ أنّ عدوى جنون أولئك كلّهم انتقلت إليه أيضًا.

31

نظر جوناثان إلى شريكه. منذ فترة ومايكل لم يعُد كسابق عهده. بات أقلّ مرَحًا وممازحة تجاهه، ولو أنّه لم يفقد حسّه الفكاهيّ كليًّا. على الأرجح، لم يغفر له طريقته الجديدة في العمل، والأقلّ إنتاجيةً. مع أنّ ذلك لم يؤثّر سلبًا في راتب مايكل، فلكلّ عمولته الخاصّة به، تبعًا لنتائجه وأرباحه.

لكن بشكل ما، كان جوناثان يتفهّم موقفه. فما بين الشركاء كما بين الزوجين: إذا تطوّر أحدٌ في اتّجاه مختلف عن الآخر فقد تصبح المساكنة عسيرة شاقّة.

مرّت صورة أنجيلا لا محالة أمام عينيه. منذ الإهانة التي شعر بها بعدما باح لها بمكنون قلبه، وأحدهما يحرص على تجنُّب الآخر. كان جوناثان يشارك مايكل قهوة الصباح، مرّة كلّ يومين. نوع من الاتّفاق الضمنيّ الذي لم يُعلَن صراحةً.

في ذلك الصباح، كان ترّاس المقهى عامرًا.

– هل رأيت الرجل هناك الذي يرتدي قميصًا ماركة بولو بيج اللون، والجالس قبالة الفتاة التي ترتدي الأحمر؟ إنّه زبون عندنا، قال جوناثان في صوت خفيض.

نظر إليه مايكل بضع لحظات.

– آمل بأن تكون بعته بوليصة ضدّ الحريق بأعلى سعر ممكن.

– لماذا؟
– لأنّني أعرف عشيقته.
– وماذا إذًا؟
– امرأة من نار.
ابتسم جوناثان.
– لا، في الواقع، لا داعي لذلك، أضاف مايكل. فهي حيثما مرّت، يمكن أن تكون أكيدًا من أنّها ستحصل على إيصال تعويض عن الكوارث الطبيعيّة.
– اصمت يا مايكل، احتجّ جوناثان، وهو يضحك رغمًا عنه.
– وعلى ذكر الكارثة، هل ترى الشخص إلى اليمين في آخر التراس، في ملابسه المتأنّقة الغريبة؟
نظر جوناثان إلى حيث أشار مايكل.
– هذا... مختلف، هذا مبتكر...
– مختلف؟ مختلف بالكامل، أجاب مايكل مقهقهًا بشدّة.
اقتربت منهما النادلة.
– صباح الخير، ماذا أقدّم لكما اليوم؟ سألت وهي تلثغ بعض الشيء.
– فنجانَي قهوة، أجاب جوناثان.
نظر إليها مايكل وهي تبتعد.
– «زازلبُ لكما القهوة على زناح الزرعة»، قال مايكل ضاحكًا وهو يقلّد لسانها اللاثغ.
– أغلق فمك...
منذ زمن بعيد، لاحظ جوناثان الأمر: عندما يكون مايكل في حالة سيّئة، تتحوّل الدعابة عنده تهكّمًا ساخرًا.
– هل ستأخذ عطلة هذه السنة؟ سأله جوناثان.
هزّ مايكل رأسه نافيًا.

– يجب أن يبقى أحدنا ليؤمّن سير العمل.

لم يردّ جوناثان على ملاحظته.

قبالتهما، كانت سيّدة تحاول ركن سيّارتها بين اثنتين.

– أوه لا... لن تنجح، قال مايكل. اسمع، افعل مثلي: سننظر إليها ونحن نضحك كلانا معًا وفي الوقت نفسه. وأراهنك على أنّها لن تنجح في رَكن السيّارة وستتراجع عن ذلك.

– مايكل...

– بلى، هيّا، لقد فعلتُ ذلك خمس عشرة مرّة، أمر مُضحك بحقّ. هي أصلًا تواجه صعوبة. حدّق فيها، فتفقد قدراتها كلّها وتفشل كليًّا!

– لا أرغب في فعل ذلك.

– ألا تريد أن نضحك قليلًا؟ وهذا يذكّرني بشيء آخر. لكن يجب أن نكون ثلاثة أو أربعة حول طاولة على الترّاس لكي يفلح الأمر: تختار امرأة تنتعل كعبًا عاليًا وهي تمشي في اتّجاهك. يحدّق الجميع في قدميها عابسين، كأنّما ثمّة عيب ما... وهل تعرف ماذا؟

– كلّا.

– تسع مرّات من أصل عشر، تتعثّر المرأة!

وانتابت مايكل نوبة من الضحك الشديد.

– أقسم لكَ، هذا مضحك ومسلٍّ جدًّا!

ابتسم جوناثان.

– نعم... عندما نريد مشاهدة المشاكل نختلقها اختلاقًا.

لم يسمعه مايكل.

– أمّا أسوأ السائقين فهم المسنّون بلا منازع. بما أنّ أعناقهم متيبّسة، لا يلتفتون إلى الخلف وهم يرجعون إلى الوراء، ولا يمينًا أو يسارًا عندما ينعطفون. قد نتساءل لماذا لا يبقون في دور المسنّين أو ما شابه.

قدّمت النادلة فنجانَي القهوة.

نظر جوناثان إلى مايكل بضع لحظات، ثمّ انحنى صوبه، خافضًا صوته.

– وكذلك أنا عندما أصاب بألمٍ أو تشنّج في العنق، يصبح يابسًا وأعجز عن الالتفات يمنة أو يسرة.

– حظّي سيّئ.

واصل جوناثان بصوتٍ خافت وبلهجة مَن يبوح بسرّ:

– وأحيانًا، وأنا أركن سيّارتي، أفشل فشلًا ذريعًا فأخطئ الفسحة بين السيّارتين. وأحيانًا أيضًا، يحدث لي وأنا أتكلّم أن أتلعثم فألثغ، ولا يفهم أحد ما أقول. في الواقع... لديّ الكثير من العيوب: كثيرًا ما يتملّكني الخوف، فأنا لستُ مِقدامًا شجاعًا. وأحيانًا أخرى أشكّ في قدراتي، ثمّ أعاني نقصًا في الحيويّة والطاقة. وأنا...

– ولماذا تُخبرني بذلك كلّه؟ قاطعه مايكل، وقد انتابه الحرج من هذه الاعترافات.

– وأريد أن أطلِعَكَ على سرّ: أنا لا أميل إلى الكمال. بل أكره الاعتناء بأدقّ التفاصيل. وعلاوة على ذلك، عندما أكره عملًا أو واجبًا ما، أؤجّله إلى وقت لاحق، يومًا بعد يوم، وهكذا دواليك، حتى يتحوّل مشكلة. مشكلة يتطلّب حلُّها ثلاثة أضعاف الوقت الذي كان مطلوبًا لو أنجزته في حينه. غير أنّني لا أستطيع أن أمتنع عن ذلك. هذه حماقة أليس كذلك؟ وأيضًا لستُ صبورًا، بل أثور وأغضب في سرعة. مثلًا، عندما ترتكب كلويه الحماقات، أصرخ فيها ثمّ ألومُ نفسي بعد ذلك. ثمّ أنا...

– ولكن... لماذا تقول لي هذه الأمور كلّها؟

– أعاني أيضًا صعوبة في...

– لديك أيضًا حسنات...

توقّف جوناثان فجأةً عن الكلام، واعتدل في جلسته في هدوء.

– أجل، قال في ابتسامة عريضة. لديّ أيضًا حسنات.

* * *

فتح ريان عينه، ونظر إلى المنبّه.

تبًّا.

الساعة التاسعة. لماذا لم يستيقظ أبكر؟ نهض من السرير في قفزة واحدة. هرع إلى نافذة الصالون، وأزاح الستائر السوداء قليلًا. لقد فاته مجيء جوناثان إلى الترّاس. حتى أنّ أحدًا لم يره أمس...

تفقّد الطاولات التي يشغلها زبائن. فجأةً، لمحه. كان واقفًا وراء طاولة، يتأهّب للمغادرة كما يبدو، وحده قبالة النادلة. تبًّا!

أسرع إلى معدّات التصوير، وشغّلها كلّها أسرع من البرق، ووضع السمّاعات على أذنيه.

– وكنتُ أريد أن أخبركِ بشيء أيضًا، قال جوناثان للنادلة.

سلّط ريان الكاميرا على وجهَيهما.

– إنّ ابتسامتكِ جميلة ومُريحة جدًّا. تمنحني مزاجًا طيّبًا منذ الصباح.

راحت النادلة تبتسم ابتسامة عريضة، فيما احمرّت وجنتاها بعض الشيء.

غادر جوناثان الترّاس.

32

يوم الأحد.

نظر ريان في توتّر شديد من خلال الستائر السوداء. لا أحد سوى السيّاح على التّراس. نادرًا ما يأتي بطل مدوّنته أثناء عطلة الأسبوع.

فتح عبوّة كوكا ورفعها على الفور إلى فمه. كان أكثر ما يهواه الثواني الأولى التي يشعر فيها برذاذ القطرات الرقيقة يفرقع على منخريه. شرب بضع جرعات منعشة.

لقد حلّقت مدوّنته تحليقًا لم يكن يتوقّعه قطّ. أقلّه ليس إلى هذا الحدّ. فروّاد الموقع الدائمون باتوا يُعدّون آلافًا. والحشد يتزايد كلّ يوم أكثر فأكثر. وهنا تكمن حسنة الويب: البداية صعبة، ولكن ما إن تنطلق حتّى تحقّق ضربة الموسم. والواقع أنّ الخبر الذائع من شخص إلى آخر، تتناقله الألسن، يسري كالنار في الهشيم. فالناس يرسلون رابط الموقع إلى كامل لائحة أصدقائهم ورفاقهم ومعارفهم المسجّلين في الإنترنت ليشاركوهم الضحك. وإذا أعجبَ هؤلاء، أرسلوه أيضًا إلى آخرين. هكذا ترتفع الأرقام كالسهم وتأخذ شكلًا تصاعديًا؛ منحنًى بيانيًا، كاملًا متكاملًا، كما يهواه طلّاب الهندسة.

وضع السمّاعات على أذنيه، وواصل تنصّته إلى أحاديث الناس من طاولة إلى أخرى.

ليس ثمّة ما هو أكثر مللًا وأتفه من أحاديث السيّاح. لسوء الحظّ، ليست حماقة بل تفاهة، لا شيء يُذكر. بالتالي، لا شيء يُضحِك. ضَجِرًا، جال ريان في غرفته، ثمّ ألقى نظرةً من النافذة. على الفور، لمح جوناثان من بعيد، فشغّل الكاميرا المسلّطة في استمرار على حديقته. أحسّ فورًا بأنّ هناك ما يُحاك. كان جوناثان يتلفّت حواليه بنظرات غريبة. لم يكن طبيعيًا البتّة. لا بأس، وهذا أفضل. تحقّق ريان من بيانات ضبط العدسة والصوت، وأعاد ضبط إطار الصورة.

دخل جوناثان لحظة إلى سقيفة حديقته، ثمّ عاود الظهور دافعًا أمامه آلة جزّ العشب. تبًا. يا للخسارة.

لكنّ ريان، مدفوعًا بما يشبه الحدس، واصل التصوير بضع لحظات أخرى.

تلفّت جوناثان حواليه مرّة أخرى، فيما سار قُدُمًا نحو آخر الحديقة. استدار عائدًا جارًّا الجزّازة، ثمّ راح يباعد أغصان الشُجيرات التي تشكّل سياجًا فاصلًا بين حديقته والحديقة المقابلة.

والحديقة المقابلة هي على وجه التحديد حديقة بطل المدوّنة السابق: الشهير غاري.

وها جوناثان يتسلّل إليها في صعوبة.

وماذا يفعل جوناثان بجزّازته في حديقة ذلك الأحمق العجوز الآخر؟

أخذت الجزّازة تهدر. أن يسعى وكيل تأمينات إلى تغذية حسابه الشهريّ عبر الاعتناء بحديقة جيرانه، خيرُ دليل على أنّ الأزمة الاقتصاديّة ما زالت قائمة مهما أكّدت الصحف العكس.

* * *

لو أدرك كلٌّ منّا قيمته الشخصيّة الهائلة، لتبدّل وجه العالم كلّه.

لكنّنا نعيش في مجتمع لا يُفصح فيه الواحد للآخر إلّا نادرًا، ما يراه لديه من أمور حسنة. لا بل نخجل من التعبير عن ذلك. وفي النهاية، يغلبنا التحفّظ: كلٌّ منّا يحتفظ سرًّا في داخله بآرائه الإيجابيّة، كما لو أنّها بذور يتركها تجفّ وتيبس في جيبه، بدلًا من أن يزرعها أو يعهد بها إلى نسمة الريح، إلى التراب والمطر.

ولعلّ ذاك هو السبب في أنّ الناس لم يعتادوا تلقّي رسائل من هذا القبيل، ومن الصعب أن نشيد بشخص أو نُطري عليه في صدق وصراحة، من دون أن يُساء تفسير ذلك، أو أن يُعزى إلى نوايا مبيّتة. وإن في ضربة حظّ استثنائية لم يضعوا صراحتكَ وصدقكَ موضع شكّ، فإنّ مُخاطبكَ هذا غالبًا ما سيحاول التقليل، وفي شتى الوسائل، من أهميّة الحسنة التي تقدّرها أنت لديه، في دافعٍ من تواضعٍ يُخفي الارتباك تجاه هذه الهديّة غير المعهودة.

للتغلّب على هذه العقبات وجد جوناثان حلًّا لا يُضاهى: الثناء على الآخرين والإشادة بهم، ثمّ الانصراف سريعًا من أمامهم. يبقى الوقت اللازم فقط لرؤية الدهشة والمفاجأة على مُحيّاهم، أو البسمة تُبرعِم على شفاههم، أو البريق يلتمع في عيونهم، ثمّ يختفي من أمامهم بعد تسليمهم هذا الجزء الصغير من المرآة الإيجابيّة. كان ذلك مدعاة متعة وفرح وكان جوناثان يهواه.

وبما أنّه لا يعرف «ضحاياه» مُسبقًا، فإنّ المسألة الأساسيّة غالبًا ما تقضي انتقاء الإطراء الذي سيتفوّه به. ولكن زياراته المتكرّرة إلى تزّاس المقهى قد أتاحت له تطوير غريزته وتهذيبها والإصغاء إلى حدسه.

والحقّ، إنّه لأمر مسلٍّ وممتع أن تراقب شخصًا لا تعرفه، فتحاول معرفة حسناته ومزاياه بحسّك الباطنيّ، هكذا. أن تنظر إليه بضع لحظات، وتحسّ بنمط عيشه وسلوكه، وتستشعر قِيَمه وفضائله ومقدّراته. تلك مسألة شخصيّة تمامًا، غير عقلانيّة وغير مبرّرة، ولا

تستند إلى أيّ أساس منطقيّ. ثمّ تجد الوسيلة الناجعة للتواصل معه فتبادل الحديث معه، كما تتسلّى وتستمتع حين تلاحظ أنّ نظرتك كانت صائبة، في معظم الأحيان.

لكن، في ذلك النهار تحديدًا، لم يُسعِفه تمرّسه البتة، عندما تواصل مع الشخص السابع الذي ترجّل من الترام، والذي صودف أنّه رجل، وقد بدا من مظهره ومشيته، أنّه حارس ملهى ليليّ.

– صباح الخير، بادره جوناثان مبتسمًا. أودّ أن أقول لكَ...

نظر إليه الآخر نظرة استياء ونفور توحي بأنّه يوشك على الصياح, هذا ما قطعَ على جوناثان كلّ حدسٍ وحسّ، فبات عاجزًا عن استيحاء أيّ صفة إيجابيّة لدى محدّثه.

– كنتُ أريد فقط أن أقول... أن أقول...

حاول أن يجد حسنة ما له في سرعة. حسنة ما، أيًا كانت... تُرى ما الذي قد يتمتّع به هذا الشخص من مزايا؟...

– ماذا؟ سأله الآخر بلهجةٍ عدائيّة.

كانت نظرته تزداد شراسة وقساوة، وجوناثان حرَجًا وارتباكًا.

كلن ثمّة حلّ بسيط وهو أن يبتدع أيّ إطراء موجَز ولو تافه. لكنّ جوناثان كان قطع عهدًا على نفسه بألّا يقول أيّ كلمة غير صادقة.

– ماذا تريد منّي؟ قال الرجل في إلحاح حثيث ومُتزايد.

خطا خطوةً في اتّجاه جوناثان.

– في الواقع، أنا... لا شيء! لا أريد أن أقول لك شيئًا. لا شيء.

حدّق فيه الآخر لحظةً، ثمّ ابتعد ونظراته العدوانيّة لا تزال مصوَّبة كالسهام السامّة.

لحسنِ الحظّ، لم تلاحق البليّة جوناثان. ففي المحاولة التالية، اختار له القدر جدّة بشوشًا لطيفة وجَدَ لها جوناثان فورًا ألف حسنة وحسنة.

* * *

في ذلك الصباح، خرج غاري من محلّه كما جرت العادة كلّ يوم، حاملًا بريده بيد وفنجان قهوة باليد الثانية، ليجلس وسط العشب، على مقعده البلاستيك الأبيض. لكن، ما إن سار بضع خطوات حتى توقّف فاغر الفم من شدّة الذهول.

كانت حديقته، والتي عادةً ما تغزوها الأعشاب البرّية وشبه المهروسة تحت أقدام أولاده، تمتدّ أمامه، مجزوزة وجميلة ونظيفة. فرك عينيه الواسعتين.

– يا إلهي، ماذا يحصل؟

لم يكن في حلم. «أحد ما» جزّ عشب حديقته هو.

ماذا لو كان الأولاد هم الذين فعلوا ذلك من وراء ظهره؟ لا، مستحيل. كانوا معه في المنزل طوال يوم الأحد، على مسافة أكثر من عشرة كيلومترات. حتى لو أتوا بدرّاجاتهم، لما تسنّى لهم الوقت الكافي.

أجال نظره على عشب الحديقة المجزوز جزًّا تامًّا ودقيقًا. هزّ رأسه في بطء. ولكن، ما الذي يحدث في حياته مؤخّرًا؟

جلس في النهاية وأخذ يفتح رسائل اليوم.

إعلان لشركة تبيع كاميرات مراقبة.

فاتورة الهاتف.

الإيجار.

إعلان يروّج للافتات كهربائيّة.

ثمّ مغلّف أسمر صغير كُتِب عليه بخطّ اليد كلمة: غاري، وتحتها خطّ.

عقد حاجبَيه. فقد اشتمّ رائحة متاعب. لعلّه أحد الجيران يشتكي من ضجيج الأولاد في الفناء، أو آخر لا يُطيق رائحة الدهون.

أدخَل إصبعه الغليظة في فرجة الظرف ممزِّقًا غلافه. في الداخل، ورقة عاديّة مطويّة، سمراء أيضًا. أخرجها وفتحها. لم تكن تتضمّن سوى جملة واحدة، مكتوبة باليد، في وسط الصفحة تمامًا:

«أجداد أجدادك كانوا يحبّون أجدادك،
ولكنّهم لم يعرفوا كيف يعبّرون لهم عن محبّتهم.»

رفع غاري حاجبَيه. أعاد قراءة الجملة مرّاتٍ عدّة. ثمّ قلب الورقة فالمغلّف. لا معلومة عن مصدر الرسالة. تلقائيًا، التفت في بطء وأجال نظره على البيوت والبنايات المحيطة.

– ما هذه الحماقات؟

هزّ كتفَيه، وانتقل إلى الرسالة التالية.

المتعهّد الذي يموّله بالطحين يُعلن رفع الأسعار نسبة 2.3 في المئة.

«صفقات وتجارة كالمعهود.»

33

بعدما غازل القبيحات من دون جدوى، أخذ يغازل من هو في متناول يده

تحت هذا العنوان البريء، نشرت المدوّنة سلسلة من شرائط الفيديو، وجميعها ممتعة هزليّة، حيث يظهر جوناثان تحديدًا وهو يستوقف في الشارع امرأة مسنّة لا يقلّ عمرها عن ثمانين سنة، ويُسمِعها كلام الغزل والإطراء.

درس في الإغواء، التمرين 9

هنا، نرى جوناثان ينتظر على الرصيف ريثما يتّجه ناحيته ركّاب يترجّلون من الترام. ونلمح في عينيه بصيص الأمل، ثمّ نراه يتّجه نحو رجل بدين متين، له سحنة المجرمين، ويفوق الرجوليّة رجولة. وهنا، يحدث ما لا يُصدّق. جوناثان المسكين يقترب منه ويحاول أن يغويه متمتمًا بضع كلمات يائسة، قبل أن ينبذه الآخر شرّ نبذ.

في المدوّنة، جنّ جنون المتصفّحين، والذين راح عددهم يزداد بشكل تصاعديّ. كانوا فرحين في سموم الاستهزاء والتهكّم والنكات الساخرة، ممرّغين جوناثان وسمعته في وحولها. كانت الإهانات والشتائم تمطره من كلّ صوب، والتعليقات اللاذعة المميتة تتدفّق من دون انقطاع، وريان يهلّل ابتهاجًا.

بعدما أمضى وقتًا طويلًا يبحث عن شتى الأساليب والوسائل الكفيلة بإذاعة صيت أغبيائه، ها هو ريان يخوض مهمّة أخرى ألا وهي إدارة النجاح. كان مجموع زوّار الموقع يتزايد يومًا بعد يوم، وعلى ريان أن يغذّي البرنامج بموادّ جديدة. لحسن حظّه، كان نجمه الأحمق غزير الإنتاج: لا يوقفه شيء.

* * *

كان جوناثان يحلق ذقنه وعينه على حديقة غاري. ذلك الفظّ كان يصرخ، بل يعوي في وجه أولاده المساكين، الذين لم يرتكبوا ما يستحقّ التأنيب كما يبدو.
بينما كان جوناثان يبحث عن شاحن آلة الحلاقة، عثر على المستحضر الذي كان يستعمله سابقًا لصبغ أوائل الشعيرات البيضاء في رأسه. ابتسم ورماه في سلّة المهملات الصغيرة في الحمّام. وفي اللحظة التي وضع يده على الشاحن، رنّ جرس الباب في إلحاح. نزل الدرجات الخشبيّة الضيّقة المطليّة بالأبيض، وفتح الباب.

رجل يرتدي بزّة ويضع ربطة عنق، مدّ له شارة معدنيّة تحمل صورته.

– جايمس غوردون، مأمور قضائيّ.

ثمّ سلّمه رسالة.

– هذا إشعار رسميّ من بنك كاليفورنيا. كما ستقرأ الآن، لديك مهلة خمسة عشر يومًا لكي تسدّ عجز حسابك المكشوف. وإلّا فسأعود وأجري عمليّة جرد لأثاث المنزل.

خانت جوناثان الكلمات.

– وقّع هنا من فضلك، قال المأمور وهو يناوله إشعارًا بالاستلام وقلمًا.

* * *

ارتعد غاري عندما رأى المغلّف الأسمر الصغير في صندوق بريده. الرسالة الوحيدة لهذا الصباح. من خلال الزجاج، ألقى نظرة فاحصة على الشارع، ثمّ تنهّد. بينما كان يجتاز مخبزه، قال لأولاده الجالسين أمام مائدة الفطور:

– هيّا أسرعوا، أنهوا فطوركم، سنفتح المحلّ بعد قليل!

خرج إلى الفناء، مغلقًا الباب وراءه في عناية. ثمّ فضّ المغلّف وأخرج منه الورقة. الورقة السمراء عينها والناعمة الملمس، كما في المرّة السابقة.

«جدّاك كانا يحبّان والدَيك،
لكنّهما لم يعرفا كيف يعبّران لهما عن محبّتهما.»

حدّق غاري مليًّا في النصّ، وأعاد قراءته تلقائيًّا، مرّاتٍ عدّة. «يا الله، ماذا تريدون منّي؟ اللعنة، مَن يمكن أن يُرسِل إليّ أشياء كهذه؟ تُرى ماذا يحدث في حياتي في هذه الآونة؟»

* * *

أُصيب ريمون بخيبة كبيرة. ولا زاوية واحدة شاغرة في الـ«ستيلّا». كلّ المقاعد محجوزة. ويجرؤون على قول ذلك، له هو شخصيًّا، هو الذي بات من أثاث المطعم وجزءًا لا يتجزّأ منه منذ حوالى الأربعين سنة. تلك المرّة الأولى التي توجّه إليه مثل هذه الإهانة، كأنّه تلقّى صفعة حارقة على وجهه. كان يتعرّق غضبًا وسخطًا. كاد يبكي من شدّة غيظه.

مجروحًا في الصميم، جرجرَ خطاه إلى الحانة، هناك على بُعد أمتار، عند تخوم الموقع. حانة لا يطأها «نجوم الطبقة المخمليّة».

أحسّ بثقل وضيق، كما لو أنّ الكاميرا في حقيبته قد استُبدِلَت بصخرة تزن طنَّين.

دفع الباب. دخل وجلس إلى البار من دون أن ينزع نظارته الشمسيّة.

– بيرة من فضلك.

شرب حتّى بدأ المشروب ينسيه شعوره بالعار.

عندذاك، تنفّس عميقًا واسترخى قليلًا. صفعة كهذه لن تنفع الضغط الشراييني.

أخيرًا، التفت وألقى نظرة إلى الصالة.

ما رآه جعله يتجمّد مكانه.

كان وارين، مدرّب أوستن، يتناول الغداء مع راعي جاك فولش، خصمه الرئيسيّ، واللاعب الوحيد القادر على انتزاع بطولة العالَم منه. عدوّه اللدود.

لم يصدّق ريمون عينَيه.

الأمر لا يعنيني. ولكن ثمّة ما لا يسير كما هو متوقّع.

ولم يكن من قبيل المصادفة أن يختليا في حانة بعيدة، حيث من المؤكّد أنّهما لن يصادفا أيًا من معارفهما.

ولكن...

لقد اتّضح كلّ شيء الآن. وكلّ شيء بات مفهومًا. لقد تمّ شراء وارين.

34

كان الليل يلفّ سان فرانسيسكو بعتمته السحريّة.

من شرفة منزلها الصغير، القابع على قمّة الرابية، راحت أنجيلا تتأمّل أنوار المدينة المتلألئة في البعيد.

في الأيّام القليلة الأخيرة، كان القمر قد نحل حتّى غدا رفيعًا كخيط شفّاف، وسط سماء رُشّت بالنجوم.

كانت كلويه تغطّ في نوم عميق، ولم تكن أنجيلا ترغب في أيّ شيء هذا المساء. لا في مشاهدة فيلم في التلفزيون، ولا في تصفُّح كتاب. لذا، أخذت تستعرض بريدها الإلكترونيّ، شاردة الذهن. لا شيء استثنائي. كانت جوليا، وهي رفيقة قديمة من أيّام الليسيه انقطعت أخبارها منذ زمن بعيد، تتواصل معها الآن من حين إلى آخر، بعدما وجدت عنوانها في فايسبوك. وأمّا الرسالة التي بعثت بها هذا المساء فلم تكن موجّهة إليها شخصيًّا، بل إلى مجموعة كبيرة من الأشخاص ومن بينهم هي:

«تريدون القهقهة من شدّة الضحك؟!

زوروا هذا الموقع: www.minneapolischronicles.com/thekingofidiots.html

قبلاتي، جوليا»

رابط جديد يصل متصفّحه على الأرجح بنكات مضحكة أو مضحكة مبكية، بالتأكيد خالية من الذوق، على غرار الروابط التي

كانت جوليا ترسِلها بين الحين والآخر.

لكن لا بأس، فأنجيلا تميل إلى الاكتئاب هذا المساء؛ لا بأس إذًا ببعض الضحك. فالضحك نافع في أيّ حال.

نقرت أنجيلا على الرابط.

رسالة تفيد بخطإٍ إرسال.

لا بدّ من أنّ جوليا لم تتقن نسخ الرابط. أعادت أنجيلا طبع اسم الموقع من دون الإضافة الملحقة به، فدخلت صفحة الاستقبال.

مجموعة من شرائط الفيديو تحت عناوين جذّابة توحي بمشاهد كوميديّة ضاحكة.

نقرت على الشريط الأوّل، فكان مختصرًا ومضحكًا. عندذاك، انتقلت إلى فيديو آخر مسلٍّ أيضًا، ولو أنّ العناوين أزعجتها بعض الشيء، إذ كانت مشحونة بمعانٍ ساخرة. بينما كانت تعاين أحدها، انتابها فجأةً شعور غريب، لا يمكن تفسيره. لمحة ضيق أو قلق لا مبرِّر لها، لا سيّما أنّ المشهد المصوّر كان تافهًا: محادثة بين شخصين حول طاولة، يقول أحدهما للآخر أنّه يأكل أزهار حديقته. كان الشعور غريبًا عجيبًا حتّى أنّه دفعها إلى معاينة الشريط مرّة أخرى، آملة بأن تكتشف مصدر اضطرابها، فلم تجده. لكنّ الشعور الغريب هذا لم يفارقها.

راودتها الرغبة في مغادرة الموقع في أقصى سرعة؛ ومع ذلك، بقي شيء ما في أعماقها يردعها ويأمرها بالبقاء، من دون أن تعرف السبب.

واصلت تصفّح الموقع وعاينت بعض الشرائط الهزليّة. حسنًا ليست في مستوى يخوّلها الحصول على أوسكار الكوميديا الهزليّة، لكنّها رغم كلّ شيء، مضحكة. استرخت، وقلّبت بعض الصفحات، وفي كلّ مرة كانت تكتشف وجه ضحيّة جديدة ذات أفكار أو تعابير أو مواقف مُضحكة.

لم تتمالك نفسها عن إطلاق صيحة ذهول حين ظهر وجه جوناثان وسع الشاشة.

كيف وصل إلى هذه المدوّنة؟؟؟

«آخر أخبار مينيابوليس»... موقع لا صلة له بوسط غرب الولايات المتحدة.

تملّكها الفضول فوزًا: أيّ حماقة قادت جوناثان إلى الفوز في مكان له في هذا الموقع؟ بفارغ الصبر، نقرت على الشريط. مشهد جوناثان وهو يدبّ على أربعة، وسط مرجة حديقته، ينتزع النفل عشبة عشبة، جعلها تقهقه عاليًا وتُذهل في آن واحد. تبًا، كيف أمكن تصوير جوناثان هكذا، وهو في حديقته، حديقة بيته الخاصّ!!! لئن تمكّن أيّ شخص من تصوير جيرانه فنشر صورهم في هذه المدوّنة، لأمر مخيف حقًّا...

كانت تعليقات المتصفّحين مليئة بالهزء المسيء. ولكن، حسنًا... في الإنترنت لا يمكن تفادي ذلك...

ومع ذلك، فإنّ وجود جوناثان هنا، في هذه المدوّنة، وقد صُوِّرَ بغير عِلمٍ منه، أمر لا يُصدّق! هي لا تصدّق ما تراه عيناها. يا للمصادفة، أن تُرسِل جوليا الرابط، هي التي لم تلتقِ مرّةً بزوجها السابق، وبالتالي فهي لم تستطع التعرّف إليه في الشريط. قد يكون ذلك أفضل، في أيّ حال...

نقرت الزرّ «تابع» فظهرت الصفحة التالية. شريط لجوناثان أيضًا!

رأته يقدّم فنجان قهوةٍ لامرأة من دون أن يكشف هويّته. كان المعلّقون يسخرون من محاولة الغزل الفاشلة هذه، لكنّ أنجيلا أدركت على الفور أنّهم مُخطِئون كليًا. تلك المرأة لم تكن من النوع الذي يستذوقه زوجها السابق، لأقسمت على ذلك. ثمّ ما كان ليقوم بالأمر على هذا النحو، فهي تعرفه ما يكفي لتجزم بذلك.

وَتَلَت شرائط أخرى كثيرة. كان جوناثان يُراكم هباته وهداياه المجهولة الهويّة، تحت استهزاء المتصفّحين وتهكّماتهم. هذا الهجوم الممنهَج كاد يدفع أنجيلا إلى الدفاع عن جوناثان، رغمًا عنها. وكلّما شاهدت تلك اللقطات، استشعرت أكثر فأكثر نوايا صاحبها. نوايا نبيلة

تتنافر تمامًا مع الاستهزاءات التي تستثيرها أفعاله الشريفة. كانت التعليقات تتدفّق في المئات، محقِّرَة، شاتمة، مُهينة. في النهاية، استحالت نظرة أنجيلا قاتمة، وظهرت الدموع تدرّجًا في عينيها، وهي تقرأ نصوص التعليقات المقرفة.

بعد ذلك، توالت سلسلة من الشرائط تُظهر جوناثان وهو يغدق مختلف الإطراءات على أشخاص مجهولين، ثمّ يختفي فجأةً من أمامهم، كما تقدّم منهم فجأةً، من دون أن ينتظر كلمة شكر. أفعال طيّبة مجّانًا. كانت الوجوه تتزيّن بالبسمات العريضة الصادقة، وحين يستأنف هؤلاء سيرهم، وقد شعّ في عيونهم بريق النفس الفرِحة، كان يبدو جليًا أنّ بقيّة نهارهم ستمضي في الغبطة والسرور.

تقطّرت الدموع على خدّي أنجيلا، فيما راحت عيناها تسترق النظر في وجل وقرف إلى سيل الإهانات المتدفّق.

ثمّ شاهدت جوناثان يتوجّه إلى شابّة حسناء في الشارع، ليقول لها بنبرة بالِغة الصدق ومؤثّرة جدًا: «أجدكِ جميلة جدًا»، فتشنّجت. في الشاشة، بادلته الشابّة ابتسامة ساحرة، مباشرةً قبل أن يتوارى بين الجموع. وهنا، توقّف الفيلم، عند نظرة لا لبس فيها، نظرة تدلّ بوضوح على أنّ المرأة أعجِبَت بالرجل الذي بادرها بهذا الكلام.

وتتالت التعليقات الرديئة، لاذعة وعنيفة. لئن كانت المرأة جميلة هذه المرّة، فقد أسقط هؤلاء الرعاع على جوناثان كامل عقد كبتِهم، كبت رجال يفتقرون إلى الأنثى. لن يسامحوه قطّ، إذ فوّت فرصة ما كانت لتسنَح لهم قطّ.

سارعت أنجيلا إلى لوحة مفاتيح الكمبيوتر، يدفعها خليط من المشاعر المرتبكة والمتشابكة. انتحلت أوّل اسم مستعار خطر في بالها، ثمّ كتبت ما كان يعتمل في قلبها.

«لم تفهموا شيئًا، إنّه لا يغازل أحدًا، ولا يسعى إلى انتزاع الإعجاب من أحد. أعماله أعمال نبيلة وكريمة وإنسانيّة ومُحبّة للغير، وتهدف إلى مساعدتهم. جوناثان هو...»

استدركَت، فمحَت الاسم.

«هذا الرجل يتمتّع بطيبة تستدعي الإعجاب والتقدير!»

غاضبة ساخطة، عيناها مبلّلتان بالدموع، نسخت نصّ تعليقها وألصقته تحت الشرائط المنشورة كلّها، الواحد تلو الآخر، والصفحة بعد الصفحة.

أطفأت الكمبيوتر بحركة ناقمة. أخذت رأسها بين كفّيها. واسترسلت في بكاء مرير.

على الرغم من كلّ المعاناة التي سبّبها جوناثان بخيانته لها، فقد أدركت الآن أنّها ما زالت تحبّه.

35

– مايكل؟

– نعم.

– هذه أنا، أنجيلا. لا تنتظرني لتناول القهوة. لن آتي اليوم إلى المكتب.

– هل أنتِ مريضة؟

– كلّا...

صمت.

– لكن، لست في مزاج مواتٍ للعمل.

ليست في مزاج. هيّا...

– حسنًا إذًا... إلى الغد.

صمتٌ جديد.

– لست أكيدة. في الواقع... لا أظنّ، كلّا.

– كيف؟

– أظنّ أنّني بحاجة إلى الابتعاد بعض الوقت... أنا... حسنًا، أعلِمُك عندما أعود.

أقفل مايكل الخطّ.

«ليست في مزاج مواتٍ، ليست في مزاج... طبعًا، فهي الأخرى ستغيب شهرًا، وعند عودتها، ستختبر مقاربةً جديدةً في العمل، ما

يساهم في هبوط الأرباح 20 في المئة! اللعنة! ماذا دهاني حتى شاركت أشخاصًا مجانين كهؤلاء؟ ولن أتحرّز منهم عمّا قريب كما يبدو... ومَن يمكن أن يقبل بشراء ثلث أسهم شركة متهاوية؟ ليس جون دايل بالطبع. تبًا، حين أفكّر في أنني كنتُ على قاب قوسَين أو أدنى من الثروة. أمرٌ مغيظ حقًّا.»

دخلت السكرتيرة المكتب.

– لا تبدو على ما يرام، قالت له.

رفع عينيه.

– آملُ بأنّكِ لم تأتِ لتقولي أنّك بحاجة إلى الابتعاد من العمل بعض الوقت.

– كيف؟

– لا؟ صدقًا، ألا تريدين أخذ إجازة شهرًا لتصغي إلى تقلّبات مزاجكِ، وتتساءلي عن معنى مهنتكِ ومغزاها، وعن نظرتك إلى الحياة، أو كي تحكّي أذنك برجلك؟

– ما هذا الكلام؟ ماذا تقول؟

– «فتاة مطيعة.» لماذا أتيتِ لرؤيتي إذًا؟

– لا شيء. أتيتُك بتقرير محاسبة الشهر الفائت.

– اتّفقتُم جميعًا على تثبيط معنويّاتي، أليس كذلك؟

هزّتْ كتفَيها، وخرجت.

فتح الوثيقة.

إجماليّ الأرباح: زائد 3 في المئة.

«ما هذه الترّهات؟»

ذهب مباشرةً إلى الصفحات الخاصّة بجوناثان.

متوسّط الأرباح للزبون الواحد: ناقص 19 في المئة.

أرباح الفرع: زائد 17 في المئة.

رفع سمّاعة هاتفه.

– جوناثان، هذا أنا. إذًا، قُل لي، هل أبرمت عقدًا دسمًا الشهر الماضي؟
– كلّا.
– حجم أرباحكَ الإجماليّ في صعود، بينما متوسط أرقامكَ للزبون الواحد مستمرّ في الهبوط. ما هذا إذًا؟
– أهو في صعود؟
– نعم، أجل.
– استقطبتُ زبائن جددًا من صغار التجّار. هذا سبب الصعود على الأرجح.
– وهبطوا عليكَ من السماء، هكذا؟
– بل بسبب توصيات الزبائن، من واحد إلى آخر، وهكذا دواليك. هذا ما قيل لي. يبدو أنّني أحرزت توصيات عدّة.
أقفل مايكل الخطّ.
زائد 3 في المئة في شهر واحد. هذا ما لم يحصل منذ زمن بعيد.
أطرق مفكّرًا هنيهة، ثمّ ضرب الطاولة بيده في غضب.
«اللعنة، ما كان ينبغي أن أدَع جوناثان يتراجع عن بيع حصّته لي!»

* * *

«ضربة إرسال رابحة!»
«سدّد الضربة الرابحة».
أغمض أوستن عينيه. سيشارك في النهائيّات.
تصفيق حادّ بلا توقّف، ولكن بلا هياج وابتهاج. كانوا يفضّلون في طبيعة الحال أن يفوز الشابّ الإسبانيّ الوسيم.
في أيّ حال، متى فزتُ في الدورة كاملة بعد يومين، سأدخل سجلّ الأرقام القياسيّة، وسأدخل التاريخ. سواء قبلوا أم رفضوا.

وعندئذٍ لن يعود في مستطاعهم أن يعاملوني في احتقار. ما لم يحبّوني، أقلّه سيحترمونني ويعاملونني معاملة الأبطال. لا محالة.

اقترب من الشبكة وصافح خصمه ثمّ الحَكَم، وسرعان ما توارى داخل حجرة الملابس. بعد نور الشمس الساطع، حلّت العتمة، كما لو أنّ نفقًا أسود ابتلعه، ثمّ النور من جديد، نور المصابيح الكاشفة، في حين انقضّ عليه الصحافيّون.

أدلى ببعض الإجابات، ثمّ توجّه إلى مقصورته، غرفة تافهة جدرانها بيضاء وأجواؤها خانقة، ويقتصر أثاثها على كرسيّين وكنبة ومنضدة خفيضة، وضِعت عليها سلّة فاكهة وبعض قوارير المياه الصغيرة. وتكدّست باقات أزهار من تلك التي أرسلها المُعجَبون فوق طاولة ملاصقة للجدار.

– تهانينا، قال له وارين. سأتركك ترتاح وتغتسل بضع دقائق ثمّ نعقد جلسة التقييم.

وما لبث أن توارى داخل الغرفة المجاورة.

جلس أوستن، فزال ضغط التوتّر والتشنّج عنه. استبدّ به التعب دفعةً واحدة. عبّ بضع جرعات من الماء، وجفّف وجهه بمنشفة ناعمة مفعمَة بعطر اللافندر وأغمض عينيه.

سيفوز في النهائيّات. كان يشعر بذلك. هذا ما يريده، وسيحصل عليه.

عندما فتح عينيه مجدّدًا، رأى شخصًا غريب المظهر واقفًا أمامه، رجلًا يقارب عمره الستّين، وجهه ضارب إلى الحمرة وإنّما فيه شيء مألوف. لعلّه مساعد مصوّر سُمِح له بالتسلّل إلى مقصورته على الرغم من التعليمات.

– مرحبًا، قال الرجل. تردّدتُ قبل أن آتي لأراك، ثمّ فكّرتُ في أنّه لا يسعني أن أحتفظ بهذا السرّ الثقيل لنفسي.

– مَن أنت؟ سأله أوستن بنفاد صبر.

لم يكن يرغب في سماع أسرار يكتمها مجهول في قلبه.

– أنا مصوّر... وأتبعك منذ سنوات...

بدا أنّه يشعر بالمهانة لأنّه لم يتعرّف إليه. ما أغرب طبائع الناس أحيانًا.

– ماذا تريد؟

كان الآخر يحاول إخفاء ارتباكه، متمايلًا يمينًا ويسارًا كتلميذ استدعاه مدير المدرسة.

– لعلّ الأمر ليس من شأني، وربّما لا يعنيني، ولكن... أعتقد أنّ ثمّة مَن يخفي عنكَ أمورًا... خطيرة.

عقد أوستن حاجبيه.

– عمَّ تتحدّث؟

واصل الرجل تمايله وتلوّيه.

– أظنّ أنّ مدرّبك هذا... يخدعكَ... وقد تآمر عليك من وراء ظهرك.

– وماذا تعني بذلك؟

– أتساءل عمّا إذا كان تقاضى رشوة من الراعي الداعم لجاك فولش لكي يضع العصيّ في عجلاتك.

حدّق أوستن في وجه الرجل بضع لحظات. يبدو أحمق، لكنّه صادق.

– كلامك خطير. ما الذي يسمح لك بتأكيد أمورٍ كهذه؟

رجع الرجل خطوةً إلى الوراء، وازداد وجهه احمرارًا.

– أنا لا أختلق شيئًا من عندي... أقول فحسب ما رأيته بأمّ عيني. هذا كلّ شيء. أقول ذلك من أجلك. أمّا أنا فلا ناقة لي في الموضوع ولا جمل...

– وماذا رأيت بالضبط؟

– مدرّبك، في ذلك اليوم. كان يتناول الطعام مع الراعي الداعم لجاك.

– هذا ليس ممنوعًا.

– نعم، لكن هذا ليس كلّ شيء! قبل ذلك، شاهدته يصرف وفي قسوة بالغة إحدى الصحافيّات التي كانت تريد أن تكتب أشياء لطيفة وإيجابيّة عنك، وهي من مُعجَبيك... نعم...

تجمّد أوستن مكانه.

وتابع الرجل يقول:

– ثمّ ذات مرّة، شاهدتُه يخاطب صحافيًا على نحوٍ قد يجعله في أفضل الأحوال يتربّص بك. هو لا يعمل لمصلحتك. أُقسم لك. هذا ليس من شأني. لكنّ الخطأ كلّه يقع عليه إذا كان الصحافيّون يتسبّبون لك في الـ...

لبث أوستن جامدًا. ماذا لو كان ما يقوله هذا الرجل صحيحًا؟

– حسنًا إذًا، سنوضح الأمور. وارين؟

اتّسعت حدقتا عيني الرجل، ورجع قليلًا إلى الوراء وهو يهزّ رأسه، فيما راح وجهه يزداد احمرارًا.

– كلّا... لا تنادِه... هذا لا يعنيني، أنا...

– وارين!

استدار الرجل استعدادًا للرحيل.

– مكانك!

عاود الالتفات مُرتجفًا وقد استحال وجهه قرمزيًا.

دخل وارين الغرفة ممتقع الوجه.

يا إلهي! فكّر أوستن حالما رآه يدخل. هذا الرجل يقول الحقيقة.

حدّق في عينيه لحظات، قبل أن يتكلّم. في قرارة نفسه، كان يريد إرجاء تلك اللحظة، حيث قد يتداعى كلّ شيء، إلى أجل غير مُسمّى.

– بِمَ تجيب هذا السيّد؟

بقي وارين مسمّرًا في مكانه، يحدجه بنظرات قاسية.

– لا شيء، أجاب بصوت بارد كالصقيع، ومن دون أن يلقي نظرة على الواشي.

لم يصدّق أوستن ما سمعه. ثمّة ما راح ينهار في عالمه الدقيق، المُحْكَم التنظيم والتأطير. شيء لا يمكن فهمه.

لم تفارق عيناه مدرّبه الذي كان يبادله النظرات في جمود تامّ من دون أيّ تأثُّر.

– في إمكانك أن تنصرف، قال أخيرًا للرجل الآخر الذي لم يتردّد في تلبية الطلب وغادر في عجل.

ساد المقصورة صمت ثقيل.

بعد وقتٍ قصير، قال أوستن:

– لعلّك تدين لي ببعض التفسيرات.

هزّ وارين رأسه في هدوء.

– مهمّتي هي أن أجعلك تفوز. وكلّ ما عدا ذلك يخصّني أنا وحدي.

وافقه أوستن عابسًا، قبل أن ينفجر غاضبًا:

– علمتُ توًّا أنّك تتعامل مع فولش، وهذا لا يخصّني؟

– لا أتعامل مع فولش، وإنّما راعيه من قُدامى أصدقائي.

– وما حكاية هؤلاء الصحافيّين الذين تُهشّم صورتي أمامهم؟ ما هذا الجنون؟

– الهدف الوحيد الذي عيّنته لي هو أن أجعلك تفوز.

– ولكن... الصحافيّون... تعلَم كم يجرحني موقفهم. أنا...

– لم تعيّن لي هدفًا في هذا الصدد.

– هذا ليس سببًا لكي...

– كلّ ما أفعله يُمليه عليّ الهدف الأوحد: فوزكَ.

– ولكن...

فجأةً، فهِمَ أوستن.

فَهِم، وما فهِمه كان مهولًا بل أتى ثقيلًا كلكمة شديدة على الوجه.

مقطوع الأنفاس، حملق طويلًا في مدرّبه. أحسّ بالدم يصعد إلى صدغيه. كان يتصبّب عرَقًا.

ثمّ حمل حقيبته وغادر المكان في عجل، وانسلّ سريعًا في الليموزين الفاخرة التي كانت تنتظره.

36

انفجر ريان ضاحكًا وهو يقرأ التعليق الذي نشرته Gigi21 البارحة.

ما هذه الخرقاء؟

وهل يمكن الإنسان أن يكون غبيًا إلى حدّ يرى إنسانيّة في الحماقة؟ حقًا هذه نُكتة الموسم! أو أنّ ذلك خير دليل على أنّ الغباء من جوهر الإنسانيّة...

تابع قراءة التعليقات المتزايدة حول شريط الفيديو الأخير. أزعجه أنّ عددًا من المتصفّحين راحوا يؤيّدون وجهة نظر المغفّلة. مؤسف ألّا يطلّوا برؤوسهم على تراس المقهى، لشكّلوا المرشّحين الأمثل لبطولة أفلامه القصيرة هم أيضًا، ولكان مخزون الشرائط تزوّد أفكارًا جديدة.

بعد ذلك، عمد إلى تفحص الإحصاءات التحليليّة لأرقام زوّار صفحات مدوّنته. كانت الصفحات التي تحتوي على شرائط جوناثان هي الأكثر تصفّحًا ومن دون منازع. والظاهرة المثيرة للاهتمام هي أنّ شرائط الفيديو القديمة عادت تحظى بالمزيد من الزوّار. كان واضحًا أنّ الجمهور يحبّذ هذا الأحمق ويطالبون بالمزيد عنه. ممتاز. سيلبّي الطلب.

أمّا بالنسبة إلى العائدات الإعلانيّة، فقد كانت في تصاعد مستمرّ. حماقة جوناثان مُربِحة جدًّا.

* * *

اختفى.

بحث غاري بين دزينة الرسائل الصغيرة التي أخرجها من صندوق البريد، فلم يعثر على المغلّف الأسمر، إلّا أنّه كان لمحه في يد ساعي البريد. حتّى أنّه شعر بانقباض في صدره عندما رآه.

عاد إلى صندوق البريد ودسّ يده في الفرجة الضيّقة. ليس عمليًا أن يكون للمرء كفّ ضخمة. تحسّس داخل الصندوق المعدنيّ البارد، ملامسًا جميع جوانبه، وفجأةً أحسّ بالمغلّف. كان عالقًا تحت الثنية الحديديّة مباشرةً تحت الفرجة، كأنّه يرفض أن يُسلّم إلى أحد. أخرجه خادشًا يده وهو يسحبه. آخر محاولة مقاومة. دسّ المغلّف وسط رزمة الرسائل الصغيرة التي كان يقبض عليها بيده اليسرى واجتاز المخبز، متجاهلًا الأولاد الذين كانوا إلى المائدة يتناولون الفطور. خرج من دون أن يتكبّد عناء تحضير فنجان قهوة، كاسرًا نمطه اليوميّ المعهود، وجلس على الكرسيّ البلاستيك في الفناء.

كان يشعر بالرهبة.

ربّما كان عليه اعتياد هذا النوع من الأمور الغريبة التي تحدث في حياته. مع ذلك، راحت يداه ترتجفان وهو يفتح المغلّف.

«والداك كانا يحبّانك، لكنّهما لم يعرفا كيف يعبّران لكَ عن محبّتهما.»

هزّ رأسه. إلى حدّ ما، كان يتوقّع ذلك. تتمّة منطقيّة لِما سبق. تنهّد، وأعاد قراءة تلك الكلمات مرارًا وتكرارًا. ثمّ، ومن دون أن يعرف السبب، أجهش بالبكاء.

كما لو أنّ أمورًا مجهولة، غير مفهومة، طافت وظهرت على السطح. مثل فقّاعات الهواء التي تظهر أحيانًا، عندما يضيف إلى العجين الكثير من الخميرة: تنتفخ وتنتفخ إلى أن تتشقّق قشرة العجين فجأةً ومن جميع الجوانب.

تزاحمت الصور في ذهنه، جامحة عشوائيّة. زوجته التي لم يشعر بأنّها أحبّته يومًا في حياتها. أولاده الذين لم يُظهِروا مرّةً أيّ حنان تجاهه. زبائنه الباردون والمتجهّمون، حتّى الآونة الأخيرة. ثمّ المنصبان الخشبيّان على الرصيف مع الصينيّة الكبيرة المليئة بالفتات، وذلك القلب الكبير المرسوم على الشرشف «تقدمة غاري».

برزت ذكرى قديمة آتية من البعيد فجأةً، من حيث لا يَحتسب: كان له من العمر أربع عشرة سنة، وكان يتدرّب على المهنة عند خبّاز. كان يافعًا، نحيلًا لم تنمو لحيته بعد، تستره ملابس قطنيّة بيضاء، سميكة وخشنة، من الرأس إلى أخمص القدمين. الساعة الثالثة فجرًا والدنيا معتمة مظلمة. الطحين الحاضر في كلّ مكان، يتطاير من حوله، يغطّي الأرض والبشرة ويرشّ شعر الرأس بالأبيض. رائحة الخبز الساخن. الفرن العملاق بحطباته المتجمّرة المطقطقة. من ثمّ هو، يفتح باب الفرن، كأنّ أبواب الجحيم فُتِحت عليه، ووجهه يكتوي بلهيب النار. كان معلّمه أفشى له ذات يوم سرّ الخبّازين الفرنسيّين: إنّ الخميرة اللبنيّة، ككلّ مادّة حيّة، خارجة عن السيطرة، كان يقول. لكنّها تتكل عليك، كما أنت عليها. ما لم تكن بخير، إن كان مزاجك عكرًا، أو كان ذهنك شاردًا، فلن يختمر العجين. ولو جرّبت شتّى الوسائل فلن تُفلح. قد تدعَك العجين ساعاتٍ وساعات، وقد تُعدّل حرارة المكان، ودرجة الرطوبة. لن ينجح الأمر. ولكن إذا كنتَ في حال جيّدة، سعيدًا في عملك وفي ما تفعل، عندئذٍ تتفتّح الخميرة اللبنيّة شأنها شأنك، وتحدث المعجزة.

انتهى غاري إلى الهروب من معلّمه، وتبنّي الخميرة الكيميائيّة.

تلك الذكريات كلّها خرجت واختلطت بلا أيّ سبب. بات ذهنه مكتظًّا كالقبو بسقط متاعه، كهفًا تبرز منه نتف شتّى من حياته، من ماضيه، من آلامه، من حسراته وإذلالاته.

ومن هذه الصور المتطايرة والمفرقعة كألعاب ناريّة، من شظايا أصوات ومشاعر لا شكل لها، نبتت فجأةً فكرة أخذت تتّضح أكثر فأكثر على شاكلة الصور الفوتوغرافيّة القديمة التي تأخذ في التشكّل فالظهور شيئًا فشيئًا، كما لو بعملٍ سحريّ، عندما تُغطّس الورقة في سائل التحميض. فكرة تختزل خطأ العمر كلّه. عندما كان يافعًا، كان يظنّ الآخرين أشرارًا، بلا عاطفة. في ما بعد، اكتشف أنّ اللطفاء والطيّبين والعطوفين موجودون أيضًا. لكنّ هؤلاء ليسوا ليحظى هو بهم. فهو لا يجتذب سوى البغيضين والمنتحبين والمُرهِقين. كان ذلك قدره، وسيحمله ويتحمّله طوال حياته. وها هو الآن يكتشف أنّ الآخرين ليسوا لطفاء ولا خبثاء، ليسوا أخيارًا وليسوا أشرارًا. لكن، في دواخلهم الجانبان، كسائر البشر. وما يعبّرون عنه يتوقّف على ما يعبّر عنه هو. كما لو أنّ جزءًا منهم يستجيب لجزء منه. وليس موقفهم سوى مرآة تعكس موقفه هو.

جفّف دموعه، وبقي مطوّلًا على هذه الحال، جالسًا في الفناء، تاركًا المدى لذكرياته تعود إليه، يعيد النظر في حياته، في ضوء اكتشافه الجديد هذا.

بعد ذلك، نادى أولاده.

لا جواب.

ناداهم بصوت أعلى، فأطلّوا عند عتبة الباب.

رأى الخوفَ على وجوههم، فخجل من نفسه.

أشار إليهم أن يقتربوا منه. ففعلوا في بطء. عندما صاروا في مستواه، جمدوا في أماكنهم. عندذاك، أحاطهم بذراعيه وضمّهم إلى صدره.

37

منتصف الليل. راحت أنجيلا تتقلّب في سريرها، من دون طائل. لن تستطيع أن تعود إلى النوم. كانت تستعيد الفظاعات التي قرأتها حول جوناثان في تلك المدوّنة، تلك المدوّنة القذرة الفاضحة، فتتوتّر وتغتاظ وحدها.

«فكّري في أمور أخرى.»

كان عليها أن تهدأ، أن تنسى ذلك كلّه. ستعيد التفكير فيه أثناء النهار إن شاءت، أمّا الآن فعليها النوم.

«فكّري في أمور لطيفة، هادئة، إيجابيّة.»

حاولت أن تتصوّر أمامها برّيّة خضراء، مليئة بزهور الحقول بألوانها الزاهية المختلفة، وأرانب صغيرة تقفز بين الأعشاب هنا وهناك...

«تمامًا، تابعي على هذا المنوال، وسرعان ما ستغفين.»

نعم، زهور وأ... وفجأةً تذكّرت شريط الفيديو الذي يُظهِر شخصًا يقول أنّه يأكل أزهار حديقته. ذلك الشريط الذي عاينته في المدوّنة والذي جعلها في حالة مُزرية. شريط خالٍ من جوناثان، وخالٍ من أحداث مهمّة. لا شيء صادِم. لقد شاهدته مرّتين، ولم تتمكّن من معرفة سبب اضطرابها.

أمرٌ غير طبيعيّ. لا بدّ أن يكون هناك سبب لهذا الانزعاج. وعليها أن تكتشفه. شيءٌ ما داخلها كان يدفعها، وبل يأمرها بمواصلة البحث. شيء كالحدس، كالنذير.

نامي. تفعلين ذلك غدًا. أمّا الآن فنامي. فكّري في الطبيعة الجميلة والأرانب الصغيرة...

بذلت جهدًا لكي تتنفّس في عمق، وفي بطء، وتسترخي.

لا، لا فائدة من هذا كلّه. ما دام هذا الشريط يدور في رأسها، فلن يدعها تنام. وهي تُدرك ذلك جيّدًا. يُستحسن إذًا أن تسوّي الأمر حالًا، وفي سرعة.

مدّت يدها، أنارت المصباح قرب السرير، وقامت.

في الرواق، ألقت نظرة إلى كلويه. كانت تنام في وضعيّة غريبة، وإحدى ساقيها تتدلّى خارج السرير. أغلقت باب غرفتها حتّى لا توقظها.

نزلت إلى الصالون، وشغّلت الكمبيوتر. ألقى ضوء الشاشة بوهجه الأبيض على الغرفة الغافية. جلست. أحسّت بصقيع جلد المقعد على فخذيها.

وجدَت المدوّنة. كانت تودّ لو ترى أمامها ذاك الوغد النذل، صاحب الموقع الفظيع هذا، لتفرغ عليه كلّ ما فيها من اشمئزاز. لأنّه رجل بالتأكيد، فالمرأة لن تنحدر يومًا إلى حقارات كهذه.

لكنّها لم تستطِع أن تقاوم رغبتها في تصفّح صفحات شرائط فيديو جوناثان أوّلًا.

ثمّة تعليقات أخرى تسير في اتّجاهها هي الآن. غمرَتها موجة من الفرح. بينما راحت عيناها تستطلعان الفقرات المتتالية، اكتشفت تدرّجًا أنّ المتابعين ازدادوا، وأكثر فأكثر، هؤلاء الذين يستنكرون مثلها تلك الإساءات غير المبرّرة. وكانت كلّما قلبت صفحة، رأت التعليقات الإيجابيّة تتوالى. كما لو أنّها أطلقت من غير قصد طوفانًا من

الاحتجاجات، كما لو أنّ الناس تناقلوا كلمة السرّ، وتوافدوا إلى المدوّنة ليسجّلوا أيضًا شهادات وسخطهم وتنديدهم. لم يعُد أحد يهزأ بجوناثان، بل على العكس أخذ المتصفّحون يلتفتون إلى القيمة الراقية في أعماله. شعرت أنجيلا بأنّها انتقمت لجوناثان، وبأنّ العدالة أخذت مجراها.

ثمّ عادت تبحث عن الشريط الذي أرّقها، لكنّها لم تكن بالمهمّة السهلة. فليس ثمّة منطق في تفرّعات المدوّنة، لذا أخذت تقلّب صفحة تلو أخرى على نحوٍ عشوائيّ. بلا جدوى.

فجأةً، عثرت على الصورة، وركّزت تفكيرها فيما شغّلت الفيلم، وهي تتفحّص بدقّة تسلسل مَشاهده. لم تكن مدّته سوى ثلاثين أو أربعين ثانية. وفي ختامه، شعرَت أنجيلا من جديد بذلك الانزعاج غير المبرّر والذي قضّ مضجعها. ذلك الشعور المُضني والمقلق وغير المفهوم.

وماذا لو كان هذا الشريط يحتوي على صورة ملمّحة أو إيحائيّة، كتلك الصور الجنسيّة التي يحشرها بعض المُعلنين خلسةً في أفلامهم الدعائيّة لاجتذاب انتباهنا، من دون أن نتنبّه لها من طريق الوعي؟

قرّرت أن تُعيد تسلسل المشاهد، لقطةً لقطة، وبالنقر نقرة نقرة على السهم الصغير إلى جهة اليمين.

بدأ المشهد يدور في بطء، صامتًا ومتقطّعًا، ومع كلّ صورة، كانت أنجيلا تتفحّص في انتباه شديد العناصر التي تدخل في تركيبة المشهد. برودة نسيم الليل جعلتها ترتعش، وتأسف لأنّها لم ترتدِ ما يقيها البرد أكثر.

وفي لحظة، لمحت وجهًا في خلفيّة الصورة، عرفته فورًا. وجه نادلة المقهى. كانت تظهر في سبع صُوَر متتالية، فيما لم تنتبه أنجيلا لها وهي تشاهد الفيلم في السرعة العاديّة.

تابعت التنقّل بين الصور خطوةً خطوة. كاد الفيلم يبلغ نهايته، وهي لم تعثر على شيء بعد. في أيّ حال، لم تكن صورة النادلة ما سبّب اضطرابها وقلقها. كانت تعرف أنّ صاحب المدوّنة يصوّر في ذلك المكان الذي تعرّفت إليه من خلال شرائط فيديو جوناثان.

فجأةً، أفلتت منها صرخة.

في إحدى الزوايا خلف أحد الحاضرين في المشهد، قوام فتاة الهوى، مشوّشًا ولكن يمكن التعرُّف إليه. ويميل عليها... مايكل بوجهه الباسِم.

لم تستطِع أنجيلا أن ترفع عينيها عن هذا المشهد المُثقل بالمعاني.

التاريخ، بسرعة.

كان شريط الفيديو مؤرّخًا في 7 أبريل.

7 أبريل... عشيّة انفصالها عن جوناثان إثر اكتشافها تلك الفتاة نصف عارية معه.

عضّت أنجيلا على شفتها، وانقبض قلبها: في ذلك اليوم، كان مايكل مَن دفعها دفعًا إلى العودة إلى منزلها في وقت مبكر.

– أنتِ... أنتِ متعَبة، قال لها، عودي إلى بيتك واستريحي.

* * *

هزّ ريان رأسه مبهوتًا. كان عدد التعليقات يتعاظم يومًا بعد يوم. وكلّها تقريبًا يؤيّد جوناثان. وأبعد من التعليقات، كان عدد زوّار الموقع يتضاعف على نحوٍ تصاعديّ، صادِم، جنونيّ. كان مناصرو جوناثان يتناقلون الخبر من شخص إلى شخص، ووجهًا لوجه، كسرعة انتشار النار في الهشيم. ولم يعُد ذلك موجة دعم وتأييد، بل طوفانًا. تسونامي.

أصيب ريان بالإعياء؛ هو الذي ظلّ شهورًا عدّة يعتني بهذه المدوّنة ويحييها، من أجل بضع عشرات فقط، آملًا يوميًا بأن يتزايد

عددهم. ها هو اليوم يقف عاجزًا وقد تجاوزته الأحداث.

في طبيعة الحال، كان مؤسفًا ومُخيبًا أن تكون محاولته في إخراج مشاهد عن حماقات الناس قد أتت بنتائج معاكسة تمامًا، وأن يتحوّل هدف مدوّنته إلى نقيضه تمامًا. لكنّ ذلك لم يكن وحده مبعث قلقه. فالمشكلة لم تعُد هنا حتّى.

كان للجلبة جانب مخيف، لاعقلانيّ. جامح، لا يقف في طريقه شيء. كما لو أنّ جيشًا كاملًا من الحمقى استعدّ وبدأ يشنّ هجومًا عليه، استبسالًا في الدفاع عن أحد جنوده، وفي طريقه، أخذ يجنّد المزيد فالمزيد من المتطوّعين.

راح يحاول طمأنة نفسه، بتحليل الأرقام. لكنّ الأرقام لم تكُن مُطَمئنة البتة. لقد تجاوز عدد زوّار المدوّنة المليون في غضون أيّام قليلة. وقد يصل الرقم في نهاية الأسبوع إلى ثلاثة ملايين، أو ربّما أكثر...

عاد إلى قراءة التعليقات. يجب أن يحاول الفهم.

كان المعلّقون يزايد بعضهم على بعض في استخدام المفردات والنعوت الجميلة لوصف جوناثان. فإذا ما صدّقناهم، جوناثان أنموذج مناهض للنظام المفروض، رجل حرّ يغرّد خارج السرب، إنسان غيريّ يحبّ الآخرين في بلاد الفرديّين، متمرّد إيجابيّ، ناجٍ من آفة العُصاب الجماعيّ، مقاوم وحيد...

بات الجميع يتماهى به: جماعة اليسار رأت فيه إنسانًا في خدمة الإنسانيّة، فراحت تشيد باندفاعه التضامنيّ مع الآخرين، فيما قدّرت جماعة اليمين حسّ المبادرة الفرديّة لديه وحسّه الإحسانيّ. أمّا الملحِدون فحيّوا فيه روح شهامته العلمانيّة. وبالنسبة إلى المتديّنين، كانت أعماله تستجيب لنداء إلهيّ، وقد تغنّوا بقدرته على مقاومة التجارب، مشدّدين على قدرته الخارقة في الاختفاء والتنحّي، متى

حاولت أيّ امرأة أن تنظر إليه بعين الشهوة. أمّا البوذيّون فقد رأوا فيه حالة توحُد وترفُع تستحقّ التقدير والاحترام.

كان كلّ واحد يعبّر عن رأيه في إسهاب، ويعرض تفسيره وتحليله. وكلٌّ يفسّر أعمال جوناثان وفقًا لمعتقداته وقِيَمه الخاصّة به. كلٌّ يصادر جوناثان لحسابه ويحتكره لنفسه.

تملّك ريان الجزع.

في زاوية مُعتمة من دماغه، راح مؤشّر أحمر يومِض بلا توقّف. كانت شرائطه كلّها غير مشروعة. انتهاك لحرمة الحياة الشخصيّة واستباحة لها. بين يوم وآخر، أو بين ساعة وأخرى، قد يتعرّف أحدهم إلى جوناثان، أو أحد ضحايا عدسته. ويومئذٍ، سيقع في قبضة السلطات، وتطبق على خناقه.

38

– ذلك الخسيس كاد يدمّر حياتنا، وكلّ ما تقترحه الآن هو أن نبيعه حصصنا ثمّ نتركه ونمضي؟!

كانت أنجيلا تذرع الصالون في منزل جوناثان، جيئةً وذهابًا، وقد تملّكتها سَورة غضبٍ عارم. كان جوناثان جالسًا أمام كمبيوتره. في الشاشة، صورة مايكل مع فتاة الهوى. كان لاكتشاف المدوّنة وأفلامه تأثير غريب فيه. لم يُعبّر بشيء يُذكر، لكنّ أنجيلا كانت تعرفه ما يكفي لتُدرك جيّدًا أنّ كيانه قد اهتزّ بالكامل.

– ممّن أنتِ غاضبة أكثر في قرارة نفسكِ؟ سأل بصوت يسوده هدوء غير معهود.

– في هذه اللحظة، غاضبة منه لأنّه فعل ذلك بنا، بقدر ما أنا غاضبة منك لأنّك على استعداد للاستسلام والمغفرة، وكأنّ شيئًا لم يكن!

رمقها جوناثان بنظرة.

– أهذا كلّ شيء؟

أسدلَت ذراعَيها في حركة عجز واستسلام.

– إذا كان هذا ما تريد أن تسمعه، قالت وقد خَفَت صوتُها فجأةً، كما أنّني غاضبة من نفسي، لأنّني لم أصدّقك آنذاك. لكنّه ليس عذرًا لنترك مايكل يفلت من دون عقاب!

بقي جوناثان صامتًا بضع لحظات، ثمّ تنهّد.

– يجب ألّا نبقى مع مَن يلحق بنا الأذى. أن نرحل عنه هو خير قرار نتخذه.

– ولكن، عليه هو أن يرحل!!!

– قانونيًا، ليست في أيدينا أيّ وسيلة لإرغامه.

حرّكت رأسها في اشمئزاز وامتعاض.

– فلنُغادِر، قال لها. يمكننا تأسيس شركة جديدة، إنّنا قادران على ذلك. سنتدبّر أمرنا. فليكُن لدينا ثقة في الحياة.

ثارت ثائرتها.

– لن نبيعه حصصنا، فهو لا يتمنّى سوى ذلك، بل ينتظره منذ زمن بعيد! لهذه الغاية تحديدًا، دبّر لنا تلك المكيدة. كاد ينجح في تدميرنا، وتدمير أسرتنا، وأنتَ تريد الآن أن تهبه النصر على طبق من فضّة؟

– في أيّ حال، ليس لدينا خيار. لا أرى أحدًا آخر يمكن أن نبيعه حصّتنا. لا يمكن أن نعثر على شارٍ كهذا بين ليلة وضحاها. فما لم ترغبي في رؤية سحنة مايكل كلّ صباح على مدى شهور وشهور...

– كفى، هذا مقزّز.

تنهّد جوناثان.

– دعيه وشأنه. هو لا يعرف ما يفعل.

– يا له من وغد.

– أظنّه يستحقّ الشفقة أكثر من الحقد...

هزّت أنجيلا رأسها غيظًا واستياءً.

– لا رغبة لديّ في المقارعة، أردف جوناثان. لا أريد أن أمضي بقيّة عمري في النزاعات.

عقدت أنجيلا حاجبَيها.

– ولماذا تقول ذلك؟ لا أطلب منكَ أن تثأر لنا حتّى آخر يوم من حياتك و...

كبح جوناثان جماحه فجأةً. لم تكن اللحظة مناسبة ليُخبِرَها بالنبوءة المشؤومة.

– فلنرحل. وسأجد وسيلة. لا أعرف ما هي بعد، لكنّني أعدُكِ بأنّني سأجعله يندم على فعلته.

* * *

بعد نصف الساعة، توجّها إلى تراس المقهى لتناول طعام الغداء. من بعيد لمحا جمعًا غفيرًا يسدّ الطريق. اقتربا من الحشد، وفجأةً صرخ أحدهم: «ها هو!». فالتفت الجميع إلى جوناثان الذي تجمّد مكانه مذهولًا، فيما انقضّ عليه رهط من الصحافيين والمصوّرين ومساعدي المصوّرين.

* * *

أيّ قيمة للنجاح في ظلّ وضعٍ كهذا؟

منذ البارحة والسؤال يدور في ذهن أوستن فيشر المحموم. كان الكشف عن استراتيجيّة مدرِّبه قد وقع عليه وقعَ الصاعقة، وتركه في قبضة تساؤلات لم يسبق له أن طرحها حتّى اليوم.

إذلاله لإرغامه على ردّ فعل مُضادّ، دغدغة حبّ الذات لديه لضمان الفوز...

هكذا إذًا.

سؤالان شكّل هاجسًا لديه، وراحا يطاردانه من دون هوادة: هل كان سيفوز من دون هذه الخطّة؟ هل كانت كلّ تلك الإنجازات ممكنة من دون نكء جراحه النرجسيّة، وإيقاظ عذاباته الماضية من أجل تأجيج عطشه إلى الانتقام، وحاجته المَرَضِيّة لتوكيد الذات وإثبات قِيمَتِها أمام الآخرين؟

في إحدى القنوات الإخباريّة في شاشة التلفاز المنتصب في إحدى زوايا الغرفة، ظهرت صورة أحد المشاهير. تنفّس أوستن في عمق ليطرد توتّره.

هل النجاح حكر على المرضى العصبيين؟ وهل يجب أن يكون للإنسان أناه المعذّبة ليجد في نفسه الإرادة الجبّارة الضروريّة للحصول على النجاح هذا؟

نظرًا إلى عدد المختلّين عقليًا في أعلى الدوائر الحكوميّة وبين رؤساء أو مديري كبريات الشركات والمؤسّسات، قد نطرح هذا السؤال...

فتح النافذة الزجاجيّة العريضة المطلّة على مسبح ترّاسه الخاصّ على مصرعيها. كانت هواجسه هذه تُعذّب ذهنه، وكان يختنق على الرغم من فرط اتّساع الجناح المخصّص له، في هذا البالاس. بركلة شديدة غاضبة، وجّه تسديدة إلى إبريق البلّور على المنضدة الخفيضة، فتطاير شظايا تهشّمت على الأرضيّة الرخاميّة.

ترف الرفاهية، إنّما هو مُجرَّد بَدَل تعويضيّ عن الفشل في تقدير الذات.

أطلق تنهيدة عميقة. كان عليه أن يستعيد أنفاسه ويستجمع قواه، ويرجئ تساؤلاته الماورائيّة إلى وقت لاحق. إلى ما بعد النهائيّات.

فتح زجاجة ماء غازيّة، وعبّ جرعة مباشرة منها، متجاهلًا كأس البلّور الرفيعة في متناوله. أمام النافذة الزجاجيّة العريضة المفتوحة، راحت الستائر الرقيقة تتراقص تحت نفح النسيم، نسيم خفيف صامت. كان التلفزيون يعيد بثّ ريبورتاج قد شاهد بعض لقطاته قبل ساعات قليلة، قصّة ذلك الرجل الذي كان موضع هزء وتهكّم في الإنترنت، قبل أن يرتقي به تيّار من التعاطف إلى الأعالي.

استمع أوستن من جديد، وإنّما بأذن شاردة، إلى أقوال الرجل عن الحياة، وعن قيمة أفعالنا وأقوالنا، وما يربطنا بالآخرين، وعدم جدوى

المنافسة...

كان يقول للصحافيّ: «أحبّ أن أكون في تناغم مع الآخرين، وفي سلام مع نفسي. أحسّ بالراحة والرضا عندما تعبّر أعمالي عن ذاتي الحقيقيّة.»

ثمّ سُئِل لماذا يفعل ذلك من أجل أشخاص لا يعرفهم، فأجاب: «الحياة لعبة، لذا، فأنا ألعب، وأتجرّأ...»

ثمّ بعد هنيهات، عاد فقال: «فعل الخير يجلب لي الخير».

كان أوستن في بعد مسافات ضوئيّة من هذه الأقوال والاعتبارات، ومع ذلك، فقد كان لها وقع خاصّ يتناغم صداه بشكل غريب مع وضعه الحاليّ. كلام قوّض الاتّجاه الواضح والصريح الذي كان عيّنه لنفسه حتى اللحظة. حتى اللحظة...

شعر بأنّه بوصلة فقدت اتّجاه الشمال إثر زلزال مهول. ولكن، لماذا كان عليه أن يسمع هذا الكلام اليوم، وفي الوضع الذي هو عليه منذ البارحة؟ لماذا تقدّم الحياة مثل هذه المصادفات، مثل هذا التطابق، وهذا التزامن؟

خرج إلى التّراس. خلع ثيابه، وغاص في المسبح.

أطبقت عليه برودة الماء، مجدّدةً قواه ونشاطه. اجتاز حوض السباحة دفعةً واحدة، قاطعًا نَفَسه. ثمّ ظهر رأسه على سطح الماء. سيفوز في هذه المباراة. وحده. سيكون اللاعب الوحيد في العالم الذي يستعدّ لخوض المباراة النهائيّة في دورة الـ«جراند سلام» من دون مدرّبه. لكنّه سيفوز. سيفوز وهو يُثبِت مَن هو، ومن دون اللجوء إلى ألاعيب نفسيّة مشبوهة. ونصره سيكون له، له هو حقًّا وفعلًا.

39

«في تناغم مع الآخرين. وفي سلام مع نفسي.»

كلازمة مهيمنة، تكرّرت العبارة إيّاها على لسان جوناثان في كلّ المقابلات.

ولا يزال ريان غير مصدّق اهتمام وسائل الإعلام بضحيّته. من هذه الزاوية، استعجاله إغلاق موقع المدوّنة لم ينفعه في شيء. فقد تأخّر كثيرًا، فيما عمد بعض المتصفّحين الوقحين إلى سرقة الشرائط التي غزت الآن يوتيوب وباقة كبيرة من المواقع الأخرى. شاعت عبارة جوناثان الشهيرة وباتت متداولة في كلّ مكان.

في غصّة في الحلق وانقباض في المعدة، ألغى ريان ومن بُعد مدوّنة شبكات الخدمة المستضيفة لمدوّنة مينيابوليس، ومحا بدقّة وتأنٍّ كلّ أثرٍ لها في الويب. مسألة سلامة، ومسألة بقاء. يا لها من خسارة. الآن، بات مجرّدًا من كلّ شيء، محرومًا من مصدر سلواه الوحيد. بات ضَجِرًا سَئِمًا كسياسيّ كفّ عن التلفيق والاحتيال.

ترك معدّاته مكانها، ولم يعُد يلمسها قطّ، كما لو في مسرح جريمة أقفل وطوّق بالشريط الأصفر. بدت الكاميرات الجامدة على قوائمها الثلاثيّة كأنّها حشرات عملاقة محنّطة.

منذ تلك اللحظة، دأب ريان على مشاهدة التلفاز، تمامًا كالأغبياء الذين كان يصوّرهم. كان عليه أن يجد شيئًا، أيّ شيء، وإلّا فسينتهي

مثلهم.

* * *

كان الضباب في ذلك النهار عنيدًا يرفض أن يتبدّد ويتلاشى، كما لو أنّ الشمس قرّرت أن تستسلم للكسل وتشعّ طوال النهار. رنّ الجرس الصغير مُعلنًا توقّف الترام. ترجّل منه جوناثان. في الجوّ المُشبَع بالرطوبة استنشقَ روائح البحر المالحة الآتية من بعيد.

صعد جوناثان الجادّة. على الرغم من انتهاء العطلة الصيفيّة، ما زال السيّاح يغزون المدينة، مستمتعين بآخر أيّام الموسم الجميل. مرّ الترام في محاذاة جوناثان وتجاوزه. كان يسير قدمًا في انسياب صامت من دون هدير نحو التلّة. كان مكتب المحامي المكلّف تسوية تفاصيل بيع حصص الشركة قريبًا جدًا. إن فرغ جوناثان من موعده في وقت مبكر، فسيتّصل بأنجيلا. لعلّها توافيه لتناول كأس معًا في الجوار.

كان يسير الهوينا، حين رأى فجأةً ما جعل الدم يجمد في عروقه. توقّف مكانه: على بُعْدِ أمتارٍ منه، كانت الغجريّة التي تنبّأت بموته. كانت الصغرى، تلك التي لم يتمكّن من رؤيتها مرّةً ثانية. كانت جالسة تحت شجرة على حافّة الشارع. بدت غافية، مغمَضَةَ العينين.

بقي جوناثان واقفًا يتأمّلها في ذهول بفعل المشاعر التي راحت تعتمل في صدره. ثمّ ما لبث أن استعاد رباطة جأشه وتقدّم نحوها في صمت. لا بدّ أنّها أحسّت بوجوده، إذ فتحت عينيها بعد هنيهة. لم يصدر منها أيّ ردّ فعل، ولم تحاول أن تهرب، كما فعلت في المرّة الأخيرة. خلافًا لذلك، بقيت مكانها عند أسفل الشجرة، تنظر إلى جوناثان من دون أن تنبس ببنت شفة.

كسر جوناثان الصمت.

– بحثتُ عنكِ في المرّة الأخيرة...

لم تجب، بل ظلّت تحدّق فيه بعينيها السوداوين النجلاوين.

– كنتُ أريد أن أكلّمكِ... أن أعرفَ المزيد.

صمتٌ.

– أخيرًا، صادفتُ أختكِ... وقد أكّدت لي تنبوءاتكِ.

لم تتأثّر بكلامه. بقيت جامدة. كانت ملامحها جادّة ورصينة، لكنّه لمح في عتمة عينيها بريق تعاطف.

كان المارّة يتوافدون من خلفه على الرصيف، والسيّارات تعبر الشارع. كان يشعر بين الحين والآخر بنَفَس الترام يمرّ في صمت من ورائه. لكنّ هذا الزحام كلّه كان يبدو بعيدًا جدًّا، في مكان آخر، على حِدَة، كما لو أنّه والغجريّة في قوقعة منفصلة عن باقي العالم.

– أليس لدَيكِ ما تقولينه لي؟ سألها أخيرًا، من دون أن يدري هو نفسه ما يتوقّع من السؤال.

ظلّت تحدّق في عينيه صامتة، ثمّ رمته بذلك الصوت الذي ما زال ينضح بالعقوبة التي أعلنتها في حقّه ذات يوم:

– اسأل عمّتك.

40

الضربة الحاسمة.

بحركة خاطفة، مسح أوستن العرق المتصبّب من جبينه قبل أن يسيل إلى عينيه.

«تشبّث. ستفوز.»

كان الجوّ متوتّرًا بين جمهور المتفرّجين، كسماء ملبّدة بسحب سوداء متراصّة جافّة إلى حدّ قد نتوقّع انقذافها شرارات وتفجُّرها حولنا بين لحظة وأخرى. قبل كلّ ضربة كرة، كان بعض الجمهور يتنحنح متململًا في مقاعده في محاولة لطرد التوتّر على الأرجح.

منذ أربع ساعات تقريبًا وأوستن في الملعب تحت الشمس اللاهبة، من دون أن تبدو عليه أمارات التعب. فهو لا يكلّ ولا يملّ أثناء خوض أيّ مباراة. بل يكون كيانه كلّه مسخّرًا ومشدودًا كالوتر بهدف الفوز، أمّا الأمر الوحيد الذي كان يساوره حينذاك فهو نداء النصر.

كانت المباراة النهائيّة شاقّة أكثر ممّا كان متوقّعًا، والتنافس على أشدّه. فقد أحرز فولش مجموعتين، شأنه شأن أوستن، فيما تعادل الاثنان في المجموعة الخامسة، في الأشواط الستّ. كان شوط كسر التعادل قد بدأ. كان أوستن في الطليعة مع 6 أشواط مقابل 5، لكنّ الإرسال كان الآن في يد فولش. إذا خسر الأخير الضربة، فاز أوستن في المباراة وفي بطولة الدورة، ودخل اسمه سجلّات كرة المضرب. أمّا

إذا ربح فولش نقطتين متتاليتين فهو الذي يفوز في الكأس. طوال تاريخه الرياضيّ، لم يسبق لأوستن أن عاش وضعًا حرجًا كهذا، حيث يتقرّر مصيره في اللحظة الأخيرة من المباراة، كأنّما تكبّد عناء المكافحة طوال أربع ساعات من دون جدوى.

قذف فولش الكرة في الهواء وضربها بعنف شديد.

– ضربة معادة! صرخ الحكم.

– خطأ! أردف الحكم، بعدما سقطت الكرة في الجانب الخطإ.

«رائع.»

ضرب فولش كرة جديدة أرضًا مرّات عدّة. شابت ملامحه تكشيرة عصبيّة لاإراديّة، وتشنّجت عضلات وجهه. أحسّ أوستن بأنّه سيكسب هذه النقطة.

رمى فولش الكرة في الهواء ثمّ ضربها، ضربة أخفّ منها في المرّة السابقة.

– خطأ! صاح الحكَم. حُسمت النتيجة لصالح أوستن فيشر!

علا التصفيق وتردّدت أصداؤه في أنحاء المدرّج الواسع، وتسارعت الأمور التي تلت. اجتازت جمهرةٌ من الحضور الحواجز واجتاحت الملعب. تقدّم فولش نحو الشبكة ليصافح خصمه.

بيد أنّ أوستن بقي متسمّرًا مكانه. لم يتحرّك قيد أنملة.

لم يتحرّك لأنّه كان يعرف.

كان يعرف أنّ كُرة فولش لم تكن خطأ. لقد سقطت على الخطّ الفاصل، تمامًا على الحدّ الخارجيّ منه. أي أنّها ضربة صحيحة مئة في المئة.

لم يعترض أحد. لعلّه كان الوحيد الذي رآها. لكنّه كان يعرف ذلك.

والآن بات أسير معضلة رهيبة؛ فإمّا أن يلتزم الصمت ويدخل التاريخ في وصفه بطل الأبطال، وإمّا أن يقول الحقيقة ويجازف بإعادة النظر في كلّ شيء. كان عليه أن يقرّر على الفور، هنا والآن.

كانت الفِرَق المختصّة تستعدّ لِنَصْب المنصّة، والجميع شاخصين إليه، مبهوتين أمام انعدام ردّ فعله.

تخبّطت الأفكار والصور متزاحمة عشوائيًا وفي سرعة البرق في ذهنه.

– كلّا! صرخ فجأةً.

ساد صمت فوريّ في المدرّج. جمد الجمهور في آن واحد، كأنّه شخص واحد، وكأنّ الله ضغط زرّ «توقّف».

سار أوستن نحو الحَكَم الذي راح يحملق فيه مشدوهًا، كسائر المتفرّجين الاثنين وعشرين ألفًا، الصامتين برمّتهم.

– كانت ضربة فولش صحيحة.

سَرَت همهمة بين الجماهير.

قرّر الحكَم أن يعيد مشاهدة اللقطة المُسجّلة.

اتّسعت الهمهمة، واستحالت جلبة شديدة، دامت ودامت، إلى أن تناول الحكَم مذياعه.

– سنواصل المباراة. أوستن فيشر وجاك فولش متعادلان. وقد سجّل كلّ منهما ستّ نقاط خلال شوط كسر التعادل من المجموعة الخامسة.

عمّت الدهشة أوساط الجمهور، بينما كان أوستن يستعيد موقعه عند طرف الملعب، يلازمه شعور غير مألوف، شعور الفخر بالنفس، مختلف عن ذلك الذي لطالما عهده.

في صفوف الجماهير، كان التململ بلغ ذروته، فاضطرّ الحَكَم إلى التنبيه بالتزام الهدوء. أخيرًا، عاد الصمت. صمت مشحون.

استعدّ أوستن لإطلاق ضربة الإرسال.

علَت صيحات يتيمة.

رمى الكُرة في الهواء ثمّ ضربها.

دام التبادل بين اللاعبَين حوالى ثلاثين ثانية، انتهت بأن سجّل خصمه نقطة.

– 7 مقابل 6 لصالح فولش، أعلن الصوت الفولاذيّ عبر المكبّرات.

استجمع أوستن تركيزه.

ضرب فولش الكرة بقوّة خارقة فسجّل النقطة الحاسمة، من دون أن يتمكّن أوستن حتّى من لمس الكرة.

انتهت المباراة.

استقبل أوستن إعلان فوز خصمه في هدوء عميق وسلام داخليّ، بعيدًا من ذلك الشعور الأليم الذي كان يمزّق أحشاءه في الماضي كلّما مُني بهزيمة. ألقى التحيّة على خصمه، ثمّ على الحكَم. بعد ذلك، تتالَت الأمور بسلاسة، وبعد دقائق وجد نفسه على المنصّة. كان هادئًا وصافي الذهن. لم يكن يشعر بنشوة دفُق الأدرينالين التي ترافق انتصاراته عادةً، وسط شعور بالعظمة والجبروت. لكنّه أحسّ بشعور جديد ينبعث من أعماقه، شعور صادق وجارف، شعور بقيمته الحقيقيّة.

رفع جاك فولش كأس النصر وسط الهتافات والتصفيق الكثيف. وعندما سُلّمت كأس المرتبة الثانية إلى أوستن، رأى ولأوّل مرّة في تاريخه الرياضيّ الجمهور يقف احترامًا له ويهتف له في صدق.

41

بدت الطريق من سان فرانسيسكو إلى مونتيري لامتناهية. وكان جوناثان قد ارتاح نفسيًا بعد اعترافات الغجريّة، وقد بدأ يعتمل فيه استياء شديد من عمّته.

بيد أنّ غضبه تلاشى بسحر ساحر حالما اجتازت الشيفروليه البيضاء العتيقة مدخل منزل عمّته، وتوغّلت في الممرّ الذي يحفّ السرو جانبيه، كما لو أنّ السكون الدائم والثابت الذي يطبع المكان كفيل بتهدئة ثورة أعنف البراكين.

ترجّل جوناثان من السيّارة. مشى إلى المنزل والحصى تئنّ وتصرف تحت نعلَيه. لقد تقلّص عدد الأزهار، فيما تنحّى ياسمين البرّ الزهريّ أمام زُرقة زُهيرات النجميّة. وكانت أوراق شجر القيقب تستحيل تدرّجًا إلى الحُمرة. لكنّ الأجواء بقيت هي هي، رقيقة، عطِرة، مختومة بسكينة لا يجير عليها الزمن. في الأسفل، ما زالت أشجار الصنوبر المعمّرة سالمة، عصيّة على آثار الزمن، وجذوعها الملتوية الملتفّة تشرف على المحيط الذي يزداد زرقة وعمقًا.

بائت مارجي عند أعلى درج المدخل وعلى وجهها ابتسامتها المُشرقة اللطيفة المعهودة، ولم يستطع جوناثان الامتناع عن احتضانها.

قدمت مارجي الشاي في الحديقة للاستمتاع بنسيم بعد الظهر المُنعش، وقد استراحا في مقعدين من الأسل الليّن. كان جوناثان ينتظر اللحظة المناسبة حتّى يجابهها. إلّا أنّ الكلمات خانته.

وضعت مارجي على المنضدة صينيّة عليها آنية شاي من البورسلين الجميل.

– هكذا إذًا، عرفت كلّ شيء، أليس كذلك؟ قالت عفويًا بعد دقائق معدودة.

فوجئ جوناثان بالسؤال، فأومأ برأسه موافقًا في بطء. كانت مارجي من النوع الذي يتمتّع بحدس مرهَف، وتمتلك حاسّة سادسة لا مثيل لها، حيث لا يمكن أن يُخفى عليها شيء.

صبّت الشاي الساخن في الكوبين، فانتشر عطر البرغموت رويدًا رويدًا في الأجواء.

ما من نسمة واحدة. في البعيد، في عرض البحر، كان مركب شراعيّ جامدًا تمامًا، كأنّ ريشة رسّام أضافته إلى تلك اللوحة الطبيعيّة الساحرة.

وكأنّ الزمن توقّف إلى الأبد.

– أن نُدرك الموت ونعيه ضروريّ وأساسيّ للعيش، قالت في صوت رقيق جدًّا.

رفرفت حولهما فراشة صفراء، ثم حطّت على زهرة بلسمينة واصطفق جناحاها بضع مرّات، قبل أن تجمد فجأةً.

استراحت مارجي في جلستها، مستندةً إلى ظهر المقعد، وقالت:

– يغرق مجتمعنا في إنكار الموت. جميعنا يتصرّف كأنّه غير موجود. نختبئ وراء مفردات مجازيّة للإشارة إليه أو إلى ذكره: عندما يموت أحد أعمامنا نقول أنّه رحل، غاب، تركنا... ونقول أيضًا: فقدناه، كأنّنا سوف نعود ونصادفه عند منعطف الشارع، أو ربّما أمام رفوف السكاكر في السوبرماركت.

ابتسم جوناثان، وتابعت مارجي تقول:

– نحن ننكر كلّ ما قد يقرّبنا من الموت. نُخفي في عناية قصوى علامات الشيخوخة ما إن تبدأ في الظهور. لا نُثمّن إلّا الشباب ومحاسنه التي نُظهرها علنًا، هي وحدها، كأنّ الكِبَرَ أو الهرَمَ مجرّد عار أو أمر مُخيف. حتّى الفلاسفة باتوا يلجأون إلى عمليات شدّ الوجه ويحافظون على شباب المظهر ونضارته!

استرسلَت في الضحك.

– ومع ذلك، أردفت، عندما نسأل الناس عمّا إذا كانوا سعداء، فإنّ الذين يُجيبون في معظمهم بـ«نعم» هم في سنّ الستّين، لا في العشرين...

رفعت الكوب إلى شفتيها.

– قديمًا، في القرى، كانت العائلات مجتمعة تذهب كلّ أسبوع إلى المدافن، لزيارة الأجداد. كانت تخاطبهم باطنيًا، تتكلّم إليهم. وفي اختصار، كنّا نظلّ على صلةٍ بهم، فيبقى بيننا وبينهم رابط ما. وبينما كان الراشدون يحافظون على نظافة المكان ويعتنون بالأزهار، كان الأولاد يلهون حول القبور، ومن دون أن يدروا، يروّضون فكرة الموت، ويتعايشون معها.

ارتشفت مارجي بضع رشفات من الشاي، وكذلك فعَل جوناثان. سرى دفء السائل في جسمه وما لبث أن استرخى.

– في أيّامنا، باتت ظاهرة إنكار الموت مسألة شائعة، واصلَت مارجي. وهي ما يفسّر هاجس أناس في تخطّي الحدود وتجاوز قدراتهم، سواء على الصعيد الجسديّ أو الماديّ، أو الماليّ، أو المكانة، أو العلاقات الحميمة، أو السلطة... لذا، في عصرنا، يُعجَب الناس، إلى حدّ بعيد، بكبار الرياضيّين الذين يتجاوزون الحدود الجسديّة وقيودها، والذين سواء من خلال إنجازاتهم أو مكانتهم، يقدّمون أنموذجًا عن نوع من الخلود...

وضعَت كوبها على المنضدة.

– ومع ذلك، فمن المفارقة، كما ترى، أنّ إدراك حدود قدراتنا قد يكون هو المُنقِذ الذي يحرِّرنا. وحين نتقبّل تلك الحدود كاملة، نستطيع أن نسعد ونُطلِق العنان لطاقاتنا الخلّاقة والإبداعيّة، أو حتّى أن نبدأ تحقيق الإنجازات العظيمة. ولمّا كان أعظم الحدود، والذي لا مفرّ منه، هو الموت... فإنّ حياتنا تبدأ فعلًا يوم نعي أنّنا سنموت ذات يوم، ونتقبّل الأمر راضين.

طارت الفراشة فرحة رشيقة، فاهتزّت البلسمينة في رقصة قصيرة.

بعيدًا، في عرض البحر، بدا أن المركب الشراعي قد وجد أخيرًا نسمة تدفعه إلى الأمام.

لم يقُل جوناثان شيئًا، وإن ما زال مستاءً من عمّته بسبب المعاناة التي سبّبتها له تلك النبوءة الكاذبة. فقد كان يعرف في قرارة نفسه أنّه لم يبدأ تقدير الحياة حقّ قدرها، كما لم يفعل قطّ في السابق، إلّا بعدما تخطّى جزعه من الموت. فقد فهم أخيرًا أولئك الناس والذين إذ يصابون بمرض عُضال يبادلون السوء الذي ألمّ بهم بالامتنان والشكران.

– إنّ وعي حقيقة الموت وإدراكها يُتيحان التحرّر من الأوهام، واصلت مارجي. فجأةً، نُدرك ما هو حقًّا مهمّ وقيّم في حياتنا. وكلّ ما عداه، كلّ ما كان يسخّر اهتمامنا وطاقاتنا، يصبح أمرًا ثانويًا. ينتهي عمانا، وتتبدّد أوهامنا. بل نسمح لأنفسنا بأن نكون على ما نحن عليه، وأن نعبّر عمّا نشعر به فعلًا، ونعيش ما نريد عيشه.

أعادت إبريق الشاي إلى المنضدة، قبل أن تضيف:

– العيش الهنيء هو أن نستعدّ للموت من دون أسف ولا ندم.

وافق جوناثان في صمت.

– ثمّ إنّ الموت ليس رهيبًا ولا مرعِبًا إلى هذه الدرجة. لكلٍّ رؤيته الخاصّة ومعتقداته الخاصّة في الأمر. حتّى لو وضعنا التفسيرات

الدينيّة جانبًا، فهناك أكثر من سبب لنفكّر في أنّ الموت ليس سوى عبور نحو حالةٍ أخرى، أو نحو شكلٍ جديد من أشكال الحياة، بدلًا من الاعتقاد بأنّنا سنتحوّل مجرّد تراب في نهاية المطاف. وحتّى أشدّ الناس إيمانًا بهذه المقاربة المادّيّة للحياة عاجزون عن تقديم الدليل على صحّة معتقدهم هذا. وخلافًا لذلك، لدينا الكثير من الأدلّة والشهادات التي تتقاطع كلّها، وقد أدلى بها أناس عاشوا تجربة الموت الوشيك، أي كانوا على حافّة الموت. فهُم يُجمِعون على وصف ما عاشوه آنذاك من حالة راحة وحبّ وجمال ونور، إلى حدّ أنّه لم يعُد أحد منهم يخاف الموت.

– صحيح. لقد قرأتُ شهادات من هذا القبيل.

– وما أكثر الذين يدخلون غيبوبة طويلة وعميقة شبيهة بحالة الموت الدماغيّ، ثمّ يعودون إلى الحياة من دون سبب قابل للشرح، فيصفون في دقّة ما كان يحصل حولهم من أحداث أثناء غيبوبتهم، وكلام تبادله الزوّار أو الأطبّاء، وأحيانًا، ما كان يدور... في غرفٍ أخرى. كُثُرٌ أيضًا الجرّاحون الذين استمعوا إلى شهادات مرضى خضعوا لعمليّات جراحيّة، وحالما استعادوا وعيهم، رووا بطريقة منطقيّة واعية، أفعال الفريق الطبّيّ المولَج بالعمليّة وأقواله، وأتقنوا وصف أغراض موجودة في غرفة أخرى لم يسبق لهم أن دخلوها. حتّى أنّ ذلك حدَث لعلَماء... مادّيّي النزعة! لا داعي للقول أنّهم أعادوا النظر في مواقفهم لاحقًا...

ضحكَت، قبل أن تُضيف:

– بالتأكيد، لا نستطيع أن نستخلص شيئًا من هذه التجارب الحياتية، لكن من الجميل أن نفكّر في أنّ أرواحنا، والتي غالبًا ما قورنَت بالعقل، ليست سجينة أجسادنا، بل تستطيع التحرُّر منه، وحتّى الانفصال التامّ عنه، في اليوم الموعود.

ابتسم جوناثان من هذه الرؤية، والتي كان يتمنّى هو الآخر أن يصدّقها. سكتت مارجي. بدت الحديقة الغارقة في سكون ورع تغطّ في النوم. في تلك اللحظة، سمع شدو عصفور. شحرور فاحم السواد قد حطّ على بُعد أمتار.

فجأةً، خطرت في بال جوناثان فكرة خاطفة، فالتَفَت إلى مارجي.

– لقد جازفتِ حقًّا مع تلك الغجريّة. كان في وسعي أن أتفاعل سلبًا، أن تكون نهايتي سيّئة...

ردّت بالبَسمة الأكثر دفئًا.

– أعرفكَ بما فيه الكفاية، يا عزيزي، لكي أُدرك مسبقًا ردّ فعلك. وعلى وجه التحديد... أضافت وفي عينيها التماعة دهاء، وقد بات صوتها هامسًا كأنّها تعترف بذنب ما، كنتُ واثقة في أنّك ستأتي إليّ!

نظر جوناثان إلى عمّته، ذات العينين النبيهتين والوجه المشرِق. سيّدة استثنائيّة قولًا وفعلًا.

ثمّ ترك نظره يحتضن الحديقة والمنظر الخلّاب المترامي حتّى الأفق، حيث يندمج أزرق المحيط بزرقة السماء. كانت ريح الغرب قد هبّت، مجتذبةً مراكب شراعيّة جديدة. تنفّس جوناثان نفسًا عميقًا. كان نسيم البحر يتنفّس عطر الأزل.

42

توالَت الأسابيع، الواحد بعد الآخر، وبعد موجة من البرد الخريفيّ المُنعِش، عاد الدفء وبقوّة إلى الساحة، على جناح صيف مُتجدِّد بثّ البهجة والفرح في قلوب سكّان سان فرانسيسكو وسيّاحها.

وعاد ريان إلى كاميرته، وراء ستائره السوداء الطويلة، بعدما أعياه الجلوسُ طوال فترات بعد الظهر أمام التلفاز. كان قد توقّف عن التصوير منذ زمنٍ بعيد، لكنّه عكف الآن على ترصُّد زبائن الترّاس والتنصُّت إلى أحاديثهم، وقد وضع سمّاعة المذياع المتعدِّد الاتّجاه على أذنيه، وثبّت عينه وراء عدسة التصوير. لم يكن يعرف سبب فعله ذلك.

فتح عبوّة كوكا وشرب جرعة منها. مسح يديه الرطبتين بالـ«تي-شيرت»، ثمّ عاد إلى موقعه.

كان أحد السائقين يركن سيّارته من طراز بورش مكشوفة في الشارع الضيّق المحاذي للمقهى، عند زاوية الجادّة تمامًا. ترجّل منها مايكل. تتبّعه ريان بنظره، ثمّ ابتسم: منذ أسبوعين، وهو يشاهد مايكل كلّ يوم في هذه السيّارة، لكنّها المرّة الأولى التي لم يلتفت مايكل فيها ليُلقي نظرةً على مركبته الفخمة السريعة هذه، بعد أن يبتعد بضع خطوات منها.

جلس إلى طاولته، وألقى نظرةً على الجمع حوله ليتحقّق ممّا إذا كان لفت الانتباه. من هذه الناحية تحديدًا، هو لم يتبدّل البتّة. أشار إلى النادل.

قرّب ريان اللقطة.

– فنجان قهوة.

أومأ النادل إيجابًا وابتعد. مرّةً أخرى، أجال مايكل النظر في أرجاء التراس، وبعد لحظات، شرد نظره ولبثت عيناه شبه جامدتين كأنّهما تائهتان في الفراغ.

وضع النادل فنجان القهوة على الطاولة، وانصرف.

منذ بضعة أسابيع، ومايكل وحيد. يجلس وحيدًا إلى طاولته. ويشرب قهوته وحيدًا كذلك الأمر.

كان المشهد يشي بشيء مُربك، أمر أثار قلق ريان. كما لو أنّه، ولأوّل مرّة في حياته، يشعر بتعاطف مع أحدهم، يضع نفسَه مكانَه ويشعر بعزلته.

عاد في اللقطة إلى الوراء. كان التراس قد امتلأ بالروّاد نوعًا ما. الكثير من السيّاح، بعضهم فظّ بعض الشيء، والآخر بِسِمات شبه ساذجة. وطاولة فارغة.

في الآونة الأخيرة، وكلّما لمح ريان طاولة خالية، تملّكته الرغبة في النزول والجلوس إليها، هكذا، وسط هؤلاء الناس جميعًا. فلكثرة ما راقبهم، لربّما أصبح مثلهم، مغفّلًا هو الآخر.

طيف أسود، إلى جهة اليمين.

غجريّة، سيّئة الهندام، وإنّما مكشوفة التقويرة، كانت تجتاز التراس.

اندسّت على مهل، بين الطاولات، ثمّ توقّفت أمام مايكل، وأخذت كفّه بيديها.

قرّب ريان اللقطة.

تركها مايكل تفعل، وابتسامة مستمتعة على شفتيه. فيما مالت على راحته المفتوحة، تحيّن الفرصة ليُنعم النظر في تقويرتها. فجأةً تركَت يده، واستقامت أمامه. حدّقَت فيه لحظة، صامتة. ثمّ أعلنت له في صوت أجوف، جعله يجمد في مقعده:

– ستموت!

* * *

قذفت كلويه حقيبتها المدرسيّة إلى طرف الصالون.

– ألديك فروض؟ سألها جوناثان.

– أنجِزها في وقت لاحق! أجابت مستنكرة.

ومن دون أن تنتظر جوابًا، انطلقت تعدو نحو الحديقة. ركضت حتّى بلغت القنطرة التي أقامها والداها البارحة واعتلَت الأرجوحة.

– احزر ماذا اشتريت؟ عاجله صوتُ أنجيلا من النافذة المفتوحة.

– ليس لديّ أيّ فكرة، قال جوناثان.

تمايلت كلويه وتلوّت، عساها تنجح في تحريك الأرجوحة العاصية.

– تصوّر أنّ غاري بات يصنع الخبز بالخميرة اللبنيّة.

– حقًا؟

وأخيرًا، مادَت الأرجوحة في الاتّجاه الصحيح.

«أسرَع!»

– اشتريتُ رغيفًا للفطور.

– ليس مؤكّدًا أن يبقى منه شيء حتّى موعد الفطور...

نجحَت كلويه في إطلاق العنان للأرجوحة والإسراع أكثر فأكثر. ما أمتع ذلك. إنه يُحدِث الكثير من الدغدغة في المعدة.

«أسرع بعد هيّا!»

– كلويه! لا تنسي فروضكِ!

– مهلًا...

«لي الحقّ في اللعب قليلًا...»

راحت تتأرجح في سرعة متزايدة، أكثر فأكثر، وتعلو أكثر فأكثر.

«حتى السماء!»

وفي لحظة واحدة، انزلقت مؤخّرتها عن مقعد الأرجوحة، وأحسّت بأنّها تنقذف...

– آ آ آ آ آه!!!

سقطت كلويه على ظهرها، وكان سقوطها عنيفًا مؤلِمًا. لم يعُد في مستطاعها أن تتنفّس، كأنّ أنفاسها علقت وانسدّت، كأنّها تعطّلت فجأةً.

سُمع صراخ والدتها. ووالداها يهرعان نحوها.

«حمدًا لله. ها أنا أتنفّس من جديد... استعدتُ نَفَسي... أووف...»

حرّكَت ذراعَيها، ثمّ ساقَيها، ثمّ تدحرجت ببطء على بطنها.

– حبيبتي! صرخت أنجيلا، وهي ترتمي عليها وتحتضنها.

– أين مكان الألم؟ سألَها جوناثان قلقًا مهمومًا.

«إنّهما خائفان.»

– لا بأس، أنا بخير، أجابت كلويه، باكيةً.

لم تعد تشعر بأيّ ألم، لكنّها كانت تبكي أكثر فأكثر، من دون أن تدري لماذا، ممدّدة على بطنها وسط العشب.

«لا حظّ لي على الإطلاق...»

أخذت أمّها تضمّها في شدّة إلى صدرها وتغدق عليها القبلات.

– لا بأس يا عزيزتي. لا بأس، ستكونين بخير.

فجأةً، وبالضبط أمام أنفها، وعبر ستار الدموع التي كانت تُغرِق عينيها، رأت كلويه شيئًا لا يُصدَّق. طرفت بعينيها لترى جيّدًا.

«بلى، هو موجود فعلًا...»

مدّت يدها لتلمسه. بين الأعشاب أمامها. هنا بالضبط، رأته بأمّ عينيها: نفل حقيقيّ، نفل بأربع أوراق.